الإمام
علي بن أبي طالب

الجزء الخامس

تأليف

عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت



١

نذر معاوية — وعينه من الصباح للغرب على هذه البقعة من الميدان — لئن أظفره الله من بعد بربيعة ليجعلنها أمثولة العرب مثلة ، وليقتلن منها المقاتلة ، وليسبين النساء ! . .

وكان حنقه هو الذى ألهمه نذره ... فالنهار انسلخ إلا أقله . ولمة الشمس غابت فى الغرب . والمساء أقبل عليه بسواده وما تزال هـذه الطائفة ، كبدئها الوقعة ، كالعلم ، على قدم ...

حين أخرج «الخضرية» تزحف كان المصير كله فى يمينه . العزة له . الدحرة لغريمه . الموت والخوف والفرار تنتشر أمامه فى صفوف على انتشار النار .. فى الميمنة .. فى القلب .. فى الطليعة .. فى كل مكان من أرجاء الميدان إلا هذه البقعة الصغيرة من ميسرة أهل العراق التى دافعت عن حرمها « ربيعة » . وقد حمتها حقيقة كالحرم . ووقفت دونها ترد دنس الهزيمة .. من ساعة الظهيرة لم يرعها القتل الذى شاع فى رجالها حتى انقضى عمر هـذا النهار ، وكانت ثقة معاوية والشمس تزهر أن ظفره بها رهين ساعة تصول فيها « حمير » ثم ينتهى بعدها القتال .

غير أنها لم تتزلزل . وجاهـدت باليد والقلب كتيبته التى أعلمتها الخضرة ، وحركها زهو ابن عمر ، وجيشتها حمية ذى الكلاع . لم يقض فيها معاوية وطره . ولم تفتنها — حتى هذه اللحظة التى شاعت خلالها عتمة المساء — أفانين تغريره إنما غالبته فى قلبها كأنها كثرة ، وتعثرت بها خطاه الوصيعة حتى آثر جمه المدل المختال أن يمشى إليها الهوينى على حذر ، يصابر القدر ، ويداور الوقت عسى أن تلوح له فى صفوفها المرصوصة ثغرة تنقض الجدار !

وطال بهذا العناد العجيب أجل الصراع وانقضت سويعات ذلك اليوم بطيئة رتيبة ، كعيس القافلة ، يتبع اللاحق السابق ، ويلوى بعضها على بعض ، دراكا دراكا على منبسط الرمل كأن آحادها العديدة دابة واحـدة تسير . ثم تدور وتسير ، ثم تعاود الدوران والسير ! . .

احتدام النزال لم يأخذ منها . ولا اشتداد العدو . ولا تحول النهار .. إنما غيرها نالت منه الغمرة ، وهزه الجهد ، وأوهنته الساعات ... الزهو في صدر ابن عمرو بهت . الحمية في نفس ذي الكلاع بردت . الثقة بقلب معاوية في النصر السريع العاجل نزف معينها قطرة قطرة حتى عاد يؤمن ، وهو أسيف ، أنها كانت حدسا خالصا زيفه عليه وهم الخيال ... وعندما شحب لون النهار ، وغاض في الأفق ينبوع النور ، كان الخوف — كالظلمة الزاحفة على السكون — يزحف إلى فؤاد العاهل المتوجس زحف الرقطاء .

وانتفض كمحموم . من حنق وقلق . ومن خشية وحيرة ... ففي جوانب الميدان أخذت نقط صغيرة بيضاء تبدو لعينيه من بعيد على الأديم الأغبر كأنها قطر الطل . ثم راحت تتقارب كالنمل . ثم صارت تلتئم وتنتظم هنا وهناك ، عقوداً موصولة ، فرقائق كالسحب ، فكسفة واحدة كثيفة من السواد وقد صبغتها ظلال المساء ...

الشراذم المقطعة من جند علي رتقت فتقها من بعد تمزق . والفلول الفرارة آبت إلى الصبر بعد الخور ، وإلى الوحدة بعد التفرق . . . الآن غابت فرصة النصر العاجل ، غربت كالشمس . خبا رجاء ابن أبي سفيان . غدت أهدافه — التي بدت له في النهار دانية — في مشرق الأنجم ! ..

ليس ثمة ، هذه اللحظة ، في جوانب الموقعة رجل واحد من رجال الإمام إلا نضا عن نفسه الفزعة الأولى ، التي أذهلته حين تهاوت الميمنة العراقية ، ثم لاذ بإيمانه . . . كلهم رجع يلتف بالأشتر . كلهم عاد إلى مكانه الأول قبل الفرار . كلهم فاء للولاء والفداء . وما كاد جمعهم يلتئم حتى التحم بعدوه وقائدهم الجديد الفارع ينطلق أمامهم كالرمح ، نافثا في أرواحهم من عزمه ، نافخا فيها من صدقه وهو يسبق إلى مهاوي الردى خطاهم ...

ورددت جنبات صفين صيحة الأشتر :

« . إن الفرار فيه سلب العز ، وذل المحيا والممات ، وعار الدنيا والآخرة.. »

فلم تبق بعدها أمامهم هنا قدم ثبتت إلا أن تكون قد بترها عن جسدها

حسام ، وكان اليوم حينذاك يدنو المغرب ! . . ولم تبق هناك حيال ربيعة من الخضرية أصابع تحمل السلاح إلا أن تكون تقبضت عليه وهى على الثرى رمام ، وكان النهار حينذاك يذوب فى المساء ! . . .

عندئذ نذر معاوية فى نذرة : رجالها ذبح ، ونساؤها إماء ! . .

* * *

وضاقت عليه من بعد آفاقه . . .

الهواء الذى يحرك رئتيه ينفذ إليه من سم إبرة . قلبه إن خفق شرق ، دقته رجفة كاهتزاز السراج المريض وهو يلفظ آخر لمات شعاعه ، ونبضته خلجة كومضة الشهاب المنقض إلى هاوية الظلمة . . . المر فى حلقه . الحسرة فى نفسه . القلق فى لمح عينيه . حتى هـذه النجوم المجلوة — تلك الليلة الساجية من ليالى الصحراء — لاحت له تتذاءب وتضطرب ، وتظهر وتغور ، وتزهر وتعتم كأنما تداولتها سحائب من ضباب فكره الحير ! . .

وقال معاوية لحليفه لعله بالحديث يقتنص فرجة لهمه :

« أما ترى ، يا أبا عبد الله ، ما قد وقعنا فيه ؟.. إنا لبمعرض خطر عظيم.. »

فأغضى عمرو وهو يجيبه الجواب الذى لا يخفف قلقا ولا يكف حيرة :

« إن أصبحت ربيعة متعطفين حول على تعطف الإبل حول فحلها لقيت منهم جلادا صادقا ، وبأسا شديدا ، وكانت التى لا يتعزى عنها ! . . » .

فيا لربيعة ! . .

يا له منها اليوم ، وغدا ، وبعده إن امتد به على أرض الوقعة أجل أحلامه ! . فهى الشجى الذى يغص به الحلق . وقد يشرق ، فلا يعود يزفر أو يشهق ! . . وهى قطرة السم فى الدسم ! .. وهى بعوضة «نمرود» ! . . وكلما انطلق والزمن طالعته من خلاله نكبة فيها لربيعة إصبع ، وعليها من أثرها ظل . تثبت حين ينفرط الناس . وتثبت فتوهى شداده وأجلاده . وتثبت حتى يلم الأشتر من شعث الفرار ، ثم يكر ، فيصبر ، فيكر كأنها حينذاك حصاة الملح غمست فى ماء أجاج فراح يجمد عليها ذوبه ، ويتبلور ملحه ، رويدا رويدا ، حصاة حصاة ! . .

كل أحلامه انهارت أمامه وأنباء هذا القتال تأتيه ، لحظة بعد لحظة ، فى قبته البيضاء . . لم يطل دم ابن بديل . لم يذهب هدرا . لم يدم مكث هذا الشهيد وحده إلا قطعة من يوم وهو بذلك المجاز المجهول الذى يفصل وادى الحياة الضيق عن أودية الموت . فما انقضت عليه سويعات ، سا كنا بمصرعه ، منذ تهاوى عليه الصخر ، حتى تبعه من عدوه مئة خاسرة ، فئة أخسر ، فمئون بعدهم عديدة باءت مثلهم بالبوار ولحقت به إلى المجاز المجهول ! . . الميسرة التى شردت فى النهار ميمنة على طارت ترحع مع الغروب على جناح الهزيمة . مشاتها انثنت بهم سوقهم كالأعواد المقصوفة إلى مثاويهم فوارسها اختلطت جثثها على الأديم ببقايا الأفراس . والبقية الذين أمهلهم العمر أعجلهم الذعر فولوا سراعا عن الميدان ، يلصقون بقلب جيشهم ، عند القبة البيضاء ، كأنما ينشدون فى ظل عاهلهم الحزين الحماية ! .

* * *

وقال الإمام لميمنته التى نشلها الأشتر من ذلة الخوف والقهر وطفا بها على سطح العزة :

« . إنى قد رأيت جولتكم ، وانحيازكم عن صفوفكم يحوزكم الجفاة الطغام وأعراب أهل الشام . فلولا إقبالكم بعد إدباركم ، وكركم بعد انحيازكم ، وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزحف دبره ! ولقد هون على بعض وجدى أنى رأيتكم بآخره حزتموهم كما حازوكم ، وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم ، تحوزونهم بالسيوف ليركب أولهم آخرهم كالإبل المطردة الهيم ! . فالآن فاصبروا ، أنزلت عليكم السكينة ، وثبتكم الله باليقين . . »

فصبروا كصبره . ولم يسدل الليل الذى زحف ظلامه على مواقع الحرب سترا حاجزا بينهم وبين الأعداء . كما فى النهار ، جمعتهم الأمسية على خصومة وتناجز . ليست الموقعة تدور الآن فى ركن ربيعة فى كل ناحية تتسع للقدم تدور . كالرحى الحاصدة لا تكف من أمام لخلف ومن يمين ليسار . كقطر الطل على الرمل تناثرت دماؤهم تبل صدى هذه البقعة التى أحرقتها حرارة النهار . . . ليست

القوى المتصارعة هي وحدها تلك التي قدمتها الظهيرة ، وصاحبها العصر ، وعكست جراحها الحمراء على وجنة الأصيل . بل الليـل أيضا أطل بعينه الوسنانة على الصراع . والظلف تبعه ظلف ، والخف تبعه خف ، والسواعد والأقدام تزاحمت على الفناء والنجاء من أمام لوراء ومن وراء لأمام ... عجت الحلبة بهم أجمعين : ثعالب وآسادا ، من هذا الفريق ومن ذاك ، عجيج الخلية بنحلها تفيض بالدوى وتمتلىء بالطنين . وكانت الخناجر تهدر كالرعد ، والسيوف تلمع كالبرق ، والجياد تركض كعاصفة ، والليلة — دون هذه الملاحم الفوارة — فيها هدوء ودعة ، على سمائها صفاء وسلام ، وفي نجومها تزهر وابتسام ..

٢

عندما سكب الليل سـواده على رمال صفين ، لاح أمام معاوية قبس من الأمل ، رقيق كالطيف ، لامع كالشعاع . على دفئه تبددت همومه كما تبدد الصحوة ضباب البكور . وعلى برقه تبين أحلامه تنهض من كبوة ، فتنفض غفوتها ، وتلعق جراحها ، ثم تمضى قدما في طريقها المرسوم . . .

وارتاح العاهل . . . كرة أخرى يعاود عبيد الله بن عمر محاولته . الآن قام لما بدأ . تسربل بالليل . تسلل من بين ظلاله بكتيبته الحضرمية ، ليباغت ربيعة العنيدة من وراء ظهرها ، لعله يظفر منها في الظلمة بما أوهن عزمه طوال النهار . . .

وانطلق عبيد الله . وانطلقت خلفه الآلاف الحضر تشرب الرمال الظمأى وقع قدمها وخفها وحافرها ، وتستر دكنة الأمسية زحفها المريب . . . الأنجم في الأفق أعين . القمر ينسج للسكون الأغبر بردة رقيقة من خيوط نوره البيض . ولكن الجموع الزاحفة مضت لطيتها ، لا يشى بها الرمل ، ولا العيون الساهرات في منافذ السماء ، ولا الظلال التي ألقتها آحادها العديدة على الأرض ، فما كان أكثر الظلال التي مدها حولها في هذه الناحية كثيب ، وفي تلك كثيب . . .

فى خفية كان انطلاقه . وعلى روية وحذر . وإلى غاية له دانية تنفسح وراءها سبيله إلى النصر . . . البغتة سلاحه . الظلام مسربه ، الصفوف التى تساندت هناك عند حد بصره آمنة السرب ، تغالب الإعياء بعد حرب النهار ، هى الفريسة للشتهاة . غير أن قلبه فى قفص ضلوعه كان — فيما أحسب — يتوثب كالطائر ، يضطرب من قلق ، يختلج على وقع قدميه . وكلما دنا من عدوه وضاقت الشقة ضاقت معها نفسه ، وانقبض صدره ، وامتد أنفه ليلقف الهواء ! . .

لكأنى به كان يحس أنه سائر إلى قدره . فما برحت دعوة الحسن بن على تصك سمعه وتسرى إليه على النسمة . من خلال الظلام المخيم . كان يبرز له وجه سبط الرسول كالغرة فى الليل ، ماثلا لعين مخيلته . أينما أدار بصره طالعه . وحيثما انطلق لاحقته همساته تصور له الختام الرهيب القريب . ولم يشغله عن الغرة زحفه ، ولا عن الهمس ضجيج جنده على أرض الميدان ، بل ظل ذلك المحيا الوضىء يبدو حياله فى سواد أمسيته ، وعلى صفحة القمر ، وبين ثنايا السحائب الرقيقة . وظلت الهمسة المنذرة تسرى إلى مسمعيه ، من الهدأة الساكنة ، ومن وقع الخطا المنزلقة على الرمل ، ومن دبيب قلبه المضطرب وهى تردد له مصيره فى تواتر رتيب رهيب :

« سيصرعك الله ! . . ويبطحك لوجهك ! . . يومك أو غدك ! . . »

وما هى كذلك بالدعاء الوحيد ، فى يوم واحد نعب الشؤم فوق رأسه مرتين نعيباً هز فيه إيمانه بالمجد واطمئنانه إلى الحياة . . . عمار أيضا دعا ، بشفتيه الذابلتين ذبول وريقة الخريف ، دعاء ثقل له قلبه وشرق حلقه وغامت عيناه . وإنه ليمضى الآن إلى حيث يريد مباغتة ربيعة وفى أذنيه دوى ذلك الدعاء :

« صرعك الله ! . . . »

فيتلفت حوله ، باحثاً فى الظلمة عن الشفتين الذابلتين ، والوجه المضيم المعروق ، والقامة النحيلة التى براها عمرها الطويل وكأنما فى حسبانه أن عمارا روح تهيم فى الفضاء لا تردها عنه حدود الزمن والمسافة ، حتى إذا غارت فى الظلام نظراته ، وتاه باله الحيران ، نشط خياله المحموم فرأى وسمع ما لاتنقله صورة ماثلة ولا يؤديه لسان قوال :

« يا ابن عمر . . . بعت دينك بالدنيا من عدو الله وعدو الإسلام . . . »
وإذ ذاك يردد لنفسه كالمسحور :
« كلا . ولكن أطلب بدم عثمان . . . » .
« أشهد على علمى فيك أنك أصبحت لا تطلب بشىء من فعلك وجه الله .
فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما نيتك ! . . » .
ثم يهمد الخيال . . .
وما هذه أيضا بخاتمة الأحاديث التى هزت دخيلة فؤاده بالطيرة .. إنه فى هذا الصباح — نفس هذا الصباح الذى يختم ليله بزحفته الخالسة ، قد سمع مازلزله ، وصبغ دنى أحلامه بالسواد . . . فلقد تهيأ حينذاك للقتال وقام نساؤه يشددن عليه — كعادته — سلاحه . إلا الشيبانية بنت هانئ انتحت عنه ناحية . فلما فرغ وهم أن يبرح ، مر بها كأنما يبكتها على ما كان من قعودها عنه .
قال لها وهو يدل باعتزازه :
« إنى قد عبأت اليوم لقومك . وايم الله إنى لأرجو أن أربط بكل طنب من أطناب فسطاطى سيداً منهم ! . . » .
قالت المرأة ، ولم ترفع وجهها إليه :
« ما أبغض إلا أن تقاتلهم . . » .
« ولم ؟ » .
« لأنه لم يتوجه إليهم صنديد إلى أبادوه . . . » .
فابتسم . أدل عليها فلعلها أدلت عليه . ولكنها ما لبثت أن أردفت بنبرة أسيانة :
« أخاف أن يقتلوك . . . » .
« ويحك ! . . . » .
« وكأنى بك قتيلا وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لى جيفتك . . . » .
عندئذ ثار . وأهوى عليها بقوسه فشجها .
وحين غادرها ، خلف فى أذنها كلماته الغيظة المزهوة :
« ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك ! . . » .

على أنه إن تغافل نبوءة الحسن وتناسى دعاء عمار ، واستهان بتطير الشيبانية لم يكن قط مستطيعا أن يمحو من ذاكرته كلمات الإمام يوم عدا على الهرمزان فقتله انتقاما لأبيه عمر الذى جند له خنجر أبى لؤلؤة . كانت ترن فى أذنه . فر فلاحقته إلى حيثما سار . طاردته خلال الأعوام الطويلة السالفة فى خلال خلافة عثمان من سنة لسنة ومن مكان لمكان، ولم تفلح حماية الخليفة الشيخ إياه، وتراخى قبضته اللينة عن عنقه ، أن تجعله فى مأمن من القصاص المنتظر . وها هو الآن وقد عاش كالشريد ، ولحق بالمعسكر الذى حسبه سيجنبه نقمة ذلك المستمسك بحق ربه فيه ، لا يزال يسمع من وراء الزمن كلمات على كأنها القضاء المقدور :

« لئن فاتنى فى هذا اليوم لا يفوتنى فى غيره . . . » .

يسمعها تنبع من مواقع خطاه . ويسمعها من صليل السلاح فى كتيبته الخضرية وهو يزحف بها تحت كسفة الظلام ويسمعها ويتلفت حواليه كأنما يتوقع أن يبرز له الإمام من ثنايا الليل لينفذ فيه ذلك القضاء حتى إذا أشرف على مقصده ، استغرقته بعد ذلك هذا حركة جنده ، فيمضى شأوه وقد نفض عن نفسه ما جسم وهمه ، وانطلق فى جمعه الملم ، إلى غلبة خايلته ، ونصر تراءى له قريبا — قريبا هناك تنفسح سبيله وراء هذه الصفوف التى قامت دونه ودون مجده المرموق منذ الصباح . .

* * *

أما عمار فهو حينذاك فى خلوة مع ربه ، غاب فيها قلبه عن حومة الصراع ، وخشعت نفسه ، وامتدت عينه إلى القبة السامقة التى نطقتها الكواكب ، يضرع ويناجى الله ودمعه يبلل محياه :

« اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هـذا البحر لفعلت . . . اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبة سيفى فى بطنى ثم أنحنى عليها حتى يخرج من ظهرى لفعلت . . . اللهم وإنى أعلم مما علمتنى أنى لا أعمل اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلت ! . . » .

* * *

أما معاوية فقد أنساه رجاؤه المعاود ، ووثبة ابن عمر ، ولمعة الظفر التى صاحبتها فى بدء خطاه ، أن الامل والوثبة واللمعة جميعا رؤى وأحلام . إنها لتحجب عنه حقائق لولا وهمه لم تكن لتغيب . تحجب عنه ما فى يمينه . وتحجب عنه ما تحت عينيه . وتدع خياله الجامح يسبح به فى عوالم من الفراغ بغير نهاية ولا حدود . فصحيفة النصر التى كتبها له النهار قد طواها الغروب . أودعها الماضى . جعلها أسطورة ! . . ومنذ ثبتت ربيعة ، ثم قوم الأشتر بقية الخطوط ، ثم فرت الحضرية بات واضحاً أن حظ عاهل الشام فى هذه الحرب عثر ، وأن نجمه غار . وليس هذا رجما بغيب ، ولا انسياقاً لطيرة . ولكنه نتيجة حتمية نمت عنها طبيعة القتال والعوامل النفسية التى كانت تحرك خطا أعدائه وأوليائه على السواء . فما كان عمرو بكفء عمار ، ولا ابن عمر نظير هاشم ، ولا هو نفسه يطول قدر الإمام حين ينظر إلى نتائج المعارك خلال الإيمان بالفكرة قبل الإيمان بالكثرة ، ومن ثنايا القدرة على الجلاد والشوق للشهادة قبل تراكم العدة والأعداد من السلاح والأجناد . . . ومن اليسير أن نتبين أن الشك كان دائماً فى جانبه ، وأن اليقين كان دائما فى جانب خصمه . وحليف الريبة أبدا خاسر ، وصاحب الثقة أبدا ظافر وإن توطأت للأول المنازل وتوعرت دروب الأخير . .

على هذه الهيئة نفس معاوية والحضرية تعاود الهجوم : رجاء ساطع ولكنه سراب ، وقلق باهت ولكنه ثابت . وهل يغنيه أن يتشبث بعد هذا بالمنى العذاب الخلب وأفعى الريبة تنشب نابها فى فؤاده ؟

ومع ذلك فلم تنتصف له الحضرية ، ولم يختلب ثمرة النصر التى شق فى سبيلها جيشه الكبير كان الكفاح كرة وفرة ، وغلبة ودبرة ؛ والعيون التى لاحقت ذلك الصراع من ثنايا الظلام كان عسيراً عليها أن تميز المقهور من القاهر ، والخاسر من الظافر فالميدان مضطرب هنا وهناك بالخيل والرجل والمشاة والفوارس من هذا الفريق ومن ذاك ، وقد اختلطت الصفوف والخطوط كاشتباك الخيوط . والظلام مهيمن على الثرى المخضوب إلا لمحات كوكب طالت عليه شقة السير وأوهن عينه السهر ! . .

* * *

تلك ليلة حازبة ذاق فيها معاوية صاب الموت وما مات . لفحت قلبه فى جوها الرطب البليل ريح مثلوجة ، أوشكت أن تشله ، وتحيل الدم فى عروقه قطعة من جليد . . .

وكانت الريح من نفحات ربيعة !

إذ ذاك كانت هذه الفئة العنيدة من جند غريمه تخطو نحوه على زوبعة ، وتسرع على إعصار ، وتيمم من بين مصافه وفرقه وألويته شطر قبلة لها وحيدة ، بيضاء كالغرة بين مضارب عسكره ، لا تفلتها الأبصار .

ونحله حرصه على الحيـاة ذعراً مجنوناً ثار بجسده الذى شلته البغتة فاندفع يعدو إلى غير غاية كالفرس الجامح حتى خلف قبته البيضاء إلى خباء من أخبية جنوده يتوارى فيه . . .

وتلاحقت أنفاسه اللاهثة تختلط بهمسة :

« يا ويح ربيعة ! . . لئن أظفرنى الله . . . » .

ثم لم يتم صيغة نذره إذ نفث شيطانه فى ضميره فومضت عينه ، وهدأ جأشه ، ومال بفمه على أذن رسول . . .

وعندما تهاوت من صفوف حماته الخمسة ثلاثة ، وخرق الرابع ، وهمت ربيعة تقصف الأخير ، كان رسوله قد بلغ غايته ، وتقدم يسر لخالد بن المعمر رسالة العاهل المهيض المذعور :

« إنك قد ظفرت . . . لك إمرة خراسان إن لم تتم » .

ولم يعقب خالد .

وشهدت الواقعة الظفر يندثر . . .

وشهدت الليلة القائد المهاجم يعود . . .

وشهدت ليلة سراها لاحقة ، عقيب أعوام ، ذلك الخائن وهو يسير على طريق خراسان وفى يمينه كتاب توليته عليه خاتم ابن أبى سفيان ! . .

الرضا فى العين ، والحيرة فى الفكر . اللممة فى الأفق ، والجمر فى الصدر . . .
معاوية إن نجا فإلى حين . وإن اجتاز من الخطر غمرة فأمامه بعد غمرات . .
هو لا ينسى أنه الآن بإزاء عصبة من أصحاب على واحدهم فرقة ، وفردهم كتيبة ،
يتوثبون إلى المصارع توثب النحل على الزهر ، خفاف الخطا ، ثقال القلوب من
يقين فلا تهزها الخطوب ، ولا ترجها النوازل

الآن هو بإزاء هاشم بن عتبة بن أبى وقاص . دعاه الإمام : « أقدم ! »
فلباه ، ووقف مصغيا بين يديه لحديثه وفيه دعابة ومزاح :

« يا هاشم . . حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟ » .

فابتسم الرجل وأجاب :

« لأجهدن على ألا أرجع إليك أبدا ! . . » .

« إن بإزائك ذا الكلاع وعنده الموت الأحمر » :

« أما والله لتعلمنى ، يا أمير المؤمنين ، إن شاء الله ، ألف بين جماجم القوم ! »

ثم استضحك ومضى بلوائه تملكه خفة ليست فيه هى عرس الشوق للفداء .
فلما وقف بصحبه على حافة وديان الموت ، راح يسألهم وعينه تحيط بالمعسكر المقابل :

« من أولئك ؟ » .

قيـــل :

« أصحاب ذى الكلاع » .

« وأولئك ؟ » .

« جند أهل المدينة وقريش » .

« ومن عند هذه القبة البيضاء ؟ »

قالوا له :

« معاوية وجنده . »

« فإنى أرى دونهم أسودة . . . »

« ذاك عمرو بن العاص وابناه ومواليه » .

فأعاد عينه إلى رفاقه ، وهتف فى ثقة واعتداد :

« . . . إذا رأيتمونى هززت هذه الراية ثلاثا فاعلموا أن أحدا منكم لا يسبقنى إلى الحملة . . . »

ثم تخير من بينهم واحدا وأوصاه :

« . . . فإذا رأيتنى قد صرعت فخذها » .

وسار يرقل بلوائه ، وإلى جواره عمار بن ياسر نضا عن نفسه وهن التسعين واشتد فى سيره ، كلما رأى من رفيقه التؤدة فى الزحف راح ينخسه بسن رمحه معاتبا ويتعجله :

« أقدم يا أعور ! . . لا خير فى أعور لا يأتى الفزع ! . . » .

فيضحك هاشم ويرد عليه :

« رحمك الله يا عمار... إنك رجل تأخذك خفة الحرب . وإنى إنما أزحف باللواء زحفا وأرجو بذلك أن أنال حاجتى . . » .

ثم يتقدم فيركز الراية . فإذا تتامت له الصفوف عاد للزحف من جديد . . .

وقال عمرو بن العاص ، وقد بدت الفرق الزاحفة أمام عينيه تنطلق وئيدا ، وتقاتل وئيدا ، ولا تكاد تمضى بها القدم خطوة أخرى إلى أمام حتى تطهر الأرض من كل منازل :

« إنى أرى لصاحب الراية السوداء عملا . . . لئن دام على هذا لتفنين العرب اليوم ! » .

وتساءل معاوية :

« من هذا المقبل ؟ »

قيــــل :

« هاشم المرقال » .

فعندئذ ظفرت به الفزعة ، وصاح :

« أعور بنى زهرة ؟ . . قاتله الله ! » .

ثم خاطب ابن العاص :

« ويحك يا عمرو ! . . إن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة ، وقد كان يرقل به من قبل إرقالا . . . فلئن زحف به اليوم زحفا إنه لليوم الأطول لأهل الشام ! . » .

* * *

وهو الآن بإزاء عمار . . أفينكر قدره ؟ . . أم يغفل خطره ؟ . . أم ينسى تلكم السنين المواضى التى سطر هذا المعمر الشيخ فى سجلها فخراً يزرى بكل فخر ، وصبرا أوهن عزائم الكفر قد باركه محمد وحياه الله ؟ . .

لا ينسى معاوية ما كان . إن الغابر لينساب إلى ذاكرته ، قطرة قطرة ، حسوة حسوة ، حتى تتجمع بها شوارد ظلاله وخطوط نوره وتلتئم صورة كاملة الفناء فى الحقيقة الواحدة التى كل ما عداها باطل هباء . فيومذاك — والعرب فوضى همل ، والحكم بينهم لهبل والعزى واللات ، والدين نزر والشرك بحر — عذب عمار ، وقتلت أمه سمية ، وفتك بأبيه ياسر أمام عينيه فلم ينل من إيمانه كل هذا الإيذاء مثلما يقذى عين ذباب ! . . وعندئذ أكرمه ربه ، وأنزل فيه والصابرين معه :

« والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا ، لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . . . » .

فكأنما استأخره الله لموتة أخرى تبوء بإثمها طائفة من سلالة معذبيه ، وكأنما حدد أجله — ذات نهار سالف ، من نحو جيل — ذلك الحديث الذى جرى به لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذات نهار كان المسلمون إبانه يعاونون نبيهم فى بناء مسجده ، ويحملون إليه الأحجار حجراً حجراً ويحمل عمار حجرين حجرين ، والجهد على محياه ظاهر ، والخشية أن ينوء — وهو هزيل ضعيف — تضطرب فى خواطر الكثيرين . . .

وأشفق محمد عليه :

« يا أبا اليقظان ، لا تشفق على نفسك » .

ثم ما لبث — وقد تكشف لبصيرته أن تعب عمار ذاك ان يودى به ، وأن حينه لا زال بعيداً — أن رق له ، ومسح ظهره ، وبشره :

« إنك من أهل الجنة — تقتلك الفئة الباغية . . . » .

وها هى الآن : هذه الفئة المنكودة ، تضطرم نفوسها تحرقا لصرعه وإن بقيت فيها قلة ذكرت فراح القلق ينوشها خشية أن تحق عليها قولة الرسول فتبوء بشر منقلب ، وتؤوب أخسر مآب . حتى ابن العاص كانت الخشية تهز عصبه ، وكانت الريبة ترج قلبه ، وكانت نفسه المفتونة بزخرف الحياة يرين عليها الانقباض والوجوم كلما سبح خياله إلى ساعة من عمر هذه الحرب قد تطلع الليلة ، أو فى غد ، أو ذات صباح على عمار وهو مقتول .. ولقد ساقه فزعه إلى الشيخ يلقاه بكلام عساه يعطفه إلى صفوف فئته ، أو يبعده عن مهاوى الأجل بوقعتهم تلك ، فيجنبه حينه إلى حين ، تتجنب الشام أن تبوء بدمه . ولكن ابن ياسر كان قد عزم عزمه ، وعرف موطنه ، وعلم من نفسه أنها على هدى وحق ، فلم يختله الداهية الخاتل ، بل ذاق من لسانه كل مهانة وتحقير . .

وقال عمرو بعد فشل حيلته :

« . . ولم تشتمنى يا أبا اليقظان ولست أشتمك ؟ »

أجابه الشيخ :

« وبم تشتمنى ؟ أتستطيع أن تقول إنى عصيت الله ورسوله يوما قط ؟ .. » .

« إن فيك لسبات سوى ذلك . . » .

فسخر عمار من لمز غريمه :

« أيها الأبتر ! . . إن الكريم من أكرمه الله . . . كنت وضيعا فرفعنى الله ، ومملوكا فأعتقنى الله ، وضعيفاً فقوانى الله ، وفقيراً فأغنانى الله . . . » .

وغضب معاوية إذ فشا خبر ذلك اللقاء فى رجاله ، وإذ علم الكثيرون بحديث عمار والفئة الباغية التى تجندله فترد النار . واستحضر إليه ابن العاص يلحاه :

« ويحك ! . . أفسدت على أهل الشام » .

« وكيف ؟ » .

أكل ما سمعت من رسول الله تقوله ؟

قال عمرو يعتذر :

« قلتها ولست والله أعلم الغيب ولا أدرى أن صفين تكون . . . قلتها وعمار يومئذ لك ولى ، وقد رويت أنت فيه مثل الذى رويت فيه . . » .

وقلب العاهل كفيه من حيرة ، وغام وجهه ، ثم أسر لنفسه وهو متوجس :

« هلكت العرب إن أخذتها خفة العبد الأسود ! . . »

* * *

وهو الآن بإزاء قيس بن سعد بن عبادة ، مارد الأنصار . لو قد هادن معاوية زمانه لقبع ذلك الداهية بالمدينة يجتر فيها آلامه ... لكن الحق أيقظه ، وأحي غضبة الجبار فيه . . فما كاد يشمر كيد صاحب الشام ويخرج العملاق من أرض النيل حتى انبرت له طائفة بمستقره الجديد ، تنخسه بسخريتها مرة ، وبشماتها أخرى وهى ترجو أن تخيفه أو تذله . . . وكانوا جميعهم من حزب عثمان ، ومن جماعة ابن هند وأذنابه الذين أيدوه باللسان ، وناصروه فى صراعه بالبهتان ، ورنوا غير حافلين بالمبادى السوية إلى أن يعيدوا إلى الحياة عهداً مات ، فدطوى الغابر أيامه ، وختم شروره وآثامه ، وغربت الشمس على وجهه البغيض . . .

وقطع حمقهم غفوة الأفعوان ! . .

وعندئذ نفض إهابه ، ونفخ سحره ، وانطلق يسعى وهو يفح ، يضرب بذيله ، ويبدى نابه ، ويلوك لعابه ! . .

هنالك عيروه إذ نزعه ابن أبى طالب ووضع مكانه ابن الصديق عاملا على النيل . . .

توعده مروان . . .

وهدده الأسود . . .

وركبه حسان بن ثابت بالبهتان والشماتة :

« نزعك على ، وقد قتلت عثمان فبق عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر . . » .

فضاق بالمارد المقام ، وعنف بالشامت الضرير :

« يا أعمى القلب والبصر ! .. والله لو لا أن ألق بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك ! . . » .

وسار من فوره فقدم صفين يضع عمره وسيفه فى يد الإمام . .

وريع معاوية فبعث للأسود ومروان ، طرفى تلكم الجماعة المناصرة الحمقاء :

« أمددتما عليا بقيس بن سعد ورأيه ومكانه . . . والله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لى ! . . »

* * *

وبإزائه أيضاً الأشتر ، صاحب مذحج والنخع ، وأعدى الناس لباطل الشام ، وأول ناصر لحق الإمام . . وحين يذكر الأشتر فقد ذكر الذى لا يثبت لعناده صابر ، ولا يتقدم عليه مغامر ، ولا يسبق خطاه حين الغمرة مقدام . الذى حرك الدم إذ جمد ، وسعر القتال إذ برد ، و لاختلب النصر وكان لقى بين براثن الهزيمة . . ثبت وقد تفرق الناس ، ونهد وقد قعد الناس ، وكر بطوائف على وأجناده وهم حينذاك مزق وحلول فغدوا به كتلة مرصوصة من البطش والأيد ، ومن الصبر والجلد ، ومن البذل والفداء ، لا تزال تضرب وتنطلق فتهد من عدوها العزائم ، وتزلزل تحته المواقع ، وتنثر بينه الخوف والمصارع ، وليس لها من ورائه غاية إلا تلكم القبة الكبيرة البيضاء !

ثم دع عنه الأشتر ، فدونه غيره كثير . . دونه الأحنف بن قيس ، ودونه سهل بن حنيف ، ودونه أبو أيوب الأنصارى ، وصعصعة ، وجارية ، وابن صرد ، وابن عباس — رجال لا يطولهم الأبطال ، وليس كمثلهم خلاصة الرجال . فمنذا له هو الآن ؟ عمرو ؟ .. ابن عمر ؟.. ذو الكلاع ؟ . أم هذه الطائفة من أهل بيته ، كعتبة والوليد ومروان ؟ . .

كلما أدار ذهنه فيهم طالعوه بالتخاذل . . جمعهم يأعرون حين تحزبت عليه الأمور عسى أن يحكموا له الرأى ، أو يسوقوا المشورة ثم يجرهم حديثهم إلى حمية تدفعهم دفعاً إلى الوقوف لابن أبى طالب صخرة عاتية تسد طريقه أو توهيه . . .

وانبرى عتبة بن أبى سفيان — كأنما ينطق بنزغ أخيه — يثير فيهم النخوة وهو يذكرهم ثأرهم لدى على ، ودم الأسلاف الذى بل ردنه ، وصبغ كفيه ، وسقى التراب تحت قدميه :

« إن أمرنا وأمر على لعجب ، ليس منا إلا موتور . . . »

ثم عدد لهم مصارع الآل :

« . . . أما أنا فقتل جدى ، واشترك فى دم عمومتى يوم بدر . . . وأما أنت يا وليد فقتل أباك وأيتم إخوتك . . . وأما أنت يا مروان فكما قال امرؤ القيس :

وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب

وتذاكروا جميعا بلواهم ، واجتروا همهم وما منهم إلا ناقم يكاد لسانه لو طال عليا لنال منه ما تجبن السيوف عنه ! . . . عندئذ حسب معاوية أن قد بلغ غايته ، فتكلم يحفزهم :

« هذا الإقرار ، فأين الغير ؟ »

قال مروان يسأله :

« أى غير تريد ؟ » .

« أريد أن يشجر بالرماح ! . . »

فإذ ابن الحكم — وقد قبدت له الحياة فى جانب يهم أن يقتحمه على عليه — غدا كالمدلى إلى قبره وما يزال نفسه ملء صدره ! . . أفما يتشبث بالحافة قبل أن يبلغ القاع ؟ . ألا يؤثر السلامة ، وينسى النقم ، ويطل الدم ؟ . .

بل قد آثر الرجل ، ثم سخر :

« إنك يا معاوية لهازل ! . . » .

وتبعه الوليد يتهكم :

« غير ؟ . .

أتأمرنا بحية بطن واد إذا نهشت فليس لها طبيب ؟ »

ثم عرض به حين نكل عن مبارزة على ، وعرض أيضا بصاحبه عمرو حين اتقى المنية بسوأته ! . .

وخزى ابن هند ، وصمت . . .

وغضب ابن العاص ، وثار :

« إن كان صادقا فليلق عليا أو ليقف حيث يسمعه صوته . . . »

٤

فرغ الشجار وانفض السامر . . .

انقضت تلك الجلسة بين معاوية وذويه ، وعلى هو هو ، ملفوفا برهبة تصدهم عن لقائه إلا أن تنوشه ألسنهم العيابة . أما النخوة ، وأما خروجهم له فرادى فى مجال مبارزة ، أو خلسة لغيلة ، وأما ثأرهم منه لمن قتل من آبائهم وأهليهم فى باكورة الإسلام فظلت كأنها حديث حلم وهينمة نائم ! . .

ولم تكن هذه الجلسة وحدها مشهد الملاحاة الفريد بين العاهل وآله ، والخلص من رجال نيته ، والحيرة الملتفة حوله من عشيرته . . . فى كل يوم كان له معهم حديث ، ومنهم شكوى ، وفيهم حث ونفث وتحريض لعلهم أن يكفوه خصمه ، ويرسموا لغيرهم من الأعوان قدوة الكفاح . . . ولكنهم كانوا دائما يؤثرون السلامة إن علموا الغمرة ستدنو بهم من يد الإمام ، فالنأى عندئذ أجدى ، والتولى أجمل ! . .

ولقد بلغ من تهافت بعضهم ما لعله أطمع الناس فى مجموعهم بأكمله ، فكانت نظرة الجيش الأموى إلى خاصة معاوية كالنظرة إلى معرة . وأنكرت العامة تأمرهم ، وضاقت بهم قبائل المحاربين ، وبات معاوية لا يأمن بعدها أن يختلف عليه أجناده الذين قلد أمورهم رجالا من بين أولئك النفر من آله وقومه ، السلف بأصله ، المهين بفعاله . . .

جاءه من اليمن امرؤ لم يكتم عنه ما خالج النفوس من موجدة على أولئك الأمراء الذين قدمتهم الأحساب ، يقول له :

« يا معاوية . . . إنى قلت شيئاً فاسمعه ، وضعه منى على أنه نصيحة . . » .

« هات .. »

« عقدت لبسر وأصحابه … وما الناس حولك إلا اليمن
فلا تخلطن بنا غيرنا … كما شيب بالماء محض اللبن ! »

ومضى الرجل بشعر يضم فخره بقومه ، ولا يغفل غمز من تآمروا عليهم من خاصة العاهل وأقربائه ، حتى كبا لحديثه وجه معاوية وأظلمت من الخجل عيناه .

وأغضى ابن أبي سفيان مليا ، فلما رفع محياه الذى طافت به خطوط خزيه ، قال عاتبا لوجوه اليمن :

« أعن رضاكم ، قال هذا ما قال ؟ . . »

فلعلهم استحيوا حينذاك أن يجبهوه ، واكتفوا بأن ترفقوا له فى الجواب :

« لا مرحباً بما قال ! . . » .

وعندئذ فاءت إليه نفسه ، وبطن رده عليهم بمألوف مداورته ولينه :

« إنى إنما خلطت بكم ثقاتى وثقاتكم ومن كان لى فهو لكم ، ومن كان لكم فهو لى »

ولكنه فى قرارة نفسه كان يعلم أن مداهنته إياهم ليست تنال الرضا منهم ، ولا تبدد من سخطهم على الوضع القائم إلا بقدر ما يبدد النسيم من جبل ؟ . . ما كان هذا ليخفى عنه وهو العليم بالناس ، الخبير بالأنفس ، العارف بأطوائهم كمعرفته طواياه . . . بل الأيام أيضاً صدقته حدسه وحققت له ظنه المستريب فيهم كما حققت يأسه من وفاء أهله له ، وبذلهم من أجل أهدافه سواء بسواء . .

وكان ذلك وقد حميت الوقدة ، واشتجر الناس ، وأوفت الحرب على الفصل . فإذ ذاك دعا إليه مروان يحثه :

« إن الأشتر قد غمنى وأقلقنى . فاخرج بهذه الخيل فى كلاع ويحصب ، فالقه . . . » .

فما زاد ابن الحكم على أن أجابه بغير مبالاة :

« ادع لها عمراً فإنه شعارك دون دثارك ! . . »

قال العاهل يداهنه :

« وأنت نفسى دون وريدى . . » .

« لو كنت كذلك ألحقتنى به فى العطاء ، أو ألحقته بى فى الحرمان . . . ولكنك أعطيته ما فى يديك ومنيته ما فى يدى غيرك . فإن غلبت طاب له المقام ، وإن غلبت خف عليه المغرب ! . . »

ففرغ صبر معاوية وصاح :

« يغني الله عنك ! . . » .

وأقبل عليه عمرو يقول رياء وشماتة :

« والله إني لا أقول لك كما قال مروان . . » .

فثار العاهل الحليم لهذا الملق المكشوف :

« ولم تقوله ؟ . . قدمتك وأخرته ، وأدخلتك وأخرجته ! »

وهنا لم يعوز عمرو أن يبدهه بما يكره :

« قدمتني كافيا ، وأدخلتني ناصحا ! . . قد أكثر القوم عليك في أمر مصر ، فإن كان لا يرضيهم إلا أخذها فخذها ! . . »

ولكنهما تصافيا . وخرج عمرو في كلاع ويحصب للأشتر ليعلم سيده أنه رام نصره لا يرجو ثمناً سوى رضاه . . فإذا هو — وقد سدد خصمه إليه رمحه — ينثني ، ثم ينأى ، ثم يفر إلى النجاة والحياة ! . .

وعندئذ صاح به فتى من جنوده :

« يا عمرو ! . . عليك العفا ما هبت الصبا ! . . يالحمير ! . إنما لكم ما كان معكم . . . أبلغوني اللواء . . . » .

وثبت الفتى حيث هرب قائده ، وقضى وهو قائم على قدميه في الميدان .

وشمت مروان بعمرو . . .

وغضبت اليمنية ، وعاودت سخطها القديم . . .

وقال قائلهم لمعاوية :

« تولى علينا من لا يقاتل معنا ؟ . . ول رجلا منا ، وإلا فلا حاجة لنا فيك ! . . » .

وقال شاعرهم :

« معاوى إما تدعنا لعظيمة يلبس من نكرائها الغرض بالحقب
فول علينا من يحوط ذمارنا من الحميريين الملوك على العرب
ولا تأمرنا بالتي لا نريدها ولا تجعلنا للهوى موضع الذنب ! . . »

* * *

هذه غيرة خلصائه ، وتلك الروح التي سيرت خطاهم — أو قعدت بهم — والساعات تجري سراعا إلى خاتمة صفين . ولقد أهمه أن ظل علي دائما بنجوة عن المبارزة ، أو المهجمة ، أو الغيلة يتقدم بها إليه دارع أو حاسر من أبطال الشام حتى غدا لا يظهر لهم إلا لووا عنه أفراسهم وتحاموا لقاءه . وكم نقم منهم معاوية فعلهم ، وعاب عليهم تهافت القلوب وتبدد الحمية كأنما نسي أن نكوصة هو عن نزال الإمام قد عساه علمهم التشبث ببقية العمر ! . . وكان دائب الثلب لهم ، لا يكف عن تأنيبهم كلما ضاقت عليه الأحوال :

« العجب يا معشر قريش أنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعال يطول به لسانه ما عدا ابن العاص . . . فما بالكم ؟ . . وأين حمية قريش ؟ . . »

فقليلا ما حفلوا . . . لا يحرك حفزه وتعييره فيهم دماءهم الراكدة ، البيضاء كالماء ! . . إنما انطلقوا دائما وسنتهم المأمون ، يسمعون كسمع الصم إن ارتضوا السكوت عنه وعافوا الملاحاة والجدال . . . ولقد يشهد الرجل منهم الرجل من الدهماء والحثالة يستفزه حفز الجاهل فيقدم حمية يبارز الإمام فلا يعد غير بصره يتابع اللقاء إن كاد . ولقد يحنق معاوية هذا الجمود الذي التزموه فيعدو حلمه ، ويعنف لهم في القال فلا يدعونه وغضبته ، بل يبادلونه المرة بمرة ، ويردون عليه عنفه الصاع بصاع ، والذراع بذراع ، وإن جهره ، وإن على ملأ الأجناد

كذلك فعلوا غب نكوله عن مبارزة علي ، وما من بينهم شريف واحد مقدام يسل سيفه ليدفع به عن « شجاعة » مولاه التي اقتحمتها الأعين ولاكتها الأفواه ثم لفظتها على الرغام ! . . إنما انبرى دونهم رجل من عرض الناس ، هو عروة بن داود الدمشقي ، يهم ليأخذ مكان سيده ، وقد امتلأ بالغرور صدره ، وحمي أنفه ، وعمي قلبه ، ولمعت عيناه — نطق حينه بلسانه فصاح :

« إن كان معاوية كره مبارزتك ، يا أبا الحسن ، فهلم إلي ! . . . »

وهدأ بال ابن هند وارتاح . . .

وعجبت الشام . . .

وتقدم إلى علي بعض رفاقه يثنونه عن الغرور :

« ذر هذا الـكلب فإنه ليس لك بخطر . . »

ولـكنه أبى إلا أن يجيب المغامر إلى ما أراد ، وقال :

« والله ما معاوية بأغيظ لى منه . . دعونى وإياه . . »

ثم هتف يحدث المغرور المختال :

« اذهب يا عروة فأخبر قومك ! »

فإن هى إلا كلماته تنطلق ، بعضها لا يزال فى فيه ، وبعضها على النسمة ، وبعضها تلقفته الأسماع ، حتى هوت ضربته ، وهوى معها عروة بن داود : قطعة يمنة إلى هذا العسكر ، وقطعة يسرة إلى ذاك .

وارتج الميدان . . .

وصرخ ابن عم لعروة وقد هاجه الدم المهراق :

« واسوء صباحاه ! . . » .

ثم تقدم ليثأر . فإذا هو فى هنيهة لحم وعظام على الأديم الأحمر ، بجانب القتيل ! . .

عندئذ ارتجف معاوية من حنق وغيظ وهو يشهد رفاقه قد انكمشوا جميعهم فى جلودهم كأنهم قنافذ ، لا يجرؤ واحد منهم على تلبية دعوة على المبارزة ، وهتف فى ثورة :

« تبا لهذه الرجال ! . . أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة ، أو فى اختلاط الفياق وثوران النقع ؟ . . » .

وكانت إصبعه تشير وهى تهتز إلى الإمام .

فما أتم حتى انبرى له الوليد بن عقبة يقول :

« ابرز إليه أنت ؛ فإنك أولى الناس بمبارزته . . » .

ولفظ بمثل قوله الرفاق الآخرون ، على ملأ الناس ، حتى ديست كبرياء العاهل وانتهك إباؤه . وحتى رأى عتبة بن أبى سفيان — ليحسم القضية — أن يعفيهم من الهول ، فقال لهم وهـو يومئ إلى على وقد كان لا يزال يدعو صناديدهم لمنازلته :

« الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه ، فلا أرى أحدا يتحكك به إلا قتله . . . »

لكن معاوية خاف مغبة هذا الجبن الذى شاع فى قلوب أبطاله أن ينتقل لعامة جيشه فيعديهم ، ويبث فيهم الجزع والتخاذل . فما زال يحث ، ويحرض ويستصرخ القادة والأشراف ، حتى هم نفثه الساحر فى نفس بسر بن أرطاة أن يميل به ...

وعاد يغريه :

« أتقول لمبارزته ؟ » .

« ما أحد أحق بها منك . وإذ أبيتموه فأنا له . . »

فمست الراحة قلب الماهل أن استجاب هذا لتحريضه ، وقال :

« ستلقاه فى العجاجة غداً فى أول الخيل . . » .

وعلى هذا افترق الرجلان .

وقال ابن عم لبسر يسأله ، وقد آب ذلك اليوم من الميدان :

« إنى سمعت أنك وعدت من نفسك أن تبارز عليا . . . » .

« نعم » .

« فما يدعوك إلى ما أرى ؟ » .

فخفض بسر وجهه هنيهة ، ثم قال :

« الحياء ! . . خرج منى كلام فأنا أستحيي أن أرجع عنه . . » .

وحين آن اللقاء فى اليوم التالى ، راح بسر يشجع نفسه :

« وهل هو إلا الموت ؟ لا بد والله من لقاء الله ! . . » .

ومع ذلك فقد نكل — كصاحب له من قبل — وسقط أعزل على الأديم يدفع المنية بسوأته ! . . فعل فعلة ابن العاص . فلقد علم — فأمن — أن الإمام يأنف لسيفه أن يصيب خصما أعزل ، بغير عزة ، ولا حياة ، ولا سلاح ! . . واشترى الحياة . . .

ولكنه لم يلق بعدها علياً قط إلا تنحى عنه ناحية يتحاماه . وعلى هديه جرت بطولة الفوارس من الشام ! . .

٥

حتى ابن العاص قد بدا له أحيانا كالبقية الآخرين من أصحابه . يملك همه ، وتشغله نفسه عن الأهداف العليا التى كافح لبلوغها كل هذا الكفاح الدائب المرير ، الذى لطخ جبينه بالعرق ، وغمس ضميره فى الدم ، وجعله أمثولة لاحتيال الوسائل واعتساف الحلول ليقنص الغاية من أى سبيل .

هو لم يخذله . لم يقعد عنه فى أوان اصطراع لم يلق كفاحه بقلة المبالاة التى كانت فى الأغلب الأعم شعار تلك الخلاصة من الرفاق . ولكنه أوشك الليلة — والذهول فيما يلوح قد تولاه — أن يسلمه إلى مخالب مصيره .

كان دائماً عدته . وكان صاحب شوراه . وكان عزاءه فى كل محنة وكارثة . . وحين احتدمت الوقدة — من قبل والآن — كان له درعه الحامية ، يرد عنه عادية عدوه ، ويذود فى سواد من فرسانه كثيف كسحب الأمطار أية هجمة تطلعت نحوه بقمة التل ومشت تهطع إلى الفسطاط الأبيض .

على سفح التل وقف يرقب حركة الجيوش العلوية التى دبت فى أوصالها الحياة وأقبلت عليه بالموت . راح يتأهب لها وسعه ، ويقدر ويعد ، ويرتب ويحتال . . . فى نظام وثبات . على حذر . بلا خور . . . إنه الآن فى جمع من المقاتلة راسخ ، عريض كالنهر . . كالخندق دون الفسطاط . كسور القلعة . ومن ورائه معاوية رخى البال ، يستشعر الطمأنينة ولا يرهب الخطر . فهو يحمى عمرو وجنده بجنة مانعة ، وفى كنفهم بملاذ آمن . .

غير أن طبيعة البشر فى ابن العاص بدلت الحال . فإن هى إلا جولة فى الميدان حتى اضطرب قلبه بين جنبيه ، لا من جبن ، بل من رقة وإشفاق . فلقد هزته عواطف الأبوة فنسى نفسه ، وخفى عنه واجبه ، واستحال كيانه كله كتلة نابضة بالحب الذى يفتن ، وبالوله الذى يذهل ، وبالهلع الذى يضل ، وبات ريشة فى عين إعصار ! . .

إذ ذاك كانت تلوح بحد الأفق ، على الضفة الأخرى من «نهر» جيوشه ، بقع من السواد تهتز ، فتلتئم وتفترق ، وتتباعد وتنتظم ، لحظة لحظة كأنها خطوط الظلال إذ تبعثها فتيلة مصباح عبثت به إصبع الريح . . . من بين يديه أقبلت . من تلكم الناحية التي وضع عليها عينه طوال ساعات النهار والليل ليأمن منها البغتة على نفسه وعلى سيده الذي لاذ بحماه . من عسكر الإمام . . .

وسرح خيال عمرو . . إنها إذن الالتحامة التي تجفف المداد ، وتطوى الصحائف ، وترفع الأقلام ! .

أوان المزائم آن . في غد قد تطلع الشمس على أحلام ذابت وأحلام ثبتت وفرعت وطالت سرحة من الحقائق إلى السماء . . . على مغرب مجد ومشرق مجد . . . على دولة يحتويها الغابر ودولة يطلعها الحاضر كما تطلع الشجرة باكورة الثمار . . .

وحمى ابن العاص . . .

ثم تقدمت البقع السوداء . ثم دنت . ثم بدت للعيون الرقيبة فوارس أجلادا ورجلا شداداً يميزهم بهيئاتهم وقسماتهم الحماة ، وعمرو ، وساكن القبة الكبيرة البيضاء وهم يعدون نحو التل كأنما ييممون شطره على جناح ! . .

وثار النقع من كثب كدخان حريق التهم شقة الأرض الحرام التي تفصل بين فريقى صفين . ومن ثنايا غيومه انبرلاح على أدهمه يزفر لهباً ، ويرنو بشواظ ويسوق المنايا أمامه كما يسوق الحجيج هديه حين الإحرام ! . . فإذا الأرض تميد ، وإذا القبور تنشق ، وإذا الحلوق تجف ، وإذا القلوب تذوب . . .

عندئذ دوت بين جمع الحماة صيحة ثاقبة ، كنفحة الصور يوم الهول الأكبر ، زأرت بها حنجرة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وهو يحذر معاوية وجنوده :

« غشينا ثعبان مثل الطود الأرعن ! . . »

فتهاتف صحبه من رجال الشام :

« ثعبان ؟ . . » .

« على ! . . أثار قسطلا حال بيننا وبين الأفق ، وهو على أدهم شائل ، يضرب بسيفه ضرب غرائب الإبل ، كاشراً عن أنيابه ! . . » .

وتحركت لهاة العاهل برهة ، ثم حبس كلامه فى فيه .

إنه بباب خبائه ذاهـــل الذهن ، حائر النظرة ، جامد الجسد كوتد الفسطاط ! . . لا يزال بصره القلق يتبع الإمام وهو ينقض ، ويلاحق سيفه وهو يخطف فلا يثبت إنسانه ولا يكف لحه ودورانه . جفنه يرمش . عينه ترعش . قلبه فى جوفه يسيل خشية حتى أوشك أن يحسبه بلل الرمال ! . .

وحين تحرك من بعد لسانه ، رجفت أذنه عندما صكها حديثه كأنما باغته سواه بالـكلام . وانطلقت نبراته خافتة كالهمسة ، حزينة كالأنين :

« والله إنه يجالد عن ترة له ، ويقاتل عن ترة عليه . . » .

ثم تعلقت نظراته بالغبار الـكثيف كالظلمة ، المنتشر كالغيم ؛ وبالصوارم اللامعة كالبرق ، الهاوية كالصواعق ؛ وبالصفوف الممتدة حياله كسور القلعة لتحميه — يبحث بينها عن صاحب سره ونجواه ، ورفيق همه وبلواه لعله يعيره الثقة أو يمده بالطمأنينة . .

لـكن ابن العاص كان إذ ذاك مشغولا عنه ، قد نضا عن نفسه إهاب القائد ولبس جلد « إنسان » . . نسى العهد ، والحرب ، والمجد ، والمطامع الطويلة العريضة وذكر فحسب أنه « أب » يوشك الردى أن يسلبه ولديه . .

وزحفت إلى قلب عمرو كف هاصرة ، تعتصر منه هدوءه وأمنه ، فهتف يتوجس :

« على من هذا الرهج الساطع ؟ . . » .

وإذا الجواب ، الذى تنبأ به من قليل فؤاده ، وهمست به فى ضميره حاسة الأبوة قبل أن يصوغ السؤال ، يأتيه :

« على ابنيك : عبد الله ومحمد . . » .

فما عتم أن قفز كالذى به مس ، يدفع الناس من جحفله ، هذا يمنة ، وذاك يسرة ، وهنا وهناك وهو يجالد ليفتح بينهم طريقا إلى الخطر . إلى الهول الزاحف . إلى الموت المقبل صوبه كالشلال . . .

كان كالطائر الحبيس يضرب بجناحه ، ويبحث بمخلبه ، وينقر لينقب جدار

قفصه الذى حرمه الفضاء . . . كان يناضل ليبلغ فرخيه وإن أثخنت بدنه الجراح وإن دمى طوقه . وإن انتثر ريشه فتطايرت قوادمه أو تمزقت خوافيه . . .

وفى غمرة العاطفة المندامة بين جنبيه اندلاع السعير ، نسى الأب الواله أميره ، ونظام صفوفه ، ودوره اللازم فى قيادة قوة الدفاع ، وانطلق جزوعا ينادى غلامه :

« يا وردان ! . . »

فأقبل يأعر . . .

* * *

خبا لهذا لون صاحب الشام . . . فمن مرقبه بباب فسطاطه شهد صاحبه ، والفزعة التى تغشت محياه ، والنقلة الجامحة به من الثبات للهرج ، ومن الرسوخ للتقلقل . . . وهل بقى بعد لمعاوية إلا أن يرى فى الصورة الجديدة لحليفه نذير شؤم بانتقاض الخطوط التى تحميه وتقوض السور الذى يستره ؟ .

وهتف يأمره :

« يا أبا عبد الله . . . لا تنقض الصف والزم موقعك . . »

« فما ألقى إليه عينا ولا أذنا . إنما عاد يهيب بفتاه :

« يا وردان ! . . تقدم . قدم لواءك قدر قيس قوسى ولك منى جارية . . . »

فكرر معاوية نذيره وأمره :

« مكانك ، أبا عبد الله — لا تحملن . . . »

« هيهات ! . .

الليث يحمى شبليه ما خيره بعد ابنيه ! . . .

« إنه ليس على ابنيك بأس »

وعندئذ صرخ عمرو يزجر الأمير :

« ويحك ! . . إنك لم تلدهما ، وإنى أنا ولدتهما ! . . »

ثم حمل وهو لا يفتأ يحرض غلامه ، ويعاود تحريضه بصوت مجنون :

« قدر قيس قوسى أقدم ! . . أقدم ! . . قدم لواءك يا وردان ! . . »

ولم يدر عينه إلى معاوية إلا ليغمزه بنبرات تقطر منها مرارة نفسه ووجيب قلبه الملهوف :

« أو لو كان يزيد بن معاوية إذن لصبرت ! . . »

ومضى يشق الغبار .

* * *

على أنه — إلى هذا كله — كان أدنى صحبه منه ، وأكثرهم غيرة عليه ، وأشدهم رغبة فى تحقيق أطماعه وإن أبى الأمويون حينذاك إلا غمزه ، وحسده ، ونفس قدره لدى سيدهم الذى خصه — دونهم — بالتقديم . . فكم بذل العون . وكم ساق النصح . وكم حاك الحيلة . كانت الكروب تقيل فيشير . وكانت الأمور تضيق فيحتال . وكان القتال يحتدم فيخوض . . . ولم يكن معاوية يغافل عن حقيقة الدوافع التى تعطف عليه الرجل وتشده وإياه إلى طنب واحد . فلا عن مروءة كان بذل ابن العاص ولا عن نجدة قتاله . ولا عن وفاء نصحه أو احتياله . إنما عرفه على ما كان قد عرفه قبله ووصفه الإمام عندما قال :

« . . . يقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل . . . فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها ! . . . »

وعلى ما كتبه إليه أيضا الإمام ، ذات مرة ، يكشف أمره . ويفضح سره الذى لبسه بدعوة مؤازرة ابن أبى سفيان فى الثأر لعثمان :

« . . . جعلت دينك تبعا لدنيا امرئ ظاهر غيه ، مهتوك ستره . . . فاتبعت أثره ، وطلبت فضله اتباع الكلب الضرغام يلوذ إلى مخالبه ، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته . . . . . . »

كان معاوية يعرف ابن العاص على هذه الهيئة الممسوخة من المروءة والولاء والبسالة ثم لا يبرم به ، ولا يضيق بخلجاته ما بقيت هذه الصفات مكتومة بذات نفسه لا تطفو من القاع ، ولا تخالط شوائبها تلك الأثرة الفاضحة التى تحرك لسانه وجنانه وسنانه وتدفع به إلى ذات الجادة الملتوية التى شقها عاهل الشام . فهو باذل ولا عن كرم . وهو ناصح ولا عن عقيدة . وهو ناصح ولا عن وفاء . إنما كان بذله ونصحه ونضحه جميعاً ينبثق وحيها من تأليه الذات دون يقين باستواء الوسائل أو نقاوة الغايات ، وإنه — على أية حال — لإيمان ! . .

٦

ربطتهما معا غاية — إن تكن لا تتحرى النهج الأمثل ، ولا الطوائق القويمة السليمة أو الوسائل النظيفة الكريمة — فهى مهوى الأنفس التى يستذلها الجاه وتسترقها زخارف الحياة . المنهومة للنشب . المفتونة بالعرض . الحبيسة فى نطاق الجسد من دم ولحم ، من شحوم وعظام . . فاللذات الغاية . المادة . النفع . . ولو لم تكن فى القلوب نزعة تميل بها عن الصراط لقلب طرفه بين القوم . ثم لرده وهو حسير . لكن الناس هم الناس : من تراب ووحل وليسوا من صفاء ونور . والأنفس هى الأنفس : من هوى لا من تجرد . ولقد آمن معاوية الإيمان كله بالجانب المظلم من طبيعة البشر فنفذ إليهم من خلاله كأنه خفاش الليل الذى يعشى بصره الضياء ! . . إلى عمرو نفذ ، وإلى ابن عمر ، وإلى تلكم الطغمة من بنى أمية من أهل بيته الذين استعبدتهم الآراب والمطامع ومرغت منهم مزاياهم الإنسانية فى الطين وعندما تأزمت عليه الأمور لاين الجشع فى جنوده ، ففرض لمك على قتالها فريضة ليتألفهم بالمال . وخايل الناس بالمغنم : حين كانوا له ومن كانوا عليه وما وسعته المخايلة . وأعظم فريقا فى عيون أنفسهم من استيقن أن آفتهم الغرور . . . بهذه وتلك من وسائله الملتوية خادع ابن للعصر ومناه خرسان وداعب الكبر فى نفس الأشعث وراح دائماً يمط عنقه عساه يطول المستحيل ليأمن ويظفر وينام ! . .

كانت الدنيا هدفه ، والذى يهزه النشب يحسب البشر كلهم على مثاله فيمضى يقودهم بذهبه قيادة السائمة مادام هو بالذهب يقاد . فالمنصب لجام . والمغنم لجام . وحتى خلب المنى لجام . وقد طرق من هذه اللجم وصاغ ما لا يحده حصر ، ولا تضيق عنه حيلة مضل ضال ، أو أخدوعة خاتل محتال ! . .

تفكر وقال :

« والله لأستميلن بالأموال ثقات على ، ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياى آخرته . . . » .

فشخصت إليه على الأثر الأبصار . ولم يبق من أهل العراق رجل فى قلبه مرض إلا أتلع نحوه جيده وهو يود أن يمد إليه كفيه ليأخذ باليمين واليسار ؟ .. وفشت هاهنا فاشية الطمع كما فشت من قبل هناك . . .

وقال المنذر ، فارس همدان ، للإمام :

« يا أمير المؤمنين ، إن عكا والأشعريين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم ، فباعوا الدين بالدنيا . . إنا رضينا بالآخرة من الدنيا ، وبك من معاوية . والله لآخرتنا خير من دنياهم ، ولإمامنا أهـــدى من إمامهم . . فاستفتحنا بالحرب ، وثق منا بالنصر ، واحملنا على الموت . . . » .

أولئك قد عصم الله ، ووقى نفوسهم شر فتنة المال ، فإذا دنياهم جيفة . وإذا زخرفها حرام ، وإذا هم حينذاك يسعون إلى النصر خفافا يختلبونه بحمد الحديد ومشافر الصوارم ، وبكل ضارب فتاك وضرب دراك حتى انكسر أمامهم عدوهم ، وولى الماهل المفتون بما قد ملـكت يمينه ، وهو جزوع يبعـد عمره عن مزالق الحمام . . .

* * *

بماله واحتياله لم يحاول معاوية فحسب أن يخدع العامة من جند على . . . لا ولا الخاصة الذين شام فيهم نزعة من الغرور ترفع من أقدارهم فى عيون أنفسهم فلا تزال بهم حتى يروا فى دهائه ومنافقته إياهم ما يرضى ذلك الغرور ، ويعلو بقدرهم إلى سمائه ، فإذا ملقه رقية ساحر بعقل مسحور ، وحمية كأس برأس مخمور ... ولا أيضا هذه الطائفة من نهازى الفرصة الذين يدورون دائما مع الريح وينشدون المغنم أينما ثقفوه — بل لغير هؤلاء كلهم أعد خدعه وأحابيله وإن كانوا بحصن حصين من أساليب فتنته ، وجنة تصد عنهم أفانين حيله . . .

وتفكر الرجل كلا لن يخضع لمستحيل . . . فذات مرة لم تغب بعد عن خياله موه وجاز تمويهه فاقتلع من ضفاف النيل أفعوانها الذى كان يذوده عن جنتها الخضراء أجدى مكره حينذاك وخرج قيس بن سعد من مصر فما له اليوم لا يختل كأمسه عساه — إذ لم يبلغ كل غايته — ينقب ثغرة فى سور عدوه تزيد سعة على الأيام ؟ . .

وابتسم — وقال :

« يا عمرو ! . . »

فأقبل ابن النابغة يلبيه

« يا عمرو ! . إن رأس الناس بعد على ، هو عبد الله بن عباس . فلو ألقيت إليك كتابا لعلك ترققه به . . . » .

فضحك صاحبه عجباً ، وأجاب :

« ابن عباس ؟ . . إنه لا يخدع ولو طمعت فيه لطمعت فى على . . . »

ولكن معاوية لم ييأس :

« وإن ! . . فإنه إن قال شيئاً لم يخرج على منه . وقد أكلتنا الحرب . . . فاكتب اليه . . » .

وراح يملى :

« أما بعد ... فإن الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وساقته العافية . وأنت رأس هذا الجمع بعد على ، فانظر فيما بقى ودع ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرا . . . وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ؟ . . . وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ؟ . . . . . . » .

وفى الحق لقد أصاب عمرو وأخطأ معاوية . فما وقع ابن عباس فى الشراك المنصوبة له ، بل هو قد سخر من التفكير الذى دفع صاحب الخطاب إلى تسطير كلماته ، وإن يكن أخذ الكاتب بجريرة ممليه . . .

لذلك غضب ابن العاص وعنف بأميره عندما تلقى الجواب . . .

قال له :

« أنت دعوتنى إلى هذا . . . ما كان أغنانى وإياك ! . . . »

ودفع إليه برد ابن عباس ، ليقرأ فيه :

« . . . إنى لا أعلم رجلا من العرب أقل حياء منك ! . . . مال بك معاوية الى الهوى ، وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت بالناس فى عشوة طمعا فى الملك فلما لم تر شيئا أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ! . . . . . »

لـكن معاوية لم تقعده لهجة الرد ، ولا غضبة صاحبه ، عما اعتزم من موالاة احتياله ودسه لبلوغ ما يريد ، فإذا هو بعد هذا يعيد الصحيفة إلى صاحبه ، ويقول بهدوء :

« إن قلب ابن عباس وقلب على قلب واحد ، كلاهما ولد عبد المطلب . . وإن كان قد خشن فقد لان . . . »

وإنه ليوم أو بضعة تشتد فيها الحرب على الشام ، حتى يناجى صاحبه :

« إن ابن عباس رجل من قريش ، وأنا كاتب إليه . . . »

فيلقى إليه عمرو نظرة فضول وتعجب ليست تدارى إنـكاره :

« فيم ؟ . . »

« . . . فى عداوة بنى هاشم لنا ، وأخوفه عواقب هذه الحرب لعله يكف عنا .

ولا يبالى انحراف زميله عن رأيه هذا بل يكتب الآن ، عن لسانه هو ، الـكتاب الجديد :

« . . . إنـكم يا معشر بنى هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان . . . . . . فإن يكن ذلك لسلطان بنى أمية فقد وليها عدى وتيم فلم تنافسوهم وأظهرتم لهم الطاعة ، وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، وأكلت هذه الحروب بعضها من بعض حتى استوينا فيها . وقد رجونا غير الذى كان . . ولستم بملاقينا اليوم بأحد من حد أمس ، ولا غدا بأحد من حد اليوم ، وقد قنعنا بما كان فى أيدينا من ملك الشام فاقنعوا بما فى أيديـكم من ملك العراق ، وأبقوا على قريش . . أنت رأس هذا الجمع اليوم ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى على ! . . . . . . » .

« لو بايع الناس لى لاستقامت لى ؟ . . »

وسخط ابن عباس لهذه الدسيسة الرخيصة ، وقال فى نفسه :

« حتى متى يخطب ابن هند إلى عقلى ؟ ؟ . . . »

ثم كتب ، فيما أجابه به :

« . . قد بايع الناس عليا وهو خير منى فلم يستقيموا له ! . . » .

ومع ذلك فلم تكن هـذه كل محاولات العاهل الخاتل التي حسبها مبلغته أربه ، فما كان عليه لو أنه واجه عليا بغايته ؟ .. من يدرى ؟ . . إن يكن الإمام قد اعتدى بالأمس فعسى المحنة أن ترقق من شدته ، وعسى الرحم أيضا أن تعطفه من بعد ميل . . .

وقال العاهل ذات يوم لنجيه :

« قد رأيت أن أكتب إلى على كتابا أسأله الشام ، والقى فى نفسه الشك والرقة . . » .

عندئذ ضحك ابن العاص :

« أين أنت يا معاوية من خدعة على ! . . »

فأغضى عن رنة السخرية ، وقال :

« ألسنا بنى عبد مناف ؟ . . »

« بلى . ولـكن لهم النبوة دونك ! »

ولـكنه كتب :

« . . . إنى أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا ، لم يجنها بعضنا على بعض ، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نندم به على مامضى ، ونصلح مابقى ... وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمنى لك طاعة ولا بيعة ، فأبيت ذلك على ، فأعطانى الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو ، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف . وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال . . . ونحن بنو عبد مناف ، ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لايستذل به عزيز ، ولا يسترق حر » .

تلك الـكتب كانت بعض وسائله إلى ما يبغى ، وكانت حلقة من حلقات أساليبه أو ألاعيبه التى حرص منذ بدء الخلاف بينه وبين الإمام على ابتداعها وتجييشها فيالق منظمة تعمل فى الميدان إلى جوار قواته المحاربة . وهى لا مراء كانت ذات أثر فى بعض الأنفس والأفكار تمدها بالشك والتذبذب . وكثيرا

خاب وقليلا أصاب ، ولكنه — على أية حال — كان دائب العمل ، موصول الحركة لا يهمد له نشاط . وكان وفيا لهدفه وفاء لم يقعد به قط عن الإعـــداد والمخايلة والمخاتلة ما وسعه طاق الاحتيال . . .

غير أن سعيه الحثيث إلى ظفر سلمى كان أملا ما لبث حتى أصابته بالطعنة القاتلة كلمات الإمام :

« . . . إنى لو قتلت فى ذات الله وحييت ، ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة ، لم أرجع عن الشدة فى ذات الله ، والجهاد لأعداء الله . . . فأما طلبك الشام فإنى لم أكن لأعطيك اليوم مامنعتك منها أمس . وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين . . . والسلام »

٧

حسم اليوم التاسع الموقف بين الفريقين .

لم يعد القتال مبارزة بين رجال من هنا ورجال من هنــاك . ولا اشتباكا مضطربا ، أو تدافعا غير ذى غاية ســوى القتل بين طوائف من جنود الشام وأخرى من جنود العراق . إنما أصبح معركة عامة ، اشتركت فيها كل الوحدات المقاتلة ، وأخذت تتكون لها شيئا شيئا سمات الوقائع الحاسمة ، ثم تتضح ، ثم تبرز حتى أوشكت أن تومىء علانية إلى حيث النصر . .

كان الأشتر على الميمنة منذ قادها مغرب الأمس بعد مصرع عبد الله بن بديل ابن ورقاء ، وكان ابن عباس على الميسرة . وكان على حينذاك فى كل مكان ، ينطلق من القلب إلى هذا الجناح . ثم منه إلى ذاك . ثم ينثنى فيسرع يقدم أو يسرع يعود . . . أينما خطر له أن يلقى عينه على الصراع المشبوب كانت تمضى قدمه أو تخب مطيته ، ليرى من كثب حركات أوليائه وأعدائه فيقدر ويعد حسبما يجد فى الميدان من احتمالات القتال .

ومضت الجيوش على أرض الوقعة تختلط وتتلاحم ، وتلتصق وتتزاحم ، كموج البحر فى إبان عاصفة . يركب بعضه بعضا ، ويلوى بعضه على بعض وإن كانت غاية غاياته بعد هذا بلوغ الشاطىء القريب .

وأقبل القادة من رجال الإمام . أولئك الذين شهدوه فى القلب ثم افتقدوه لعبت بقلوبهم المخاوف . وأولئك الذين تركوه منذ قليل بجناح ثم غاب عن عيونهم بعد لحظات ، ملكهم الجزع والقلق عليه . ومن هذه الناحية ومن تلك فى أرجاء الميدان تواترت الهمسات عن مصيره المجهول تبعثها الخشية أن يكون قد أصابه عدوه . . .

وجاء الأحنف بن قيس يلهث . فلما ملأ ناظريه من الإمام واطمأن قلبه ، وقف يحدث الناس :

« يا أهل العراق . والله لا تصيبون هذا الأمر أذل عنقا منه اليوم ! . . فما يقاتلون على دين ، وما يصبرون إلا حياء » . . .

ثم التفت إلى على يستأمره :

« إنا إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس . فما تقول يا أمير المؤمنين ؟ . . »

فألق إليه أمره :

« تقدموا فى موضع التقدم ، وتأخروا فى موضع التأخر . . تقدموا من قبل أن يتقدموا عليكم » .

المبادأة دائما . الهجوم قبل الدفاع . . .

وانطلق الرجل . ومضى على يرود أرض الموقعة بكلا عينيه وسلاحه ، لا تفتر له حركة ، ولا ينعس جفن ، ولا يغفل جنان . وعندئذ لقيه الأصبغ بن نباتة يبلغه ما يعلم من سير الأحداث :

« إن أهل الشام قد هدهم ما أصبنا منهم . ونحن فينا بقية . . . فاطلب بنا أمرك ، وأذن لى فى التقدم له » .

« تقدم بسم الله »

ولقد ظل موج القتال يدفعه آنا وينحسر عنه آونة حتى حسبت الكثرة من صحابه أنه قتل وكاد حسبانهم هذا أن يلفهم بالقنوط . من أولئك عدى بن حاتم الذى راح يخوض الغمرة تحت ظلة الرماح ، ومن بين أسنة السيوف وعلى مزق الأشلاء غير آبه بما قد يصيبه . إنما ظل خاطره معلقا بوهمه الموحش الحزين ، وظل

ناظره معلقا بالقتلى على الثرى ، والأحياء على الرواحل والأقدام ، يتفرس الوجوه وهو ساهم ثقيل الفؤاد فإن هو أن وجده حتى انفلتت من شفتيه تكبيرة مهللة تعلن ميلاد فرحته ، ثم اندفع إليه وقد تألق طرفه وغمر البشر محياه :

« أمير المؤمنين ! . . . أما إذا كنت حيا فالأمر أم . . . » .

فابتسم الإمام وحياه . ومسح الرجل عن وجهه حبات العرق التي تجمعت على جبينه ثم راحت تنزلق على خطوط وجنتيه حتى إذا هدأ قلبه قليلا قال وكلماته تقطعها لهثاته :

« ما مشيت إليك إلا على قتيل ... وما أبقت هذه الوقعة لنا ولهم عميدا ... فقاتل حتى يفتح الله عليك » .

أجل لم تدع الوقعة ، هذا اليوم ، إلا بقية يسيرة من جموع الأبطال . ذهبت الكثرة تلقفتهم المضاجع على التراب . . . حتى الذين استهوتهم المنى والشهوات ، وخاضوا الحرب ليحققوا مآربهم ، رحلوا عن مقام المطامع وأمنياتهم تخايل عيونهم ساعة الموت كالسراب ! ...

مضى عن الدنيا ابن عمر ، فأية أمنية نال ؟ . . . لقد طالما حلم . وقد طالما جنح مع أحلامه ومال فإذا نصيبه الليلة من المجد قيد ذراع من ثرى صفين . ومن الشرف ضربة حسام شقت عليه زرده ، ثم جسده ، ثم غاصت بالسنان في حشوة جوفه فإذا هو بعد هذا صريع ...

وسقط ينوء . . .

وسخر القدر ...

فلقد فر الرجل ، وأمعن في الفرار أعواماً طويلة من يد علي ، فإذا الضربة القاتلة ، بعنفها وجبروتها ، تكاد تنبئ عن اليد التي ظلت تطارده كل ذلك الزمان في اليقظة والحلم ، وفي الحرب والسلم . وإذا الأنة الخافتة ، ووشوشة جراحه ، والطنين الذي ملأت به الحشرجة أذنيه لا تخفي عنه ذلك النذير القديم الرهيب :

« لئن فاتني في هذا اليوم ، لا يفوتني في غيره . . »

واليوم جاء ! . .

فأما الأمانى فهباء . غارت فى الليل كما يغور الشعاع ولم يرتب منها القدر إلا واحدة . ما كان أغنى الصريع عنها ، وما كان تحقيقها قصاراه . . . تلك نبوءة الشيبانية إن لم نرها تنتظم فى سلك الأمنيات

فى ذلك اليـوم ، وقد همد الطعين ، وجرى الخبر بمقتله ، بعثت نسوته إلى معاوية ليرد إليهن بدنه ، فأرسل إلى ربيعة فى عسـكر العلويين يطلبه منهم بعشرة آلاف .

وقيل لعلى ، فأبى وقال لأصحابه :

« قد أجبتم إلى ذلك ، فاجعلوا جيفته لبنت هانئ بن قبيصة الشيبانى زوجته . . . »

وأطاعت ربيعة . وتفـكرت كيف ترد إلى أهله جثته فرأت شدها إلى ذيل بغل يضرب حتى يدخل بها معسكر الأمويين . لـكن نسوته ، وقد علمن ، استصرخن معاوية :

« هذا أشد علينا . . »

عندئذ أشار الداهل بالرأى :

« ائتوا الشيبانية فسلوها أن تـكلمهم » . . .

ففعلن . . . ومضت المرأة لتوها لتحفظ على قتيلها بعد مظاهر التوقير :

« أنا بنت هانئ بن قبيصة . . . وهذا زوجى القاطع الظالم قد حذرته . . . فهبوا لى جيفته . . . »

نبوءة الصباح التى قالتها له وهو مدل مختال ، طلع بها عليها المساء ! . . .

* * *

ومضى أيضا ذو الـكلاع الحميرى . ذهب هو الآخر إلى غير مآب ، وخلف قومه اليمنية فى حوزة معاوية ينضحون عنه بمثل حميـة سيدهم اليوم وغدا وعلى توالى الأيام حتى أقاموا له على كواهلهم ملـكا عريضا لا تغيب عنه شمس النهار . . . فماذا يا ترى كان جزاء هذا القتيل ؟ .

لا مبالاة ؟ . . كلا بل شماتة ! . . بسمة من معاوية صفراء ، وبسمة من خدينه عمرو بن العاص كأنها صدى يتردد عن الفرحة التى اهتز بها قلب الداهل

الذى أبى إلا أن ينكر الجميل ! ... فما إن جاءه الخبر بمصرع الرجل حتى التمعت عينه وقال :

« لأنا أشد فرحا بقتل ذى الكلاع منى بفتح مصر لو فتحتها ! . . . »

وقال للذين جاءوا من قوم القتيل يطلبون إليه أن يعاونهم فى استعادة جيفته :

« وما عسيت أن أصنع ! » .

ولم يكن صاحبه ابن العاص خيرا منه نية ، أو أدنى إلى الرثاء والرحمة ، بل أمعن فى الإفصاح عن سروره :

« والله ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحا ! . . والله لو بقى ذو الكلاع حتى يقتل عمار لمال بعامة قومنا إلى على ، ولأفسد علينا جندنا . . . »

هكذا التقى الصاحبان كذئبين على جيفة نصير لهما يأكلانها شماتة ! . . وهكذا تنكرا للرجل الذى ضللاه عن طريق الحق . واتخذاه مطية عمياء ، وما زالا به يركبانه ويدفعانه وفى نفسه بقية من شك حتى اغتاله حينه . فلقد مضى لا ريب إلى ربه وهو يكاد يؤمن أن ابن العاص لم يكذبه حين ألقى فى روعه أن عمارا سينقلب آخر الأمر على الإمام ويفىء إلى أهل الشام ، فإذا قتل بعدئذ فالفئة الباغية ليست إذن فئة معاوية بن أبى سفيان ! . .

* * *

لكن عمارا قتل ...

هاجمه الردى وهو فى صفوف على يكافح عن حقه ويذود جحافل الباطل عنه ... فلو استأخر العمر بذى الكلاع يوما أو بعض يوم ، وسمع بمصرع الشيخ الجليل ، لقضى الأمر فى حزب الشام ، ولا نسل منه رجاله عودا عودا ، حزمة حزمة ، وتركوه من بعد وليس فيه من ولى ولا ناصر إلا شرذمة أمية وقطائع أخرى من الأذناب ! . .

ولكنه مضى وابن ياسر ما يزال فى الميدان ، لم يفرغ أجله ، ولم تحق فيه كذبة ابن العاص . وترك للعاهل الأموى خيرة الأنصار من اليمنية الذين أقاموا له ملكه ، وكان هو سيدهم المطاع . . .

وجلس معاوية تلك الليلة يجتر فرحته ، ويستقبل أناسا من جنده جاءوه فرادى يستأدونه ثمن قتلهم صاحب رسول الله :

« أنا قتلت عمارا . . . »

فيسأل عمرو قاتلهم :

« فما سمعته يقول ؟ . . . »

فيمر الرجل ، أو يزيف الجواب .

ويأتى آخر :

« أيها الأمير ، أنا قتلته . . . » .

ثم لا يكون من حظه فى الرد على السؤال إلا الخلط والخبط والتزييف . . .

وإذا ابن جون السكونى ، وأبو الغادية الفزارى يقبلان وفى وفاضهما الخبر اليقين .

قال ابن جون :

« أنا صاحبه . . . » .

فسأله ابن العاص :

« فما كان آخر منطقه ؟ . . . » .

« سمعته يقول :

اليـــوم ألقى الأحبـــة　　　محمـــدا وحزبه . »

« صدقت . أنت صاحبه . . . »

ثم أطلق عينه تقتحم الرجل ، وقال على كره كأنما الله قهر قلبه على كشف الحقيقة :

« أما والله ما ظفرت يداك ، ولكن أسخطت ربك ! . . » .

وعجب الرجل ، وعجب زميله عجبه ، ومضيا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص يشكوان ، ويحكمانه فى سلب عمار لأيهما يكون . فإذا عبد الله تربد طلعته ، ويضطرب نفسه ، ويصيح بهما وهو مغيظ :

« ويحكما ! . . اخرجا عنى فإن رسول الله قال : ولعت قريش بعمار ، مالهم ولعمار ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، قاتله وسالبه فى النار ! . » .

ولقد صدق عمرو ، وصدق ولده ، وخاض الناس من أهل الشام فى قصة القتل التى أشفت بهم على سخط الله حتى أخذ الخوف ينعقد أمام عيونهم سحائب غلفت بالسواد والضلال أوطار عاهلهم ، فكادوا يحملون أنفسهم على الميل عنه . غير أن الداهية المحتال لم يعدم الوسيلة التى تبدد عنهم خشيتهم ، وتضمن له نصرتهم ، فقد أضاف خدعة جديدة إلى سلسلة أخاديعه ، فقال وأذاع بين العامة من رجاله :

« إنما قتله من أخرجه ! . . . »

ونامت المخاوف ، واطمأن الطغام ! . .

٨

كان آخر عهد عمار بن ياسر بالدنيا حين فصلته الحرب عن صاحبه هاشم ابن عتبة . دفعت هذا موجة لناحية ، ودفعت الآخر موجة لأخرى . وظل كل منهما من القتال العنيف فى دوامة . . .

وشد الشيخ قوامه الذى أثقلته السنون . وثبت على جسده درعه البيضاء ، ثم ألقى بعين تجول فى أنحاء الميدان فلا ترى فيها إلا جدرا مرصوصة من الناس لا تكاد تنفذ بينهم النظرة . . .

وابتسم . لشد ما يفتقد رفيقه ! . . بعد الأعور عنه الآن ، ولم يعد ثمة سبيل لمزاح . . . فأما وقد انطلق هاشم قدما فقد علم عمار أنها انطلاقة النهر فى مجراه ، يعرف طريقه ، ويعلم من أين بدأ وإلى أين منتهاه . فهاشم يسير فى تؤدة ، وعلى بينة ، ولا يستخفه مد القتال إن خايله النصر كما لا يهوله جزره إذا خايلته الهزيمة لأنه قدر ما يقع فليس يخطو إلا بحساب .

كانت الطمأنينة تملأ صدر عمار ، فثقته بصاحبه غامرة ، لا تنضب ولا تغور . وهو آمل فى النصر ، وهو مؤمن قبل هذا كله بالغاية التى من أجلها يمتشق اليوم هذا الحسام ثم يشق به سبيله فى صفين ، إلى الحق ، وإلى الجنة . . .

وألقى نظرة تتفرس الناس حياله :

« إنى لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون . . . » .

ثم استضاء وجهه المضيم المعروق بإشراقه إيمانه وهو يكمل همسه لنفسه :

« . . . والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، لعلمنا أنا على الحق . وأنهم على الباطل ! . . » .

ومضى كالعاصفة فى زحمة القتال .

إنه يقدم ولا يحجم . يضرب ما وسع كفه أن تحمل سيفه ، وما دار ذلك السيف فى يمينه . . . كلا ، ليست هذه اليد الهزيلة هى التى تضرب ، ولا هذا البدن المجهود هو الذى يحمل ، ولا هذه الساق الحمشة هى التى تثب ؛ إنما قلبه القوى بيقينه ، الركين بإيمانه . . .

وكان الميدان كالأتون . وكان العرق كالسيل ، فأحس شفته تلتهب ، وحلقه يجف ، فلو كانت الدماء تروى ، أو قطرات العرق المنثال تخفف بعض صداه ! . .

لكن امرأة من فرقة الروايا التى تصحب الجيش تقدمت إليه تسقيه من لبن .

فما إن حسا حسوة ، حتى انبعث يكبر وقد تألقت عيناه بالرضا والفرح والحنين :

« الله أكبر ! . . » .

وعجبت المرأة ، غير أنه كان من عجبها فى عالم آخر بعيد ، لا يحده زمان ولا مكان . . .

« الله أكبر ! . . صدق الصادق .

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه ! » .

فلقد شعر الرجل بقرب ساعته ، وسفرته الأخيرة من هذه الدنيا إلى حبيبه الرسول فى جوار الله . . .

طفر هذا الشعور إلى جنانه وهو يستعيد فى ذهنه إعادة لرسول الله أنبأته عن آخر زاده فى الحياة . .

ورد الإناء المرأة ، ولعق شفتيه ، وهو يتمتم فى شغف :

« هذا آخر زادى ! ... » .

ثم انطلق ، مشوقا إلى المصرع — إلى لحظة اللقاء التى بعدت عليه إذ طال عمره ، وهتف فيمن حوله :

« أيها الناس ... هل من رائح إلى الله تحت العوالى ؟ ... » .

ومضى على رأس عصابة تبعوه ممن يستعذبون الموت فلا يشق عليهم أن يهجروه الحياة . وكلما هجم وأصاب ، كان صوته الرافع يرن فى الأسماع كصليل سلاحه :

« الجنة تحت الأسنة ! . . . » .

* * *

وكانت نهايته كطرفة هدب .

حمل وأثخن وقتل ، ثم حمل وأثخن وقتل ، سريعا سريعا كأنما كان يمضى على إعصار . وكان محمد دائما أمامه . وكانت الجنة تخايل عينيه . هو فى الحق قد ترك سيفه يجول ، أما وعيه فكان سابحا على غمامة من شوقه ، بيضاء رقيقة ، شفافة كروحه ، نقية كقلبه ، تعلو به فى فضاء فسيح فوق الدنى والزمان والأحياء ...

واستقبله حين هذه النشوة الروحية عبدان الدنيا ، مالا إلى جانبيه ليتقيا حملته ، ثم عاجله منهما ابن جون بطعنة ، وثنى أبو العادية ، ليشرك رفيقه فى نصيبه من النار ! ...

وسقط عمار ، ومحمد أمامه ، والجنة تخايل عينيه ، وعلى شفتيه النديتين بتلك الحسوة بسمة وهمسات :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! ...
اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه . . . »

* * *

وأطرق الإمام . . .

الحزن الذى هز قلبه لمقتل صاحبه كان أبلغ من الألم ، وأقوى من الدمع ... صلابة السيف فى عينيه بدت فى ملامحه . ظلال المساء التى أخذت تطوف بالمكان أطلت من بين جفنيه . .

ومشى على مهل . الآن قد خرج عمرو بن العاص كالعاصفة فرقا على مصير ولديه . الآن يتقدم ابن خالد بن الوليد بلواء معاوية الأعظم وبنفسه اعتداد كأنما يحلم بيوم من أيام أبيـه . نشطت الشام كلها نشطة واحدة . خيلها ورجالها . والرماح والسهام . حتى الحجارة كانت بعض السلاح . . .

لكنه لم يأبه إلا لفرقة منها ثبتت أمام هجمات رجاله كالأطواد . لا تهتز . لا تضطرب بين يمنة أو يسرة . كأنها غرست أقدامها في الرمال . . .

تلك غسان .

وعندئذ قر عزمه .

« إن هؤلاء القوم لن يزولوا عن موقفهم دون طعن دراك يخرج منه النسيم ، وضرب يفلق الهام ، ويطيح العظام ! . . .

ثم نادى فى أصحابه :

« . . أين أهل الصبر وطلاب الخير ؟ . . »

ودعا ابنه محمدا :

« امش نحو هذه الراية مشيا رويدا ، على هينتك . . . حتى إذا أشرعت فى صدورهم الرماح فأمسك يدك حتى يأتيك أمرى ورأيى . » .

وجهز فرقة للأشتر .

وهتف بعد هذا فى رجاله :

« أيها الناس . . من يشر نفسه لله يربح ! . . هذا يوم له ما بعده . . » .

حتى إذا اجتمع له منهم قرابة عشرة آلاف ، تعصب بعمامة رسول الله السوداء ، تيمنا وبركة ، ووقف يتهيأ لساعة الفصل . .

كان محمد حينذاك يسير كما أمره ، رويدا رويدا ، خطوة خطوة ، كأنما على شوك ، قد أشرعت فرقته فى أكفها الرماح ، واتجهت بها صوب غسان . ليست هذه بهجمة يتقدم فيها الاندفاع . لا مخاطرة ولا سرعة . بل هى حركة وئيدة ، تمضى بحساب ، وعلى حذر ، ولا يرام من ورائها الاقتحام . إنما كانت فى تدبير الإمام سورا من الأسنة المشرعات يبنيه ولده ورجاله أمام غسان ،

فيحملها على الثبات والدفاع ، ويشغلها بنفسها وما هي فيه عن الاشتراك في الهجوم الذي أخذت تشنه قوات الشام . .

هذه التؤدة التي التزمها محمد في تقدمه ، قد مكنت قواته الضاغطة من بلوغ هدفها وهي آمنة شر الدفعة . يقظة لكل حركة قد تأتيها من هناك وتقوم بها بعض الكتائب الأموية التي تعمل دون هدف مقرر ، ووفاقا لوحي الموقف ، ومد القتال أو جزره في الميدان . بل لعل غسان قد رأت في ذلك التقدم الوئيد من جانب محمد ورجاله أحبولة نصبوها لها لتندفع نحوهم مهاجمة حين يستخفها بطء حركتهم ، فتدع بهذا ثباتها الذي أعيي الكتائب الملوية ، وتزايل موقعها الحصين الذي وقف بها من قبل كالصخرة العاتية في وجه أي هجمة أريد بها إخراجها منه .

ثبتت إذن غسان تتربص وهي مطمئنة . ومضت تنضح عن نفسها بالسهام . وثبت محمد على الخطة التي رسمها أبوه ، يتقدم في تثاقل ، ويمشي على هينة ، ولا تغريه أية فرصة سانحة بالتحول من البطء إلى الاندفاع . فما يحق له أن يقتحم أو يهجم إلا حين يأمر الإمام . . .

ثم أتاهم أمره :

« شدوا ! . . » .

فشد على عدوهم شدة رجل واحد .

وحمل هو . . . وحمل الأشتر . وحمل بقية القواد في نفس اللحظة . . ثارت الآن أبالسة الحرب في كافة أرجاء الميدان ، والرماح حينذاك مشرعات في صدور غسان ، تشلها عن الحركة ، وتقف سياجا داميا لا يدع لها إلا الدفع عن نفسها وهي حبيسة في ذلك النطاق المشدود ، إن كان يسعها الدفاع . . .

٩

لا حرارة النهار ، ولا ظلام الأمسية الأغبر عند مسقط الغسق ، ولا أكداس القتلى من الجانبين على أرض الوقعة كانت تمنع المتحاربين عن الحركة أو تعوقهم عن موالاة الاندفاع فى القتال ... مضت المعركة والشمس — ذلك اليوم اللافح من يوليه — ثم شيعتها إلى المغرب . ومشت والغسق الباهت . وحلكة الليل حتى ألمت بنصفه . وحين حسب بعض الناس أن الفريقين متحاجزان — على مألوف ما جرت به العادة إذ ذاك فى الحروب — كان الصراع قد بلغ ذروته ، والحمية قد أذهلت القوم من قادة وجند ، ونشوة الدم أنستهم الحدود الزمنية ...

وكانت الرايات لا تزال تختلط ، والفرق تلتصق وتتداخل ، والقوات المادية تضرب ، أحيانا كثيرة ، وهى لا تكاد تأمن أن تصيب أصحابها الضربات . . . ومع ذلك فقد أخذت خطوط المصير المنتظر تبدو للبداثه الماحة خيوطا رقيقة ، رفيعة كنسائج العنكبوت .

هزيمة الأمس التى ردت جناح الكوفة يسرع إلى السلامة ذابت الآن فى هجمة اليوم ، خيانة ابن المعمر التى أفسحت لمعاوية فى البقاء بعد تهاوى صفوف معقله قضت عليها الخطة الجديدة . حراب محمد بن على مضت تحطم جدار غسان كالمعاول .. فى كل قلب فى رجال الإمام عزمة ماردة ، وفى كل خط من خطوط معاوية تكسر ...

وأسرع العاهل الأموى يحث أولياءه :

« هذا يوم تمحيص ! . . إن القوم قد أسرع فيهم كما أسرع فيكم . اصبروا يومكم هذا وخلاكم ذم ! . . » .

وفى الحق لم يتهاون رجاله لحظة واحدة عن الصبر والصدق فى القتال . أمامه كان سور يقوم دونه من عك والأشعريين الذين فرض لهم الفرائض ومنائح العطايا والهبات الجزيلة . وعلى خيله مضى عمرو بن العاص يشد من عزمه دفاعه عن ابنيه وبلوائه الأعظم انطلق عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، لا يفى عمرو يثير فيه الحمية ويشعل دماء :

« أقحم يا بن سيف الله فإنه الظفر ! . » .

لكن الأشتر كان لهم بالمرصاد . ولم يقف ليدفع ، بل قاتل شاقا طريقه إلى أمام . منذ أمره الإمام بالشد أقدم ، وراح يقدم ، لا تعترض سبيله مقاومة إلا حطمها ، ولا تقوم لمن يخالسونه الهجوم أو الدفاع قائمة ، ومن ورائه أصحابه الذين بهرهم بلاؤه يهتفون له :

« يوم من أيامك الأول ! . » .

وكان الإمام حينذاك في القلب . . . هو في الواقع لم يكن بقلب جيشه بقدر ما كان يغوص في قلب الأعداء ! . . بعصابته السوداء كالليل كان يندفع في أعدائه اندفاعة السهم عن قوسه . وبسيفه كان يشق عليهم صفوفهم فتتناثر مناياهم إلى جانبيه كالرشاش ! . . ولم يكن له إذ ذاك من هتاف إلا اسم الله ، يهلل به ، ويكبر كلما شطر سيفه ، أو قد ، أو قط من هذه الرقاب والهام والأجسام التي دفعها قضاؤها المتعجل أمام يده الحمراء ! . .

كم أشفق صحبه وهو يخلفهم ويمضى عنهم إلى هذه الصفوف المعادية فلا يلبث أن يختفي منها وراء أستار وأستار ! . . إنه ليغيب حتى كأنه قد أصيب . ويطول عليهم غيابه بحساب الوقت وحساب الوهم حتى كأنه لن يرجع . ويأكل الجزع عليه من قلوبهم ما يكاد يهمدها فتسكف عن الخفوق والوجيب ... فإذا بلغ منهم اليأس مبلغه ، رأوا تلك الصفوف تنفرج ثانية عنه ، بطوعها ورغمها ، وهو آمن صحيح جميع إلا لطلخا من دماء ندية تقطر من ثوبه ، وقطرات من العرق تنحدر من جبينه على خديه ! ...

ويقبل وسيفه منحن في يمينه من عنف ضرباته ، فيقيم حده على ركبته ، وهو يهتف بصوت خفيض :

« معذرة إلى الله ! . » .

ويعلم رجاله أنه أسيف ، فقد عاقته انحناءة السيف عن موالاة الضرب والبلاء في الله حق البلاء !. ولكنه لا يكاد يملأ عيونهم من محياه حتى يشهر سيفه . ويعود فيخوض ، ويغوص في أحشاء جيش الشام . . .

كان حركة دائمة ، خلال تلك الساعات ، تتأرجح من وراء الإمام ومن أمام لوراء . وكان مشغلة العيون والقلوب والآذان إذا هجم هلع العدو ، وإذا غاب جزع النصير . فما من رجل فى المعركة إلا قد غلبه منه الخوف على نفسه أو القلق عليه . حتى أولئك الصحاب الذين حرصوا على البقاء بمقربة منه ، يقيمون سياجا من أبدانهم حواليه ، كانت عيونهم تدور لكى تسير فى فلك هجماته ، وقلوبهم تئن كلما غاص وغاب ، وآذانهم تمتد لتلقف على الهواء تكبيراته التى لا ينقطع جرسها المتواتر الرهيب ... كانت حركاته خطفات برق ، أو لمعات مرآة تحت ذبذبة شعاع ! ... وكان غيابه موتا للقلب ، وشجا فى الحلق ، وظلمة فى العين ... وكان تكبيره بعد هذا كله أغنية ! — نشيداً حبيباً مرحاً تحن إليه أسماع أنصاره ، وترقص على ترجيعه قلوبهم رقصة العودة إلى الحياة ... إنه لنعمة أن يتردد صوته ، وإنها لمتعة ومسلاة أن يتابعوا بالإحصاء تكبيراته التى تصاحب ضرباته ، فتعلن لهم ، واحدة واحدة ، أعداد ضحاياه ! ...

* * *

وحين غام النهار وكسفه القتام ثم جنه الظلام ورقت النسمة وشف الليل ، كان قواد الإمام جميعاً لا يثنيهم شيء عن التقدم وإن نال منهم الجهد ، وأكلت الحرب من رجالهم ، ورويت ، واستقت الجراح ! .. حتى الصلاة شغلهم عنها السباق للموت ! .. ومن ذكرها أداها إيماءة .. ولكنهم ظلوا الساعات الطويلة صدقا وصبرا ، قائمين على الأقدام ...

جاءه الأشعث بن قيس يلهث ليرفع إليه ما جرت به الأحداث :

« يا أمير المؤمنين ... خيل كخيل ، ورجال كرجال ، ولنا الفضل عليهم إلى ساعتنا هذه ... » .

ولم يستطع سعيد بن قيس أن يقبل ليبلغه ، فبعث إليه من يقول عنه :

« إنا مشتغلون بأمرنا مع القوم ، وفينا فضل . فإن أردت أن تمد أحدا أمددناه ... » .

كان اتصالهم به وثيقا إبان المعركة ، لاتنى رسلهم تأتيه ناقلة عنهم سير القتال ، ورسله تمضى إليهم مؤدية عنه أوامره . . .

لـكن هاشم بن عتبة لم يبعث له . انقضى زمن ولم تأته منه أنباء ... وحتى الجانب الذى كان يعمل فيه من الميدان لاح كأنما خفت ضجيجه واحتواه الفتور ...

وأرسل الإمام إليه يأمره :

« قدم لواءك ! .. » .

فابتسم هاشم للرسول بسمة كابية ، خافتة الضوء زهقتها الظلال . ورمقه بعينه رمقة أسيانة شف عنها ندى دمعة حائرة ، وتحركت شفتاه تهمسان فى إعياء :

« انظر ! . . » .

ونظر الرجل إلى حيث أشار . . وشرق . وعض على شفته تحرجا ليكتم صيحة أوشكت أن تفيض من قلبه. ثم لوى جيده حزنا ورقة لينأى بعينيه عنه ...

فى هذه اللحظة ، كان هاشم بن عتبة يعصر الألم قلبه ، ويقطر الوجع من ملامح وجهه وعينه كقطر العرق والدموع ، وقد امتدت يداه تضغطان شـقا غائراً طويلا فى بطنه ، بينما أخذ دمه يسيل من بين أصابعه ، وأحشاؤه تندلق منها أطراف ! . .

وابتسم ثانية . ولمعت عينـــه كما تألق ذبالة السراج فى نفسها الأخير . ثم تهاوى على الأديم . .

رحل المرقال . . . سقط فى هدوء كانطلاقة من قليل فى جنبات ساحة القتال بهدوء وإلى جواره رقد سيفاه اللذان شرفا به ، وأبليا معه فى الله . . .

إنها لسويعات — بضعة قليلة على هذه الأرض ، التى تناثرت عليها الجماجم ، ثم لحق بصاحبه عمار . . . فلعله دعاه ! . . . ولعـله هو الآخر لبى الدعوة ، وقد ضاقت بالفراق نفسه وشق عليها ذلك الوداع ! .

١٠

أخذ معاوية معرفة فرسه ، وناضل ما أمكنه بدنه الشحيم الثقيل حتى استطاع أن يرفع رجله ، ويضعها فى الركاب ...

هى قفزة إلى الظهر ، فاستواءة عليه ، فلكزة بجانب الفرس ثم ينطلق . لا إلى حيث يشاء ، بل إلى حيث تمشى به قوائم الجواد . ولا إلى المعركة ، بل إلى الناحية الأخرى . . إلى أى مكان . بعيدا بعيدا عن هذه الساحة الدامية بصفين ، حقل الموت ! . .

كانت على ملامحه غبرة ، ليست بعض قتام هذا الغبار الثائر . وكانت بعينه غيمة ، ليست انعكاسة السواد الباهت الذى ما زال ينشره الليل ... الشحوب فى وجهه . والوجوم فى عينيه ... شفتاه اهتزتا ولا كلام . وحلقه اضطرب وما نطق ، ومن ثنايا صفوف المحاربين الذين بدوا فى ظلمة السحر كالأشباح ، كانت نظراته تتسلل ، هنا وهناك ، وفى كل منحى ووجهة ، زائغة ملهوفة تلمس المهرب البعيد المنشود ، ثم ترتد إليه حسيرة لتذوب فى حيرته ! . .

ولم يكن حينذاك بالجبان . كلا . وما كان ... فى الصراع الذى اشتعل كل هذه الأيام ، نظم وأقدم وناضل . وطوال الأشهر التى مضت قبله دبر وأعد واحتال . وعلى مدى السنين التى اقتعد فيها أريكة الحكم فى الشام رجا وتمنى وحلم . ثم هاهو الآن — هذه اللحظة بصفين ، ترده إلى الوعى يقظة عنيفة نسخت الحلم ، وأفسدت الاحتيال ، وقضت قضاءها المبرم فى نتيجة المعركة ...

أينما نظر شهد كارثة . بناؤه الضخم تهاوى وانهار . خطوطه تقطعت . صفوفه الممتدة غدت وصائل صغيرة تصل بين ثغرات ! . . حتى أولائك الذين قاموا دونه يدافعون عنه ، قد أعياهم الصبر حتى لكادوا أن يملوا القتال . لا رجاء له إذن فى نصر ، ولا فى مقاومة ، وهذه قوات على تسرع نحوه لتخرق عليه إهابه...

وتفرس بعين فى فرسه . ما من جدوى من البقاء بأرض الوقعة ... وحلق بأخرى فى رجاله الذين يتقصفون فى الهول الداهم كأنهم أعواد . ما من مصير لهم سوى الرقود على مواطئهم ، ضحايا وفرائس ، تطعم الأرض وتسق التراب !...

فكأنما قابل بين مصيرهم ومصيره . مثاويهم ومنجاه . موتهم حيث هم ، وفراره حيث الحياة ... وكأنما أثقلت هذه المقابلة قلبه ، وأوقرت ضميره ، فإذا هو يزم بالعزم شفتيه ، ويخلع رجله من الركاب ، ويتمتم لنفسه وهو خزيان :

« مكانك تحمدى أو تستريحى ! . . » .

وثبت حيث كان .

* * *

لكنه كان ثبات سويعات .

ففى الجانب الآخر كان على يصور لأصحابه حالة الحرب والمحاربين ، فيقول :

« ... قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ! . . » .

بل آخر خدعة ! . .

كأنفاس الليل التى أخذ يلفظها السحر ، كان جند الشام يلفظون عزائمهم لا قدرة . لا طاقة لهم باحتمال . القبة الكبيرة البيضاء أصبحت على قيد رمية . حرمها الآن مباح معاوية طلل عاهل ! . .

فلولا أن أضواء الفجر كانت شهباء ، لوسع الأعين فى جيش على أن ترى معالم المحيا الحائر الكئيب الذى يتخايل خيالها هناك . ولولا بعض قعقعة السلاح ، وهرج الأقدام ، ووقع الحوافر لسمعت الآذان اضطراب أنفاسه ...

ومرة أخرى راودته فكرة قديمة : أما من رجل من أهله ، أما من صاحب له ، أما من فارس من الشام ينهد لغريمه ، هذه اللحظة ، فيرديه غيلة ، أو يلقاه فى مبارزة لعلها تقلب الميزان ؟ . .

كان هذا أمله الباقى فى الوقعة ولا أمل سواه . ولكنه رجاء بعيد كالنجم ، موهوم كالسراب . فلم يقم للإمام واحد من جيش الشام وإن علموا جميعا أن ملاقاته وحده كملاقاته فى جمعه كلتيهما خاتمته حمام ! .

حتى ابن العاص لم يكن أرفق به ... لم ينس فى هذه المحنة نفس عبثه القديم بصاحبه ، ونفس سخريته منه ، بل أعادها على سمعه ثانية : « ابرز له ! » فوئدت

الفكرة من جديد ... وعندما شاءت الأقدار من بعد أن يثمر الأمل فى الملك ، وتقبل الدنيا على معاوية ، ذكر ذلك الموقف وهو على عرشه ، وراح يبكت به ابن العاص ...

قال له ، بعد سنين :

« يا عمرو .. هل غششتنى منذ نصحتنى ؟ .. » .

فأسرع يدفع عن نفسه :

« لا والله ! .. » .

« بلى والله ! .. يوم أشرت على بمبارزة على وأنت تعلم ماهو ... » .

وعندئذ لم يعدم ابن النابغة ردا أسعفته به بديهته التى تحسن الانسياب من كل ضائقة ، وبادر يجيب :

«دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسنيين : إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزادد شرفا إلى شرفك . وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ! .. » .

فضحك معاوية وقال :

« الثانية شر من الأولى ! .. » .

وضحك أيضا ، ذلك الفجر بصفين ، وهو يرى كيف لعبت به الحيرة حتى جعلته هدفا لعبث ابن العاص . لكنها ضحكة جوفاء وقعها القلق على أوتار أعصابه ، لا تنطق بفرحة ، ولا تنبئ عن هم ...

وأغضى مليا ..

وحين رفع ثانية وجهه ، كان الشحوب يقطر من ملامحه ، والسهوم ينام فى عينيه ، وعلى شفتيه المرتختين ترتجف همساته اليائسة :

« يا عمرو ... اليوم صبر ، وغدا خمر ... » .

فلم يزد صاحبه على أن قال له :

« إنا وما نحن فيه كقول القائل : الموت حق ، والحياة باطل ! .. » .

صدقه ابن النابغة . لم يغشه هذه المرة ولم يخف عنه وما كان ثمة سبيل لإخفاء وقد بات جليا لعينيه أن الحياة أصبحت من ضروب المحال ، وأن الموت الآن هو المصير اللازم ... فهذه جيوش العراق تسرع فى جيشه ، وتهمد كل ما يقوم لها منه ... هاهو على حياله ، ينطلق إليه ولا تفصله إلا شقة تقاس بالميل وبالأذرع ، وتكل القوائم طيها للأقدام ! . . ها هو الأشتر قد حمى فنزل عن فرسه ، وراح يسعى بقدميه كأنما يبتغى من الله المثوبة بسعيه ! .

لا قتال الآن يشبه ما سلف من قتال وما تواضع الناس على تسميته بهذا الاسم . لا أزيز اسهم . لا انطلاقة لرمح . المسافات بين الجيش ضاقت فلا حاجة الآن لرمية بنبل أو حربة . الجنود من الطائفتين تتجالد بالسيف ، وتعتنق فتتدافع بالكف وبالظفر وبالناب ... وفى أثناء هذا الصراع اليدوى الوحشى كانت تنطلق من هنا ومن هناك من بقايا صفوف الشام أصوات تهتف ضارعة :

« الله الله فى الحرمات ! ... الله الله فى النساء والبنات ! . . » .

وجزع معاوية ... إنه ليعلم أن ثمة أملا له ، بين الصفوف العلوية ، فى الأشعث ابن قيس حسبما جاءته الأخبار . ولكن نزوعه أبطأ عليه :

« يا عمرو ! . . إنما هى الليلة حتى يغدو على علينا بالفيصل .. فما ترى؟..» .

قال صاحبه إذ ذاك بهدوء ثقيل مريب :

« إن رجالك لا يقومون لرجاله ، ولست مثله ... أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء . وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون عليا إن ظفر بهم ... » .

فلم يعقب الداهل المهموم . كتم بقلبه غمزة خدينه ... ووقف وهو حائر ينتظر قدره المقدور ، تلك الساعة ، والأشتر يسرع ، وعلى يمده من لدنه بالرجال وقد لاح الظفر كبشائر الفجر الجديد . .

وراح الأشتر ينطلق قدما ، ويدنو ، والموت يدنو معه ، إلى القبة الكبيرة البيضاء ... وسرى الهرج فى أهل الشام ... وتواترت صيحاتهم الضارعة تشق الفضاء وهم يعاينون صواعق الهلاك تنقض عليهم من كل ناحية فتسحقهم وتحيل

عظامهم إلى ذرات غبار . . واستبد بأميرهم فزعه ، فجذب مشيره يضرع إليه
« قد هلكنا ! . » .
فأغفى يفكر . . .
« نعلم مخبآتك يا ابن العاص ! . . » .
فكان سكون . . .
« تذكر مصر ! . . » .
عندئذ فرغ ابن النابغة من مشاورة شيطان خبثه ، والتفت باسما إلى صاحبه ، يقول له :
« ألق إليهم أمرا ، إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ! . . » .
فالتمعت عينا العاهل رجاء ، وأرهفت أذناه . . . ومضى رفيقه يبين له :
« ادعهم إلى كتاب الله ! . . » .
ثم نادى فى الناس :
« يا أهل الشام . . . من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه ! . . » .
وكان هذا مولد خدعة جديدة ! . .
وكان فجر الجمعة الثانية من صفر يكاد يسفر عن محيا الصباح ! . .

١

الفجر ولى ، والبكور أقبل . السواد ذاب فى كأس النور . السماء ! كتست فى المشرق وشاحا من الزرقة ، أشهب كالبحر الكدر ، أغبر بلون الرماد . .
ضياء كظل ، وظل كضياء . . . غبشة الصبح تلف كل ما تلقف الأعين . على الأرض منها ضبابة ، على الأفق غيمة . الشمس أيضا توارت وراء سحب مضطربة من رهج الوقعة . والمكان ، بين سمائه وأرضه ، كان لوحة مهزوزة ، اختلطت فيها الألوان والمعالم ، وتداخلت الأضواء بالظلال ، ولولا الصليل والصهيل والصيحات لكان أدنى الى صورة بالية خرساء ! . .

حتى الأصوات كانت كأصداء . خفت الجرس . خف الوقع . ثلمت الحدة ، وباتت جميعها كالترجيع الأجوف ! . . وعلى مدى الساحة الفسيحة المنبسطة ، كانت الصيحة أنة ، والحركة إعياء . . .

الظافر والمهزوم كلاهما في وهن ، قد زلزلهما التعب ، وبدت جهدهما مشقة القتال . . . رجال على ترميم على عدوهم قوة دافعة — هي بقية تقدمهم — لا تكاد تمدها الإرادة بشيء ، وإنما تجرفهم أمامها اندفاعة الليل جرف التيار . وجند معاوية تمسك عليهم كفاحهم الباقي غيبوبة نفسية ، هي الحمية ، التي ما زالت تتحدر في عروقهم من الأجيال . ومن بين أولئك وهؤلاء تنبعث للحركة علائم من الصياح والهرج والأصوات ، عن غير وعي ، وبلا تدبير ، كانبعاث الضجيج من دولاب دائر دفعه المرء ثم تركه يسير ! . .

كانت الحركة التي تحن للوقفة ! . .

وكان الدولاب يتمايل ، من وهن ، إلى هنا وإلى هناك ، حتى يتهاوى أو يصدمه ما عسى قد يكفه عن انطلاقه ! . .

والنهار ، حين أصبح ، أتى القوم جميعا بتلك الصدمة الملجمة وبما أشبع الحنين ! . .

* * *

في اختلاطة النور ساعة المشرق ، بغبشة البكرة ، ورماد الغبار ، تخايلت لأعين المندفعين قدما صوب معسكر معاوية بضع مئين من الأعلام . . .

ولم تكن خفاقة يلعب بها نسيم الصباح . . . لم تكن — فيما بدا للرجال على — من ديباج ، ولا على شاكلة ما يعرفون من ألوية ترفعها السواعد أمام الصدور وفوق الأعناق . بل قد شدت إلى رءوس الرماح والحراب ، ورفعت على ظهور الجياد . . .

وعجبوا مليا . وتفرسوا . ورنوا . إنها تمتد حيال معسكر الشام كأنها أعواد سياج . متقاربة ، متدانية ، ومن ورائها احتمى الجنود . . .

لا حركة بين الأعداء . لا رنة سلاح . لا وقع قدم . كلهم وقوف ، بلا حراك كأنهم صفوف من الأعواد تؤلف بقية السياج . والسيوف في أكفهم مدلاة ، والقسي مرتخية الأوتار . . .

وعندما أعي رجال الإمام أن يتبينوا — من بين غيمة النقع — معالم تلك الرايات ، انطلق صوت رافع مجلجل من فوق معسكر معاوية ، يصيح فى ضراعة وابتهال ! . . » .

« يا أهل العراق ... كتاب الله بيننا وبينكم ! . . » .

فبهت المندفعون . . .

على الفور امتدت إلى الصائح الآذان ، وتطلعت الأعين ، وتعلقت منه بسن رمحه التى رفع عليها مصحف دمشق الأعظم ، ووقف به فى شقة الأرض بين الجيشين التى كانت أرجل المشاة ، وقوائم الخيل فى الكتائب المنطلقة قدماً تطويها خطوة بقدم وعدوة بذراع . .

كان النداء مفاجأة بدرت تكلم القوات المنتصرة فوقفت بها ، أو كادت ، حيث انطبعت الأقدام ... فثمة حيالها دعوة إلى الله ، وجند عزل ، سيوفهم مدلاة ، وقسيهم مرتخية الأوتار ! . . .

ورنت الصيحة المجلجلة :

« كتاب الله بيننا وبينكم ! . . » .

واهتز مصحف دمشق الأعظم ، كأنه يردد النداء ، ومن ورائه اهتزت مثين مثله من الأعلام ! . .

ثم ارتفعت فى أعقاب هذا أصوات تضرع :

« يا معشر العرب ، الله الله فى نسائكم وبناتكم ! . . » .

« الله الله فى دينكم ! . . »

« من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ . ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟» .

« من لجهاد الروم ؟ . . من الترك ؟ . . من للكفار ؟ . . » .

فى كل نبرة من هذه الألفاظ توسل ، وفى كل حرف من حروفها حزن ، خفى خجول ، يتسلل إلى الهواء على استحياء . وإلى العقول التى عاينت المحنة . وإلى القلوب التى خالطها التقى فسالت رقة ومرحمة — لكأن الصدى الذى خلفته هو هذه اللمة الحيرانة فى العيون الشاخصة إذ تتألق بندى الدموع ! . .

وتواترت الصيحات . وترددت مراراً ، مرارا راجفة عالية ، ضارعة مبتهلة تكشف الخشية من الفناء ، وترسم الخوف من غد قريب مجهول تصبح الأمة فيه — لو مضت المحنة إلى غايتها — طعمة لكل موتور ، وتفصح عن الأمل فى بقيا حبيبة . . .

« هذا كتاب الله بيننا وبينكم ! . . »

وغرق رجال على فى طوفان ! .

من كل ناحية ترددت الهمسات . من كل فرقة وكتيبة ، من كل زمرة وجمع . حتى الذين زهدت شفاههم فى ترديد الهمس وجمدت عيونهم عن التألق بنداها ، كان للضراعة فى قلوبهم أصداء . . .

وسخط الأشتر . وحمى أنفه لبادرات الضعف التى على ملامح القوم منه رقة وفى أكفهم فتور يكاد يثقلها بما حملته من سلاح ، وفى أقدامهم بطء وهينة ... أهو التعب أم التخاذل ؟ ... أعن إجهاد أم الدعوة الضارعة لقيت منهم الملبى السميع ؟ . . .

وعلا صوته يشغلهم عن خواطر الأذهان المثبطة ، وينتقل بهم إلى الحياة فى حرارة الكفاح !

« اصبروا ! ! ! اصبروا يا معشر المؤمنين . . . »

كان هذا دائما نداءه ، فى كل ساعات الحرب ، وفى كل مرحلة منها قطعها بجنده من الشقة التى كانت تفصل بينه وبين معسكر معاوية ... الإقدام دعاؤه ، والصبر نجواه . كان مشغلة لرجاله بحماسته المشبوبة ، ومذهلة لهم باقتحامه الخطر غير هياب حتى ليستهويهم اتباعه فتندفع جموعهم وراءه مسحورة ، بغير تحرز ولا مبالاة . . . يقول واحد من الذين سمعوه وشهدوه وأعجبهم حينذاك سيره :

« أى رجل هذا — لو كانت له نية ! . . » .

فإذا آخر ينبرى بالجواب :

« وأى نية أعظم من هذه ، ثكلتك أمك ! . . إن رجلا فيما ترى قد سبح فى الدماء ، وما أضجرته الحرب ، وقد غلت هام الكماة من الحر ، وبلغت القلوب الحناجر وهو كما تراه جذعا يقول هذه المقالة ! . »

ويتبعه الرجال ، مسحورين ، بالقلوب والعيون والأوصال ، وهو منطلق فى غمار الحومة الدامية

وفى الحق لم يكن الأشتر بالمتهم فى صبره على القتال ولا فى وفائه للإمام ونيته المعقودة على بلوغ أوج غايته فكذلك كان . وعلى هذا دأب حتى انتهت به حياته فجأة ، ذات يوم بالصحراء الشرقية ، على حافة حدود النيل . ولم يجر على الصدق من قال فيه من بعد :

« . . . وما أقول فى رجل هزمت حياته أهل الشام ، وهزم موته أهل العراق ؟ . . » .

لكنه — على غير ما اشتهى — لون المشهد الأخير من وقعة صفين بلون باهت خابل الأنظار وداخل العقول حتى اقترن حيالها بما يشبه الهزيمة إن لم يكن هو الهزيمة النكراء . ولم يسعفه صبره إذ ذاك ووقفت نيته مشلولة والسويعة الباقية من عمر الحرب ، وقد قررت لنا دوره قبلها ، ستوجه سيره بعدها فاذا هو يجرى فى خط بعيد البعد كله عن طريق النصر . . .

ومع هذا فلم يكن سيره ذاك عن خيانة ، ولا عن فتور بعزمه الذى كان يتحرق على موالاة الكفاح إلى الفوز أو إلى الموت . ولا إيمانا منه بصدق الدعوة الخاتلة التى دعا بها عسكر معاوية حين رفعوا القرآن . . . فالضراعة المرتجفة لم تمس قلبه . وصيحاتهم الملهوفة مرت دبر أذنيه وهو يندفع قدما صوب القبة البيضاء . . .

وتلفت العاهل المفجوع فى حيلته ، والأشتر يقدم عليه غير ملق باله الضراعات والمصاحف كأنه فقد الأذن والعين ، أو تلبس من اندفاعه بوقر وغشاوة . . . إنه لا يزال ينطلق . قدما ينطلق . بغير تريث . بغير تردد . بغير سمة من سمات العطف والرحمة التى ارتسمت الآن على وجوه بقية رجال الإمام . وها هو الموت يدنو معه . وها هى المسافة تذوب !

غير أن ريحا من الطمأنينة كانت تهب على معاوية ، بمأزقه هذا ، بيومه هذا ، فتبرد هونا من اضطرابه ، حلقه يندى من بعد جفاف ، فؤاده يقر بعض القرار . عيناه اللتان غشاهما الجزع بدأت الغشاوة تنجاب عنهما ، رويدا ،

وهما تسبحان به على لجة خياله عبر الصفوف التى ملكتها الرحمة ... ثمة بارقة أمل .
فرجة لهمه . ثغرة بتلك الصفوف المخدوعة لن يلبث حتى يقتحمها خداعه فينفذ
من خلالها إلى ما يريد ... ولم تكن هى العاطفة الإنسانية التى ترق لضارع
ملهوف ، ولا نجدة الفروسية التى تعف عن مقاتلة أعزل . وليست أيضا العاطفة
الدينية التى تفيض بقلوب التقاة الورعين فتسيل خشية وتلبية لهذه المصاحف
التى احتوت كلام الله . كلا ، لا هذه ولا هاتيك . بل الدسيسة التى تسربلت
بالظلمة ، ثم تسللت تسلل الأفاعى السامة فى أثناء الرمل ...

٢

الصيحات التى رددها الصبح من ناحية الأمويين لم تكن أولى الضراعات
المرتجفة . سبقتها فى الليل أخوات كانت الفاتحة ! ... طليعة الحلة الخاتلة ! . .
باكورة الثمار الخبيثة التى أطلعتها شجرة التآمر الملعونة ! . .

لكنها مضت فرادى حينذاك ، من هنا مرة ، ومن هناك مرة . تنطق بها
أفواه بعض الناس من رجال الشام ، ولا تكاد تلتقطها إلا آذان بعض الناس من
رجال العراق . غير أن أذنين اثنتين كانتا أحفل بها ، أحرص على الامتلاء منها
حتى اضاقتا بغيرها من ضجيج الميدان وأخلاط أصواته . .

وأرهف الأشعث بن قيس سمعه ، الليلة الأخيرة فى حياة القتال ، ليلة الهرير
وسكن يصيح :

« يأهل العراق ! . . من لذرارينا إن قتلتمونا ؟ . . ومن لذراريكم إن
قتلناكم ؟ . . الله الله فى البقية ، يأهل العراق ؟ . .

أفهى العلامة التى تم عليها الاتفاق ؟ . . أم المصادفة وحدها قد دفعت أولئك
القوم فى الجيش الآخر إلى هذا النداء الذى تردد مثله منذ قليل على شفتيه ،
فيجدر إذن أن تكون الصدفة التى تزرى بكل اتفاق ؟ . . على أية حال كانت
هذه الدعوات المنطلقة مع الليل صدى لما ردده الأشعث بن قيس ، فى نفس الليلة

قبل أن تذيع عندما وقف بين رجاله من كندة موقف الخطيب ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الحرب تأكل وتطلب المزيد ! . .

قام ، في تلك اللحظة الحامية ، بارد القلب هادئ الشاعر بين قومه ، يلجمهم ولا يدفعهم ، ويفل من عزمهم ولا يشحذه ، كأنما الخير قد غدا في التثبيط — والوغى تستمر — دون التحريض ! . .

قال ، والسامع يوشك أن يتهم فيه بصره فيحسبه اكتسى الآن مسوح الحكمة والوعظ وخلع عن نفسه شكة القتال :

« يا معشر المسلمين . . .

قد رأيتم ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فني من العرب . فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط . . . » .

وأصغت إليه كندة . . . بغير هذه الكلمات طالع الأشعث أمير المؤمنين منذ قليل . بالحمية ، والرغبة الطاغية في البذل ، وموالاة الحرب إلى غايتها حتى يفتح الله أو تكون الشهادة . . . فكيف تبدلت الحال ؟ . . ما الذي غيره ، وانتقل بنفسه هذه النقلة العجيبة من المغالاة في الهمة إلى المغالاة في التخاذل ، بين سويعة وسويعة ، ليلة الهرير ؟ . .

ومضى يقول ، وصوته يتشكل وفق منطقه ، إشفاقاً ، أو رقة ، أو جزعاً لعله يجاوز خشية الجزوع إلى أسف التائب ، وألم النادم على ما فات :

« . . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا إن تواقفنا غداً إنه لفناء العرب ، وضيعة الحرمات ؟ . . . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف . ولكني رجل مسن ، أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا . . . » .

ويرفع وجهه الحزين للسماء :

« اللهم إنك لتعلم أني قد نظرت لقومي ، ولأهل ديني فلم آل . وما توفيقي إلا بالله . . . » .

* * *

لم توقع هذه الخطبة ، التي حببت القعود إبان النصر ، عوامل الوهن فى قلوب كندة أصحاب الأشعث وحدهم ، بل تجاوزت نطاقها إلى غيرهم من الناس . لاحت بادىء الأمر رأيا خاصا بذله لطائفة خاصة هى قومه من اليمانية ، ثم لم يكد يسير فيها إلا أسطرا قليلة حتى أرادها عامة ، وجعل نشرها بين الكافة من جيش على أمانة معلقة فى أعناق أصحابه ، يؤدونها عنه ، شاهدا لغائب ، وسامعا مقيما لبعيد قد نأت به حركة القتال ... كانت بذرة جرثومة من جراثيم دائه رمى بها الجماعة السليمة ! . وقديما انطوت نفس الأشعث على دخل للإسلام حتى خلع نفسه وثاقه وارتد طائشا إلى الجهالة العمياء . وبالأمس القريب ، وحرب صفين فى مدها وجزرها ، خايله عتبة بن سفيان ، بلسان أخيه معاوية ، وحرك فيه نزعات غروره واستعلائه . والليلة ، وجيش الإمام على حافة النصر ، والحق قد بلغ مقطعه ، يجنح المرتد المغرور إلى دعوة الوهن والتوهين وما تزال ضراعة أهل الشام سرا تكنه الخواطر ، وغيبا تسره الظنون ! . .

فكيف تبدلت الحال ؟

ما الذى غير الأشعث ، وانتقل به هذه النقلة العجيبة من المغالاة فى الحمية والهمة إلى المغالاة فى التخاذل والتخذيل ؟ . . .

ليست الصدفة على أى وجه ، أو هى الصدفة التى تساوى التدبير المحكم ، وتمدل الاتفاق ! . .

وتنطلق العيون من هذا المعسكر إلى ذاك ، تبلغ معاوية الخطبة . فإذا هو يفىء إلى بعض طمأنينته . وإذا قلبه الذاهب يثوب . وإذا عيناه تسرحان مع خياله عبر الصفوف الماثلة ، الزاحفة إليه ، الداهمة كالقضاء . . . هذه إذن فرصته . الأمل المرقوب . الثغرة التى انشقت له فى عدوه ينفذ منها إذا شاء لما شاء . . .

وعندئذ يحمد الرأى الذى دعا به شيخ كندة ، ويشيد به فى حماسة واهتمام :

« أصاب ورب الكعبة ! . . »

ولم لا ؟ . لقد أصاب الوحدة العلوية فى الصميم ! . .

ويمضى العاهل فى ثنائه :

... لئن نحن التقينا غدا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ، ولتميلن فارس على نساء أهل العراق وذراريهم .. أصاب والله ! ... وإنما يبصر هـذا ذوو النهى والأحلام ... » .

ثم يذهب يستهدى رفيقه ابن العاص فينسج له ، ويحيك ، ويحيك الشراك التى نصبها عند اشراقة الصباح . . .

وفى الجانب الآخر يقع الاختلاف ... ما يكاد الأشعث يلقى بدعوته للموهة بالنصح ، المزيفة بالحكمة ، حتى تنتقل من أذن لشفة ومن شفة لأذن ، فتذيع بين القوات العلوية مقرونة باللفظ والمناقشة والجدال . لقيت هوى من لدن الأعضاء المفترة ، والأبدان المنهوكة ، وأوسعت لها فى دخيلتها مكانا نفوس قرحها الحزن ذوى قرابة ورحم حطمتهم الحرب القاسية هنا أو طحنتهم هناك ... الدولاب الدائر أخذ يترنح ويتمايل دون أن يبلغ غاية انطلاقه ! . .

وثار الجدل . مرارا كثيرة ، فى الليل والبكور ، تواقف الصحاب يبحثون الأمر ، ويقلبون أوجهه . من عاد ليبلغ الإمام سير القتال . من نهد ليجد . من أفسحت لهم الحرب من لحظاتها ما يشغلونه بحديث ...

يقول عدى بن حاتم :

« يا أمير المؤمنين ... كل مقروح ، ولكنا أمثل بقية منهم . وقد جزعوا وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم ! . . » .

ويقول عمرو بن الحمق :

« .. والله ما نصرناك عصبية على الباطل ، ولا طلبنا إلا الحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوت إليه لكان فيه اللجاج ... يا أمير المؤمنين ، قد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى ... » .

ويهتف الأشتر بعلى :

« ... اقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله ! . . » .

فى مستهل الجدال كان القوم أميل إلى المثابرة ، أحرص على موالاة النضال فى لحظاته الأخيرة حتى يثمر لهم نصرا قاطعا تنبعه وحدة وتقفوه سلم . لكن ...

الأشعث وحده هو الذى خالفها ، أو بدا حينذاك المستمسك بدعوة الموادعة التى أطلقها فى الليل . إنه لا يخضع للرأى الغالب . لا ينزل على حكم رفاقه . لا يزال يلحف ويلح حتى يبلغ به إلحافه وإلحاحه حد الغضب والثورة كأنما يريد أن يحملهم حملا على قبول دعوته :

« إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس . وليس آخر أمرنا كأوله . وما من القوم أحد أحنى منى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام منى ... فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق بهم منه . وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال ! ... »

ويهدىء على ثائرته

« هذا أمر ينظر فيه ... » .

لكن الرجل ، فيما بدا ، لا يرضى لرأيه أن يغفل ، أو يغلب ، أو يتناوله العقول بالتمحيص . فمضى ينشره ، ويروج له فى الصفوف ... لم يرض بالسكوت بل كان أعظم الناس قولا فى إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الوغى تأكل وتطلب المزيد ! . .

فى هذه اللحظة كان الأشتر يصيح برجاله ، صيحته التى تبعد عن أذهانهم خيالات التخاذل البادية فى ثياب عرائس السلام .

« اصبروا ! .. اصبرا يا معشر المؤمنين ! .. » .

إنه يمضى الحديث الذى زخرفه الأشعث لم يفل عزمه ، ولم يخفف ضرباته . الجدال الذى تركه وراءه بين رفاقه من قادة الرأى فى صفوف الإمام كان أدنى فى ظنه من محاورة قد تختلف فيه النظرات ثم لا توقع — آخر الأمر — الاختلاف . الحق بين والنصر بين ، وإن هى إلا خطوات إلى القبة الكبيرة البيضاء ويسقط آخر معقل للأعداء ، فيسكت المحاور وينفض السامر ! . .

ومضى قدما بلا تلكؤ بغير صدى يتردد فى خاطره لهذه الضراعات التى بحت بها أصوات جند الشام . بغير ظل للعطف أو للرثاء ترسمه على ملامح وجهه الصارم لهفة الغريم المغلوب . وها هو الموت يدنو منه ، وهاهى المسافة تذوب ! ..

ورجف معاوية .. ما لأمله لا يبزغ ؟ ما لفرسه لا يثمر ؟ .. ما لهذه الثغرة التي حسبها في الليل قد انفسحت له بين صفوف الإمام لينفذ منها الخداع والدسيسة قد بدت الآن تضيق وتضيق كلما تبلج النور ؟ . . .

ويجزع الرجل . ويجزع معه أصحابه الذين علقوا حياتهم بذلك الخيط من أمله ، فيصيحون حمية :

« يا معاوية ! . . . ما ترى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه فأعدها جذعة ! . » .

فيتفكر برهة ، وهل بقي له ولهم عزم ، أو فرصة للثبات على الأقدام !

وينفثون في روعه :

« . . إنك قد غمرت بدعائك القوم ، وأطمعتهم فيك ! . . »

لكنه لا يصغى . مرة أخرى يمد بصره على أجنحة خياله ما وراء تلك الصفوف المظفرة ، إلى وكر هناك تعيش فيه الدسيسة وتفرخ . مرارا أيضا يراود الأشعث بن قيس دعوة للوادعة ، وإطفاء الحرب ، والوهن والتوهين . والأشتر حينذاك ينطلق ، بغير أذن تسمع الضراعة ، وبغير عين ترى المصاحف المرفوعة حياله على الرماح كالأعلام ! . .

٣

ثار الإمام بالذين ما ونوا يلحون عليه في الاستجابة لضراعة أصحاب معاوية ، وتلبية دعوة الحكم بالقرآن :

« إنها كلمة حق يراد بها باطل ! . . » .

ولكنهم ظلوا يلحون . . .

الآن وجد توهين الأشعث بن قيس سبيله إلى النفوس ، في صورة حكمة ، وعطف الرحم ، وبقيا على الذرارى والنساء ! . وأخذ ما كان يردده أهل الشام يتردد على ألسنة أهل العراق : « من الروم ! . من الترك ! من الكفار !. »

واستنامت الكثرة فى جيش على لمظهر الدعوة البراق دون الحذر من لبها الخبيث . فما يهمهم الغوص فى قلبها ، أو الكشف عن سرها المستور . إنما يجدى عليهم أن يقبلوها كما هى — وإن كانت طلاء وقشرة — ففى قبولها الحياة !

كالنعام أغمضوا عيونهم عن شراك الصياد ، وأخفوا رءوسهم فى الرمال ! . أولئك الذين نهضوا لله ، وهاجروا من ديارهم فى الله ، وحاربوا فقتلوا وقتلوا وهم على بينة وإيمان ، فترت الآن منهم العزائم ووهى الجلد والنصر أمامهم يعاينونه من قريب . . .

وهتف بهم يحذرهم :

« عباد الله ! . . إنى أحق من أجاب إلى كتاب الله . ولكن معاوية ، وعمرو بن العاص ، وابن أبى معيط ... ... ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنى أعرف بهم منكم ! . . صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا ، فكانوا شر أطفال وشر رجال . إنها كلمة حق يراد بها باطل ! . . . »

ثم مد بصره إلى المصاحف المرفوعة كالأعلام :

« ... انهم والله ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها ، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة . . »

فما أجدى تحذيره . وبقوا يرنون إليه بعيون جوفاء . حتى إذا استيأس صرخ فيهم كأنما يستمين بقية من حميتهم القديمة ، وشرعة الجهاد والتضحية ، على نفوسهم التى قتلها خوف الموت ، وفتنها حب الحياة :

« عباد الله ! ... أعيرونى سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا ! ... » .

فقليل سمع ووعى ، وكثير عاند وكابر ...

تصايح فريق يلبيه :

« نقاتل ! . . »

« نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس ! . . »

فإذا أصواتهم تضيع فى هدير معارضيه :

« أكلتنا الحرب ! . »

« قتلت الرجال ! . . »

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه فإننا قد فنينا ! . . »

وماج الناس . وتواترت حشودهم عليه من أرجاء الميدان ، على أجسامهم الزرد ، وعلى وجوههم أقنعة الحديد ، وفى أيديهم السلاح ... جموعا وفرادى جاءوه . فرقا وكتائب من هنا ومن هناك . مختلفين الفراغ فى الساحة . لغير تلبيته كان هذا الإقبال ! . لغير التبصر بما أشار ! . لغير نصرته كل هذه العدد والأعداد من الدروع والنصال ، ومن المغاوير والأبطال ! . . وقعت الفتنة واضطرب الميزان ...

وضاع صوت الإمام . أغرقه الهرج والجدل والضجيج . فما بقى ثمة من هذه الجموع الحاشدة سوى عيون جوفاء ، وقلوب مغلقة ، لا تراه الآن إلا داعية حرب هم الذين كانوا يتبعونه ، منذ ساعات ، خفافا سراعا إلى مفاوز الموت ، فى سبيل الحياة ! . . فما أعجب القلب من قلب ! . . وما أقوى الوهن وأعتى سلطانه حين ينطلق من عقاله فتسرى إلى النفوس عدواه !

من عتمة الليل إلى تألق النهار تبدل الأمر حالا بحال . سرعان ما تغير . انقلب ... القلة المخدوعة ربت ، ونمت ، وأثمرت فأصبحت كثرة . والكثرة الواعية التى كانت ترى الاستمرار فى القتال إلى النصر ، عزت الآن عليها الأعمار وهانت القيم الرفيعة ، فأخذت تتسرب ، رويداً رويداً فى أغوار تخاذلها ، تسرب الوابل المطال فى الرمل إلا بقية — كقطر الندى — على سفوح كثبانه ! . .

الآن قد استعصى الداء . كل ماحاول الإمام أن يعمل به رجاله على الاستمساك بالصبر ، والتذرع بصدق البلاء ساعة — ساعة واحدة تأتيهم بعدها العزة ، ووحدة الأمة ، والسلم الدائم ، لم يجد صدى فى قلوبهم التى استعبدتها خدعة معاوية . لكنهم فى الحق لم يكونوا جميعهم مخدوعين . فطائفة أضلها تقاها حين حسبت أن فى إبائها الاحتكام إلى كتاب الله خروجا على شرعة الدين . وطائفة

أنهكتها الوغى ، وأكلت من عشائرها الموزعة بين جيش العراق وجيش الشام فآثرت تمجيل السلامة وطائفة ثالثة خاضت الحرب عن حمية لا عن إيمان فاكتفت بتلك الضروب البسالة التي أبدتها خلال ماسلف من أيام القتال ، ففيها غناء حين تمشى بسيرتها الأحاديث . وبين أولئك وهؤلاء فريق غيرهم خايلته دنيا ابن أبي سفيان ، إن بالملق أو بالمغنم من ثراء وجاه ، في وقت أيقنت فيه أن عليا صاحب آخرة ليست تطلب عنده أطايب الحياة ...

هذه الصفوف من « الأحزاب » لم تكن كلها في جيش الإمام يوم خرج مخرجه من ذي قار . ولقد رأيناه حينذاك حريصا الحرص كله على أن يوفر لقواته المواءمة والانسجام بين عناصرها ، فلم يستلحق أحدا كره النهوض معه ، كما أبي الإباء كله أن يضم إليه كل امرئ قالت الشبهات إنه شرك في دم عثمان ...

لكن انتصاره في البصرة على أصحاب الجمل قد أمده من العناصر التي خالطت جيشه ولحقت به ، بما لم يكن يرضاه لو وكل بالقلوب يقرأ خباياها ، وبالنيات المكنونة يكشفها ، وينقدها خالصة ومدخولة . فلقد جرى القوم حينذاك على ما يجرى عليه الناس ، في كل زمان ومكان ، فلحقوا بذيله إذ هو غالب . وجاءته منذ ذلك اليوم من جمادى الثانية ، عامه الماضى ، زمر ووفود من أقاليم دولته لتسانده في كفاحه ...

من هذه الأخلاط كان جيش صفين . والغاية التي مضى إليها الإمام مضت معه وقد ازدهاها أن تساند ابن عم الرسول ، صاحب الحق الشرعي في ولاية أمر الناس ، وهى تبغى — إذ تظاهره — إعلاء كلمة الحق ، ورد كيد أيما مبطل حدثته نفسه بالتمرد على سلطانه . ومع ذلك ، فلم تكن نفوسهم بلا ريب فارغة الفراغ كله مما يداخل نفوس البشر من نزعات خاصة إلى الشهرة أو المغنم أو السيادة التي تفيئها عليهم الحرب المرقوبة وإن طغت عليها — حين الزحف — تلكم الحماسة الطاغية لله ، والإمام ، والمثل النبيلة الرفيعة التي أذهلتهم عن الذات .

أما الآن ، وقد خف ذلك الطوفان الأمثل الذى جرفهم إذ ذاك في عبابه ، وصدمتهم محنة الحرب ، وأصبحوا ينظرون بالعيون بعد أن كانوا يرون بالبصيرة ،

ويسمعون بالآذان دون القلوب ، فقد تبدلت بهم الحال ، وهووا من سماء الروح إلى أرض المادة ! . .

العيون مفتوحة ، والقلوب مغلقة . النفوس حاضرة والأرواح غائبة . هم شخوص وجسوم ، تسمع وتشخص وقد عدمت الوعى والتبصر . نضب فيها الفداء والإيثار . ذوى الشعور بالقيم . غلا الموت عليها فى سوق صفين ! . .

وضاق الإمام :

« .. لم يزل أمرى معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب . وقد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى وأنهك ... »

وكأنما هم بعضهم — على مألوف ماجروا عليه خلال السويعات القلائل صبيحة الجمعة الثانية من صفر — أن يقطع عليه حديثه ، إن بالتهوين أو بالمعارضة :

« يا أمير المؤمنين ... »

فلم يتمهل له ، بل أتم ما شرع فيه من كلامه ونبراته تقطر المر :

« ... كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأمورا !... وكنت ناهيا فأصبحت منهيا !... قد أحببتم البقاء ، وليس لى أن أحملكم على ماتكرهون.. »

وجلس وهو قانط نفض منهم أمره . .

وتحلقوا حوله ، حلقة وراء حلقة كأنهم فى ندى لا فى ميدان قتال ! . . . وأقبل شيوخهم يتبارون فى أحاديث يلوونها ليا ، تلف فى ألفاظها للتأبية تهافتهم المخزى على الحياة . ومن ورائهم عامة الجند ينصتون للدعوة المثبطة ويتنادون جهرة بالموادعة والسلم .

يقف شقيق بن ثور البكرى ، يخطب :

« أيها الناس ، إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه . وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم .. وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا فى الموادعة ... »

فكأنما شاء شقيق فى هذا الوطن أن ينسى أن صفين لم يقعقع بها سلاح فى يد علوى إلا بعد أن استنفد الإمام كل حيلة لمنع الحرب أن تنشب ، بالكتب

والرمل بضعة شهور . حتى عندما أخذت الأكف — فى بدء الوقعة — تتلون بالدم ، حاول أن يكبح شهوة أعدائه للقتال فدعاهم مخلصا إلى كتاب الله ، ولكنهم ردوه ، وأبوا الاحتكام إلا السيف . . .

نسى هذا كله شقيق ، بل هو قد حمل نفسه حملا على تناسيه ، فى ذلك الوطن ، ليجد حجة لتخاذله ، ويضع حجة فى أيدى أخصامه وإنه ليعلم حق العلم أنهم قوم صفرت يدهم من كل حجة ، وفرغ وفاضهم من المعاذير . . .

ويمثله يتحدث حريث بن جابر البكرى :

« ... إن عليا لو كان خلفا من هذا الأمر لكان للفزع إليه ، فكيف وهو قائده وسائقه ؟ . وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا ما دعاهم إليه أمس ولو رده عليهم كنتم له أعنت . . »

أفلم يرده فعلا ؟ . . . ومع ذلك يزعم حريث أن الإمام « رضى » للوادعة فيحمل كلماته اليائسة غير ما تطيق ! . .

واحد فحسب من بين هذه الجماعة كان أقدرها على رسم صورة صادقة للموقف ، فيها صراحة آذت زملاءه ، وأقلقت معاوية من ورائهم وكان يتنسم ريح الأخبار التى تأتيه عن سير النقاش .. غلام منهم لم ترتفع به السن وإن ارتفعت الهمة ، هو الحضين بن المنذر الرقاشى ، صاحب راية ربيعة التى ثبتت بعد انهيار جناح عبد الله بن بديل ، واستطاعت بثباتها المعجز أن تميل بجيش على من الهزيمة إلى النصر ...

قال الحضين ، ذلك الغلام يرد على أولئك الأشياخ :

« أيها الناس . . . إنما بنى هذا الدين على التسليم فلا توقروه بالقياس ولا تهدموه بالشقشقة . . . إن لنا داعيا قد حمدنا ورده وصدره ، وهو المصدق على ما قال ، المأمون على ما فعل ،فإن قال لا قلنا لا ، وإن قال نعم قلنا نعم ! .. »

فأغضب قوله المتنادين بالموادعة من البكريين ، الذين ادعوا أن تناديهم صدى لرغبة الإمام ! . . أغضبتهم صراحة الغلام ، وضاقوا بها ، وامتلأت لها نفوسهم بعداوة كادت توقع الشقاق بين قومهم وقومه ، وتدفع بهم إلى مقاتلة إخوة لهم فى السلاح فى نفس الوقت الذى اختاروه لمسالمة الأعداء ! . . .

وقلق أيضا معاوية . وأثاره من ربيعة وفتاها أن قلبوا عليه أمس ميزان نصره وهموا اليوم أن يحبطوا خدعته . . وعندئذ أرسل يستميل رجلا من أصحاب الإمام :

« يا مصقلة . . . ما لقيت من أحد ما لقيت من ربيعة ! . . »

فجاء الرد على الفور :

« أنا باعث إليهم فيما صنعوا . . . »

وصدقه الوعد ، وألقى بشعر يشبه الأمر على ربيعة ، ويرمى غلامها بالجموح فى الفتنة ، فلا يعدم من يردده ، ويؤمن به ، ويعدى بعدواه المثبطة سواه ...

فهل كان مصقلة بن هبيرة عينا لمعاوية فى صفوف على ؟ . أكان ممن نافقوا الإمام ، كالأشعث ، يبدون له الولاء ويكتمون الدخل ؟ . أكان كخالد بن المعمر مباءة خيانة ؟ ... عسير بلا ريب أن يقطع المرء باتهامه ، تلك اللحظة التى استجاب فيها طائعا لمعونة صاحب الشام ، فذاك من أسرار ضميره فلقد يكون مغلوبا على إدراكه فحسب الخير فى تسكين الحرب كما قد حسب كثيرون . ولقد يكون ذا نجدة أبت عليه القعود عن إغاثة ملهوف ولقد يكون أيضا ضالعا مع خصم أميره . . ولكنه كيفما كان ، يبدو للذهن بثوب علوى ونفس أموية ! . وحين تسير الأحداث لسوف تطلعه لنا من وراء سترها الكثيف رجلا لم تملكه النجدة وحدها ، ولا سيطرت عليه فحسب فكرة « الخير فى التسكين » بقدر ما غلبت عليه نزعات نفسية خفية ، كانت تموج فى أعماقه ، ثم انفجرت كحمم البركان فدفعته إلى حيثما كانت تود لاعجته — من بادئ الأمر — أن يكون ! . .

أجل ، قد كانت رغبة مكبوتة انطلقت فمضت من بعد بابن هبيرة من صف لصف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . إلى نتيجة محتومة نمت عنها هذه المقدمة التى أسفرت لنا عن وجهها حين استجاب لعاهل الشام فى أمر ربيعة ...

إذ ذاك كان مصقلة قد غدا عاملا للإمام على الأهواز . وكان بعض الجيش العلوى عائدا من البحرين بغنائم وسبى ظفر بها فى قتاله قوما خلعوا طاعة على وارتدوا عن الدين . فلما أن مر موكب النصر بالعامل ، صاح به نسوة من السبايا :

« امنن عليها . . . »

فأخذت ابن هبيرة أريحيته كما أخذته يوم استعانه معاوية على ربيعة . فإذا هو يشتريهن من بيت المال ، ويمنّ عليهن بالعتق

وهذه لا ريب مروءة ، تكشف لنا عن ناحية فى خلق الرجل محمودة ، وقد تلقى ضوءا على موقفه ذاك من استعانة معاوية به ، فتبديه كلفًا بالنجدة يبذلها لأيما ملهوف وإن كان صديقا أو كان عدوا فى العداء . ولكنها — كما تلوح — نجدة منشؤها حب الفخر والمباهاة ، وليست عن إيمان بالمكارم . . . فما هو أن رأى أن ثمن العتيقات قد أبهظه ، وعسر عليه أن يؤديه لبيت المال حق حزم أمره ، وتخلى عن على فى وقت تزاحمت عليه الأزمات ، والتجأ إلى معاوية . فكأنما إذن قد آثر الفرار من الأداء على الوقوف بجانب أمير المؤمنين إبان محنته والوفاء لعهده ، والولاء له وهى لا ريب أكرم المروءات !

وقال الإمام فيه لما بلغه نبأه :

« قبح الله مصقلة ! . فعل فعل السيد وفر فرار العبد ! . »

٤

استشرت دعوة الموادعة فى جمهور الجيش ، ولم يفد فى كبح جماحها تحذير الإمام ، ولا صراحة الحضين ، ولا استدامة الأشتر الهجوم بفئته القليلة على معسكر معاوية . وخرج الأمر الآن من يد سادة العشائر الذين طالما تناولوها ذلك الصباح بجدل ونقاش ومداورات تظهر طاعة « رقيقة » لعلى تشف عن تمرد وعصيان ، وتبدى عزما على تأييده وراءه فى الحقيقة تقاعس يدانى الخور ، ويهوى إلى درك الانهيار . . .

وقعد الناس ، هنا وهناك . وما لهم يقاتلون والهدنة تلوح ؟ . وارتخت القسى . وقرت السيوف فى الأغماد ... فى ناحية من الميدان خديعة ، ومصاحف كالأعلام ، ودعوة تصيح : « كتاب الله ! » . وفى الناحية الأخرى غفلة ،

وتمرد غير مستور ، ودعوة تصيح : « كتاب الله ! » . . ولا رهج إلا حيث ينطلق الأشتر . ولا ضجة حرب إلا على مقربة من القبة البيضاء . . .

وكأنما أبطأت على رقيق الحيـاة غايتهم ، فأقبلوا يهرعون صوب الإمام ، على القدم والمطى ، يتعجلون السلامة . . . كانوا جميعا من رجاله ، الغالين من قبل فى نصرته . كانوا المشوقين لإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة فإذا هم الآن يرون الحياة غاية الغايات . . .

فى شـكة القتال أقبلوا عليه السيوف على العواتق والرماح فى الأيدى . والدروع والأقنعة على الصدور والوجوه . ومن وراء الحديد الذى أخفى ملامحهم كانت الحدق تأتلق غضبا وموجدة . . .

لو أنك لقيتهم قبل يومهم هذا لحسبتهم ممن قال الإمام فيهم حين تحدث عن خيار العباد :

« .. لولا الأجل الذى كتب لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب ، وخوفا من العقاب . عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم . فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون . وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون .. قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . . . أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا . . .

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين وحزما فى لين . وإيمانا فى يقين . وخشوعا فى عبادة وتحملا فى فاقة . وصبرا فى شدة . . يمسى وهمه الشـكر . ويصبح وهمه الذكر . . . لا يدخل فى الباطل . ولا يخرج من الحق .... . »

وقد كانوا حقا يتلون القرآن ، فهم حفظته وقراؤه وتهزهم معانيه هزا عنيفا فتخشع الجوارح وتدمع العيون . وصلوا نهارهم بليلهم ، تقربا إلى الله ، بالصلاة والقيام . وصرفوا وقتهم خشية من الله ، فى الدعاء والبكاء والسجود ، حتى بحت الأصوات ، وتقرحت الجفون ، واسودت الجباه ..

لـكنهم اليوم غيرهم بالأمس — أولئك الذين أقبلوا منهم على على عليهم الدروع

والأقنعة . فإن يكونوا قد بقيت بهم تلك الملائم الجسدية ، فقد غدت دخائلهم كأنما هم فرقة من أهل النفاق الذين وصفهم فقال :

« ... الضالون المضلون ! .. يتلونون ألوانا ، ويفتنون افتنانا ... يمشون الخفاء ، ويدبون الضراء ... قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء ... إن سألوا ألحفوا ، وإن عذلوا كشفوا ، وإن حكموا أسرفوا . قد أعدوا لكل حق باطلا ، ولكل قائم مائلا ... يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون .. » .

آلاف عديدة أتته منهم ، لم تغن عنهم قراءتهم ، ولا عبادتهم ، ولا شوقهم القديم للموت ابتغاء الثواب وخوف العقاب . وكانت الآفة التي نخرت في قلوبهم فأوهنتها هي نفس تقام — ذلك التعصب الديني الذي يضيق معه الأفق ، وتنحسر النظرة فلا تنفذ من الأمور إلى ما وراء سطحها المغلف بقشرة رقيقة من الدين ، لخفيت عندئذ عليهم قولته : « رب عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه ! .. »

آلاف عديدة من أولئك القراء أضلتهم النظرة الكليلة ، وآلاف أخرى من اليمانية رجال الأشعث المصدرين عن رأيه إذ هو شيخهم الآمر المطاع ، وآلاف ثالثة من أعراض الجيش الذين شاموا البقاء في دعوة معاوية ، قد أقبلوا جميعا على الإمام ، ليفرضوا مشيئتهم ، وينفذوا الرغبة التي أملاها عليهم الجسد المنهوك ، والجنان الخليع ، والقلب الواهن الذى لا يثبت على لأواء ...

وتقدم هذه الطائفة المتمردة جمهور من أصحاب الجباه السود — قوام الليل ، عباد النهار ! — على رأسهم مسعر بن فدكى ، وزيد بن حصين وعصابة غيرهم ممن غدوا بعد رءوس الخوارج وعلى وجوههم قنع الحديد ، وفى أيديهم السلاح ، وفى أحداقهم اللامعة بغضبهم تتواثب أبالسة الفتنة ، يصيحون :

« يا على ! .. » .

حق إمرة المؤمنين أبوها عليه ! ... وكيف يدعونه بها وقد صورت لهم أخيلتهم السقيمة أنه لا يستجيب لدعوة القرآن ؟ ... وأنى لنظرتهم الحسيرة أن تنفذ إلى غور الحقيقة بعلمهم وإنه لطلاء غطى منهم اللحى والجباه ولم يخالط القلوب ؟ ...

« .. أجب القوم إلى ما دعوك إليه ... » .

فرمقهم بعين محزونة . جمعته فيهم الأيام ! .. وهذا الأسى الذى يترقرق كالدمعة فى مآقيه كان لهم ، وعليهم ، فما نفعهم علمهم ، وما أغنت عنهم كثرة السجود ! ..

ونادوا يزجرون :

« أجب القوم إلى كتاب الله ، إذ دعيت إليه ، وإلا قتلناك ! .. »

فصاح بهم :

« ويحكم ! .. أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه ، وليس يحل لى ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله — »

فقطعوا قوله :

« فأجبهم ! .. »

« .. إنى إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ... »

هنا تردد صوت صائح الشام ، بين الصفين يتلو :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ... »

فكأنما الأشعث كان المعنى بالتلاوة ، فهتف بقومه :

« والله لا نأبى هذه أبدا .. »

وقال الإمام :

« لن نرضى أن نقاتل معك .. »

ودوى وعيد القراء ، من كل ناحية :

« يا على ... أجب ! . أجب ! .. »

عندئذ ألقى بآخر ما فى جعبته :

« .. قد أعلمتكم ! .. إنهم قد كادوكم . وإنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون . فامضوا على حقكم ، وخذوا فى قتال عدوكم .. »

فتصايح الجمع :

« أندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله ؟ . . »

وتحلقوا حلقة حوله ، يهزون فى وجهه سلاحهم ، ويتوعدونه بالقتل إن هو لم ينزل عن رأيه ، ويستجب لمشيئتهم المجنونة ولم يرضوا منه بأقل من أن يطفئ بنفسه بقية النار التى بقيت بعد مندلعة فى جانب من الساحة ، عند القبة الكبيرة البيضاء :

« ابعث إلى الأشتر ليأتيك ! . . »

كان الأشتر حينذاك قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله ، لا تثبت أمامه قدم ، ولا تلقاه مقاومة تعرقل اندفاعه ... النصر معه والخذلان حياله فى الموك أحراس عاهل الشام . وإن هى إلا شقة ضيقة يقطعها ثم يفتح الله . . .

لكن رسول على جاءه :

« ائت أمير المؤمنين . . . »

فعجب الأشتر :

« آتيه ؟ . . قل له ، ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى . . . إنى قد رجوت الله أن يفتح لى ، فلا تعجلنى ! . . »

غير أن هذا الرد الذى عاد به الرسول ، ودلائل النصر التى بدت لهم واضحة والرهج يعلو وصيحات الهزيمة تنفلت جزعة من أفواه أهل الشام ، لم ترد أولئك القراء المتنين عن غلوائهم ، ولا خففت من عصبيتهم لرأيهم المتهافت . إنما تركتهم أنكى عمى ، وأشد ضلالة . فإذا بهم يعدون طوقهم فيعصفون بالإمام فى تجبر وإعنات :

« ما نراك إلا أمرته بقتال القوم ! . . . »

« أرأيتمونى ساررت رسولى إليه ؟ أليس إنما كلمته على رءوسكم علانية ؟ . »

« فابعث إليه فليأتينك ، أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا عثمان ، أو لنسلمنك إلى عدوك ! . . »

ونظر الأشتر إلى الرسول وقد أتاه ثانية :

« أرفع هذه المصاحف ؟ »

« نعم » .

« أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافا وفرقة ... »

ولكنه لم يعد تمهل مليا كأنما نازعته نفسه إلى النصر الذى يفتح له ذراعيه . إنها لحظة العمر . فرصة الدهر كله قد أتته صاغرة بعد طول كفاح وجهد ومشقة . فما يدفعه الآن إلى إفلاتها من بين يديه ؟ . .

أحسبه حينذاك قد تفكر برهة يقلب الأمر . ثم يتفكر برهة فيؤثر البقاء بمكانه من الميدان . ثم يتفكر برهة فلا تخطىء النصر عينه وهو يشهد تصدع آخر الخطوط الشامية ، وتفرق الحماة عن قبة معاوية تفرق الصيد بعد رمية صياد ! . . لم يعد هناك شك فى الظفر . والوقت القصير الذى يقطعه فى العودة إلى على كفيل — لو ثبت بمكانه — أن يحسم الوقعة . . .

وسمع الرسول يلح :

« يا مالك . . إن الفتنة قد وقعت ! . . »

« ويحك ! . . ألا ترى إلى الفتح ؟ . . ألا ترى إلى ما يلقون ؟ . . ألا ترى إلى الذى يصنع الله لنا ؟ . . أينبغى أن ندع هذا وننصرف عنه ؟ . »

قال الرسول :

« أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذى هو فيه يفرج عنه ، ويسلم إلى عدوه ؟ . . »

فارتج كيانه ، وهتف وكأنه يئن حسرة :

« سبحان الله ! . . »

وثقل قلبه . . ودار على عقبيه ، ناكس الرأس ، غائم العين ، خافت النفس وهو يقتلع قدميه من الأرض ليعود . . .

٥

لم يكد الأشتر يقارب القوم حتى اندلعت فى كيانه نار غضبه فعاد للحياة بعد أن كان كالحطام .. ولم تكد عينه تقع منهم على اللحى المرسلة والجباه الخشنة حتى تقبضت كفه على سيفه ، وصرت أسنانه وهو يصيح :

« يا أهل الذل والوهن ! . . »

فلم يباله أحد منهم ، فحسبهم أن قد عاد ! ..

وراح يرميهم بما يسعفه به لسانه ، مرة ضراعة ، ومرة جدالا ، ومرة لعنة ! . كالمغرق بين اصطراع الأمواج يستسلم آونة ، ويضرب أخرى بيمين وشمال ، ويتعلق ثالثة بأى طافية على سطح اللجة ...

قال كأنه يتوسل منهم بأفهام تدرك ، وتستطيع أن تستكنه عواقب الأمور :

« أحين علوتم القوم ، فظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ؟ .. قد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه ... لا تجيبوهم ! .. »

ولكنهم قالوا :

« لا ! .. »

« أمهلونى فواقا — »

« لا ! .. »

« أمهلونى عدوة الفرس ، فإنى قد طمعت فى النصر »

« إذن ندخل معك فى خطيئتك ! .. »

كان فى رأيهم خطيئة أن يظلوا يقاتلون وفق ما تملى شريعة الحرب وقواعدها حتى ينتهى ذلك الكفاح نهايته الطبيعية بنصر فريق وتسليم فريق — كان خطيئة دينية ! .. فكأنما قد وكلوا وحدهم بما سنه الله فى كتابه عن هذا النزاع وأمثاله يتأولون عليه التأويل الذى تشتهيه أنفسهم ، ويخرجون به عما أراد له الله أن يسير فيه .

لقد أوشك أرامم تشبثوا بقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » ... أوشك أرامم تمسكوا بظاهر القول الإلهى دون لبه فتظاهروا بأن فى رفع أهل الشام المصاحف فيئا إلى الحق ، وعدولا عن البغى .

إنهم لاريب ضلوا السبيل ، واعتسفوا التأويل .. فالفىء رجوع . والرجوع يقضى إعادة الأمر إلى بدئه . والبدء فى هذه القضية الذى وقع بسببه النزاع المسلح بين الطائفتين هو إمامة على التى بغى عليها معاوية واستقبلها بعصيانه . فكان إذن حتما ، وفاقا لآيات الله ، أن يرجع العصاة عن عصيانهم ، ويقروا بخطئهم حين اقترفوه ، ثم ينظر من بعد فى الإصلاح بينهما وبين المبغى عليه .

لكنهم مع هذا أمعنوا فى البغى وأسرفوا فى التأويل وقفز بهم انهيار الروح المعنوية إلى نتيجة لا يقتضيها منطق الحرب ولا منطق السياسة ولا منطق الدين . وقد وضح من البدء هذا الخطأ الذى وقعوا فيه للإمام فجهد غاية الجهد ليجنبهم زلله ، مؤكدا لهم أن تنادى أهل الشام بالقرآن إن هو إلا تقنع بكتاب الله يحميهم السيوف والحتوف . ووضح لهم هم من بعد فقاموا ينقضونه ويدعون لنقضه ، ثم يغالون الغلو كله فيقرون على أنفسهم بالكفر يوم قبلوه . ووضح أيضا للأشتر وهو يحدثهم فشاء لو أمالهم عنه . . . قال يجادلهم وقد كاد الغيظ يخرج به عن طوقه :

« . . . حدثونى عنكم — وقد قتل أماثلكم وبقى أراذلكم ! — متى كنتم محقين ! . أحين كنتم تقاتلون أهل الشام فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون ، أم أنتم الآن مبطلون ؟ . » .

« الآن محقون » .

« فقتلاكم إذن ، الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيرا منكم ، فى النار ؟ . . »

فأمعنوا فى المكابرة :

« دعنا منك ! . . قاتلناهم فى الله ، وندع قتالهم فى الله ! . . » .

ولم تعد هناك جدوى وراء مناقشتهم وقد أصروا واستكبروا . ووقع بينهم وبينه تلاوم عنيف ، ثم ثار بهم يسبهم :

« خدعتم والله فانخدعتم ، يا أصحاب الجباه السود ! . . كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت !.. ألا قبحا ! . ما أنتم برائين بعدها عزا أبدا ! . » .

ونزا عليهم بسوطه ، ونزوا عليه بالسياط . وساد الهرج . وهمت فتنة جديدة أن تنشب لولا أن صاح بهم علي :

« كفوا ! . . »

وعندئذ اتجه الأشتر إليه :

« يا أمير المؤمنين . . . احمل الصف على الصف يصرع القوم . . . » .

فتصايحوا بأصوات محمومة ، اهتزت لها الأرض :

« قبل أمير المؤمنين الحكومة ! . . »

« لسنا نطيعك فاجتنبنا . . . »

« رضي أمير المؤمنين بحكم القرآن ! . . »

وانفلت الأشعث يخاطب الإمام بهدوء :

« . . ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن . . . »

فقلب عينا ساهمة ، من الأشتر ، إلى الأشعث ، إلى هذه الحلقات حوله من الحشود المتراكبة ككسف الظلمة ، الهادرة كموج الشلال . . .

قال له مرة بعض اليهود :

« ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه . . . »

فرد يجيبهم :

« إنما اختلفنا عنه لا فيه . ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . . . »

وقد وقع فعلا هذا الخلاف الذى فرق المسلمين أحزابا حول أمور لا تتصل بباب الدين ، ولا تمت إلى أصول العقيدة . ولكنه خلاف أوقع الفرقة فى الصفوف ، ورمى بينها بالبأس والشدة والتناحر وفى ذات يوم من صفين ، كشف الإمام لأصحابه عن هذه اللغزة المؤسفة ، حين قال :

« ... ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ... »

ويومها حزن عمار فقد رقت له هذه الكلمات عن العقبى المخبوءة ، وقال وهو أسيان :

« . قد أعلمكم أن هذه الأمة لن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم عليه آخرا . . »

واليوم يكشف الزمن عن خبيئته فالأمة لا تستقيم وقع بينها بأسها . مضى الباطل لغايته ، ووقف الحق حيران . حدث ما نم عنه قول على وما استشفه عمار . .

قضى الأمر ! . . .

الآن حلت العقبى التى لعلها عصفت حينا فى خيال الإمام وصحبه حينذاك ملتفين حوله التفاف الكتيبة بالعلم ، لا تدين به لياذ للستأمن بالحرم . الآن كأنما يرجع التاريخ أدراجه إلى سحرة الخلافة ، حين منعه قومه حقه ونازعوه المقام الذى كان أولاهم به بعد الرسول . الآن يفقد بين جمه اللجب نصرة الولى وولاء الناصر ، حتى لكأنه يعيد — هذه اللحظة — على الأسماع ما صكها من كلامه القديم :

« . . . فنظرت ، فإذا ليس لى رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتى . . . فأغضيت على القذى ، وجرعت ريقى على الشجى ، وصبرت من كظم الغيظ على أمر من العلقم . . . »

فماذا أبقت الدنيا ، وماذا لعلها ستبقى له ؟ . .

أن يصبر مغموما ، أو يموت متأسفا كما قال ! . . فمن أولئك الذين استصفاهم

لنفسه من ذويه لم يعدم فيهم على دورة الزمن من تفرقوا عنه : بعضهم لخوف ، وبعضهم من يأس ، وبعضهم إلى مال ...

لقد غدا كما بدأ ، يدور في محن البلوى . أسبابه مفلولة ، فبمن ؟ . . وسبله مقطوعة ، فإلى أين ؟ . . الناس حوله يدنون من منزلة الفتنة التي أنبأه نبأها رسول الله ذات يوم .

« سيفتنون بأموالهم ، ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون رحمته ، ويأمنون سطوته ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية .... »

وهو بينهم قائم على ما يمليه مقامه : يشير ويبصر ويحمل على الجادة ما أمكنه سلطانه . ولئن كان رجاله قد رضوا لأنفسهم الخروج عن حدود الرعية ، فقد بقي هو يلتزم حدود عمله ، ويعمل على نسق للمبادئ التي رسمها للإمامة ، فإنما « ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه : الإبلاغ في الموعظة ، والاجتهاد في النصيحة ، والإحياء للسنة ، وإقامة الحدود على مستحقيها ، وإصدار السهمان على أهلها . »

صدق فيهم الآن حديثه :

« . . أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي ! . »

وحق عليهم عجبه وإنكاره :

« أشهود كغياب ، وعبيد كأرباب ! . . »

* * *

ويعود الأشعث بن قيس يخاطبه ، ملاينا مداورا ، ليستل منه إقراره :

« يا أمير المؤمنين ... إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ، ونظرت ما الذي يسأل ... »

فهل لم يعلم السائل حقيقة الأمر قبل مشيه لهذا العاهل ؟ ... وفيم إذن سعيه ؟ . . وما هي جدوى استئذانه عليا في هذا اللقاء والناس جميعا يرددون : لمن المشيئة الآن ؟

يعلم الأشعث الجواب ! . . ويعلم أيضا لمن الكلمة ! . . يعلمه لأنه احتضن مادته بذرة صغيرة غرسها فى نفسه منذ استهواه إبان الوقعة حديث عتبة بن أبى سفيان عن السلام . ولأنه صاغ من بعد هيكله ، فتنة عمياء أضلت العقول والقلوب بالأهواء الساهية والشبهات الكاذبة . . ويعلم كذلك لمن غدت الكلمة ، فما كان مستطيعاً أن ينسى ما لفظه على لفظ الثمرة المرة عندما قال : « كنت أميرا ؛ فأصبحت مأموراً . . . » ولكنه ، مع ذلك ، يسأل ويستأذن ليبدو فى هيئة مأمور ! .

ويجيبه على ، على مضض ، وبغير مبالاة :

« ائته . . . إن شئت » .

٦

وهذه نهاية الأمر كله ! . .

هذه اللحظة التى أطلعتها صفين ، يوم الجمعة الثانية من صفر ، والجموع تتحلق حلقات ، والأسلحة تهتز متوعدة ، والأصوات تهدر مملية مشيئتها ، هى الخاتمة لإمرة الإمام .

ولم يكن يملك إلا أن ينزل على حكم القوم وهو كاره له ، برم به ، يراه يقودهم وإياه إلى فاجعة ، ولا يستطيع أن يصدهم عنه . كانوا شلالا يجرف الحصى والصخر لا طاقة لقدرة بمنع انحداره . وكان الأسى والأسف والغم هى كل ما تحس نفسه ويعتمل بباطنها ، ويفعل فيها فعل الشفار . . . ولو وسعه لثبت ، ولقاوم تمردهم ، ولكنهم حفروا الأرض تحت قدميه ، ثم دفعوه للهاوية .

لكم كان يود إذ ذاك أن يكرههم على الحق ، ويحملهم على الجد الذى تنكبوه ، لكنها أمنية كالحلم تنسخه اليقظة ! . . ولقد تبدت رغبته تلك فى صورة من لفظه ، رسمها من بعد منطقه ، ونقل لنا فيها ما كان إذ ذاك يعانيه :

« . . أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به ، حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتم تداركتكم ، لكانت الوثق . . . ولكن بمن ، وإلى أين ؟ . . » .

أجل ، بمن ، وإلى أين ؟ . . ما تداويه بهم وهم داؤه ؟ أين عتاده ، ما أعداده ، من أولياؤه وهم بلاؤه ؟ . .

ليوشك الأشتر أن يبرز لنا من خلال هذا التساؤل كأنه وحده الرجل الذى كان يملك تغيير هذه الخاتمة الحزينة . . . حين تأزمت الأمور ، يوم الخميس ، وكادت الدحرة تقع فى الجيوش العلوية ، وسعه أن ينهد ، فيجمع الفلول ، فيقاوم ، فيهاجم حتى يبلغ « شاطىء » الظفر . وحين شاعت دعوة التخاذل يوم الجمعة ووقعت الفتنة ، كان قد أخذ يمد دلوه إلى « النهر » . . ففيم صدره عن النصر إذ ذاك وهو عطشان ؟ . .

من العسير أن نؤاخذه ، ومن العسير أيضاً الاعتذار عنه . فلقد كان واحداً من بين قواده وجبت عليهم طاعة القائد العام ، الائتمار بأوامره ، والانتهاء عند نواهيه . وهو بهذا مشدود إلى الجيش كله ، ليس له أن يتحرك حسبما تمكنه قدرة كتيبته وهو مغفل طاقة غيرها من الكتائب والألوية والصفوف . وهو كذلك حلقة فى سلسلة الخطة العامة الموقعة قد يسبب انفصالها عن بقية الحلقات كارثة كتلك التى أصابت جيوش الإمام حين بدا لابن بديل أن ينحرف بجناحه إلى قلب العدو ويدع مركزه للرسوم .

ومع ذلك فقد رأينا الأشتر يتردد فى الاستجابة لعلى عندما دعاه إليه بإملاء مثيرى الفتنة . يتردد ، ولايلبث أن يأبى ترك مكانه والنصر بادى الإشراق ويقول للرسول : « ليس الساعة ! . . » ، ثم يتردد ثانية ، ويرد الدعوى مرة أخرى ، أو يحاول أن يردها وهو يصيح بوافد على عليه : « ويحك ! . . ألا ترى إلى الفتح ؟ . . » ، ثم لا يدع ما كان من تردده فى قبول هذه المسالمة الخداعة التى أراده القوم عليها كما أكرهوا عليها الإمام ، ويظل مؤمنا بأن نصره رهن

دقائق لا تزال يضرع لهم أن يبيحوه إياها « أمهلونى فواقا ! . . أمهلونى عدوة الفرس ! . . . »

فى تقديره — الذى لا نراه جانب حقيقة الحال — كانت بينه وبين الظفر خطوات . عدوة جواده . ما دون سويعة من زمان . . كانت قدمه على « الشاطىء » . وكانت يده بدلوه تتدلى فى « النهر » .

لكنه صدر وهو عطشان ! . . . ترك الدلو فارغا على الشاطىء وعاد ! . .

لقد كان خوفه أن يقتال « دعاة السلام » عليا ، أو أن يسلموه ، لو لم يأتمر بأمره فيرجع عن القتال ، هو كل ما قد دفعه إلى الرجوع . تمثلت فى وهمه فاجعة تطلع الإمام راسفا فى القيد وهو يساق إلى عدوه أو غارقا فى دمه وهو صريع بأسلحة تلكم الطائفة العاصية المخدوعة من رجاله : أصحاب الجباه السود . . . الخوف وحده من هذه العقبى هو الذى رده من النصر ، وقضى عليه أن يكتب بعودته آخر كلمة فى تاريخ الإمرة الفعلية لابن عم الرســـول . . . أفلم يجمح به خياله وهو يطلع عليه بهذه الخاتمة فى مثل صورتها السوداء ؟ . .

بل قد جمح لا ريب ، وساطته من وفاء الرجل لعلى ، ومن حبه إياه سياط ! ، . فما أحسب أمرأ فى الجيش تنادى بالموادعة ؟ وغضب للسلام ، كان يجرؤ فى تلك اللحظة على لمس أمير المؤمنين بسن حربته لو أبى الأشتر العودة وبقى حيث كان يواصل القتال . كانت نفوسهم — وإن تمردوا — لا تزال تتأرجح بهم بين إيمان مطلق تتأكد به « شرعية » الدعوة الأموية للاحتكام إلى القرآن ، وبين إيمان مقلقل بها ، سطحى لم يتعمق الشغاف ، وكانوا أيضا قريبى عهد بفتنتهم ، التى لم يمض على مولدها سوى سويعات ، فليس من طبيعة البشر بحال أن تذهلهم عن مواضيهم الطويلة ، وتنسخ — بهذه السرعة وهذا اليسر — عواطفهم الموالية ، الراسبة فى الأعماق ، وإن منهم لكثرة تعرف للإمام قدره ، وقدمه فى الإسلام ، ومكانه من الرسول ، وجهاده القديم ، وتسكن له من مودتها وإكبارها ما لا يجتثه انحرافها عن أمره ، وميلها عن رأيه فى دعوة التحكيم .

هذه عوامل أحسبها كفيلة بأن تمنع من القراء دماءه وهم بعد فى مستهل اختلافهم عليه ، وفى أول شوطهم من طريق الفتنة . وهى أيضا أكفل بدعوى تسليمه إلى يدى عدوه حتى لتجعلها أدنى إلى التشدق باللفظ الأجوف الطنان منها إلى العزم الراسخ الذى يتبعه التحقيق . فما معاوية فى رأيهم ؟ . وما قدره ومزاياه ؟ . وما جريرة الإمام — بعد هذا وذاك — إن دعا إليه الأشتر وشاء الأشتر أن يعصاه ويستمر فى القتال ؟ . . .

إنما كان قولهم وعيداً تلفظه ألسنتهم ولا تترجمه أسنتهم ! . . فطالما توعدوه ! . . مرة وهم يدعونه إلى قبول الموادعة . وثانية وهم يطلبون إليه رد الأشتر لتسكن ثائرة الحرب . وثالثة وهم يعاودون طلبهم وقد رأوا الأشتر يؤثر البقاء والقتال على العدول والرجوع . ولقد أبى هو أن يخضع لخدعة السلم فلم ينالوه بعضرة . وأبى الأشتر أن يلبى أولى دعوتيه له فلم ينفذوا ما رددوه من وعيد . فهلا كان أولى بالأشتر إذن — حين بلغته الدعوة الثانية — أن يصم عن الدعوة أذنه ، ويصبر ، ثم يسدد فرسه إلى النصر فتكون عدوة إلى أمام لا إلى وراء ! . .

كان هذا أولى به . وكان أيضا يسعه ولا يعضله ... لكنه حين قدر النصر أصاب ، وحين قدر « الفاجعة » خاب ؟ .

فات الأشتر التوفيق . غلبته عاطفته على حسابه ، فطفا خوفه ، وغاص إدراكه فى القاع ! . . وليس يشفع له أنه كان قائدا من قواد يجب ائتماره بالقائد العام . ولا أن كتيبته قطعة من الجيش لا تملك العمل وفق قدرتها وحدها . ولا أن سيره فى القتال حلقة من سلسلة خطة عامة .. لا يشفع له هذا كله . لا يبرر تراجعه . لا يكاد يعدل الاعتذار عنه ! . . فما كان ثمة تلك اللحظة ، وهو يبرح موقفه ليعود ، « قائد عام » . ولا « جيش » . ولا « خطة حربية عامة » . . .

إنما مضى الأمر ، بعد ذيوع دعوة الموادعة . فوضى . . . هنا فرقة تحارب ، وهنا أيضا فرق ألقت السلاح . فى هذه الكتيبة رجل يقاتل وفيها أيضا آخر يهادن . . . ولم يعد الحكم للقواعد والنظم التى تسود الجيوش فى الأحوال

العادية ، وتسوس أجنادها ، بل غدا الحكم للطبائع الملهمة ، والبداءة اللماحة التي يسعها أن ترى وتزن وتقيس — في مثل طرفة العين — دقائق الموقف ، ثم تنفذ من خلال عتمتها إلى العقبى المأمولة ، ثم تعمل على إدراك غايتها وهى تستعين القوى الموالية ، وتستغل الظروف المحيطة ، وفق وحيها وحده لا بخطة سالفة ، ولا بأمر مغصوب ! ..

وكانت ظروف الأشتر مواتية .

وكانت القوات الزاحفة معه موالية له

ولكن بديهته لم تسعفه إبان المحنة ، ولم تقفز به إلى ما كان ينتظر من محارب جرىء مثله أن يبلغه لو أنه أحسن التقدير . فما عدا ذلك الوعيد الذى اندلع فى صفوف على من بين جحفل القراء أن كان ضجة تلقفتها طبيعة الجماعات فأعدت ألسنة القوم بعدواها حتى راحت ترددها كالببغاوات ! . وما كان تمردهم — فى ساعاته الأولى — هيكلا راسخ الأسس ثابت القواعد بقدر ما كان مثل قلعة من ورق وطلاء . الهيئة تهول والقلب خواء ! .. ولو قد كان ابن بديل ، فى بدء الوقعة ، أوتى « تريث » الأشتر والتزامه الخطط والأوامر لذهب معاوية وجنوده منذ يومين فى الغابرين ، ولو قد كانت للأشتر اليوم « روح المغامرة » التى كانت لابن بديل لنال من عدوه الوطر فنزل « الشاطئ » وبلغ « النهر » وأدلى دلوه ثم عاد وهو ريان ! ..

كانت الأمور فوضى — كالجواد الجموح — تنتظر صاحب حاسة ملهمة مبصرة ، ونفس مغامرة ، ليقفز فيأخذ اللجام ! . كان القائد العام «مقودا» .. والخطة الحربية « هرجا » .. والجيش « زحاما » بغير نظام .. والموقف ينتظر الحسم . فماذا على الأشتر — ومعه فرقة طائعة ، وأمامه الفرصة التى لا تتكرر — لو أنه أسرع فغامر ؟ .. إنها عندئذ للمغامرة التى تضع اللجام بيمينه ، وتستوى به على الجواد الجموح ! . . وإنها إذن لاندفاعة فى القتال — فى عمر فواق كما قد قال — تبلغه الفسطاط الأبيض ! . . وإنه من بعد للنصر الحاسم القاطع الذى يجنيه قبل أن يأتيه الرسول « ثالثة » والقراء لا يزالون — على رأيهم — يتشدقون بالوعيد !

هذا النصر الذي كان يمكن قطفه ، كان حريا بأن يشغل الأذهان عن كل ما عداه ، ويحرك الألسنة بذكره ، ويأتي على تلك القلعة من الورق والطلاء التي تهول وهي خواء ! . . فما أن يذيع حتى يتلقفه الناس — طائعهم وعاصيهم من جند علي — بالعيون والآذان ، ثم يسري على شفاههم نشيدا وأهزوجة . وكأني بهم إذ يكون ، قد راحة الفرحة في قلوبهم تهتف : « النصر ! » بعد أن كان يأسهم يهتف : « السلام ! » فالنصر عندئذ كيان « يقيني » يشهدونه والسلام كيان « ظني » كانوا يأملون أن يشهدوه وراء أستار دعوة التحكيم . . وكأني من بعد بالقراء : أصحاب الجباه السود قد انتكسوا — كانتكاسهم بعد سويعات — وعاد إليهم صوابهم الذي أذهبته خدعة ابن العاص . وكيف لا والسلام الذي تمردوا له ، ودعوه إليه ، يقبل عليهم من أوسع السبل ومعه الظفر ؟ . .

غير أنه تقدير . .

تقدر . . ويقدر الأشتر . . والله قدر ! فما كان آلم للنفس أن يكون من قدر هذا الرجل الذي أحب عليا كما لم يحبه أحد من صحبه ، ووقف دائما إلى جواره يشد أزره في المحن وأفنى عمره كله في الولاء له ، أن يكتب بعودته تلك — يوم الجمعة الثانية من صفر ، بناحية بصفين — آخر سطر في سفر الإمرة الحقيقية للإمام ، وما انقضى على فاتحته سوى عام ، وشهر ، وأيام . . .

٧

ما كان أسرع انتقال الأمر من يد إلى أخرى ذلك النهار !. من يد علي وقد تمرد عليه رجاله وخالفوه . ومن يد الأشتر وقد ترك موقفه في الميدان وعاد . . أفلت من الصاحبين ، فلما تلقفه الثالث : الأشعث بن قيس تشبث به ، وعض عليه بالسن والبنان .

وأصبح الأشعث سيد الموقف . برأبه تهافت الخارجون على النظام العام تحت ستر السلام وبدعوته المثبطة لهجت السنتهم ، ثم اهتزت ألسنتهم لتترجم حديثهم إلى أفعاله ، وعندما غدا « التحكيم » رهنا بكلمة ينطقها علي إذ هو

— في حساب الظاهر ! — أمير المؤمنين وصاحب الرأي الأخير الذي تبرم به الأمور ، نطقوها هم بغير تردد كأنما أباحهم الكلام عنه ، ونحلهم لسانه ومكانه :

« قد رضي أمير المؤمنين . . . » .

وبهذا استقر للأشعث الأمر ، وسيطر وحده على مصير الأحداث .

ومضى الرجل المزهو إلى ابن أبي سفيان ، على وجهه هيئة نائب عن الأعداء وفي جوفه ضمير حليف ! .

وقال يسأل حيث لا موجب لسؤال :

« يا معاوية . . . لأي شيء رفعتم هذه المصاحف ؟ . . »

« انرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه . . . » .

« هذا هو الحق ! . . »

فأي حق إلا أن يكون ذلك الذي أراد هو أن يكون ؟ . ذلك الذي غرسه ذات يوم بقلبه المدخول بذرة خبيثة عتبة بن سفيان حين دعاه أثناء القتال بصفين وقال له : « لو كان معاوية لاقيا رجلا غير علي لقيك إنك رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن . . » .

الآن قد طابت نفسه المنهومة إلى الاستعلاء . ارتوى غروره وشبع حق التخمة . . . فلم يعد فرضا ما حدثه به عتبة ، بل حقيقة واقعة تلمسها الأصابع وتراها الأعين وتسمعها الآذان . صار وحده الرأس في حزب علي ، وصاحب الرأي النافذ المطاع من دون الخاصة والكافة . يعلى فيستجيب الناس . ويشير فيحرك عواطفهم في جنوبهم ، وأفكارهم في عقولهم ، وأسلحتهم في أيديهم فإذا هو يسوقهم أمامه كالقطيع ؟ . . آن أن يتأخر علي ليتقدم هو — الأشعث بن قيس عرف النار ! — وعلى علي بعد هذا ، الرضوخ له ، يأتمر حين يأمره ، وينتهي حيث ينهاه ! . .

وقال له معاوية يشرح خطته :

« . فابعثوا منكم رجلا ترضون به ، ونبعث رجلا . ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه . ثم نتبع ما اتفقا عليه . . . »

وبمثل هذا المعنى جرت رسالة من العاهل إلى الإمام :

« . . . قد قتل فيما بيننا بشر كثير وأنا أتخوف أن يكون ما بقى أشد مما مضى . . . إنا سوف نسأل عن ذلك الموطن ولا يحاسب به غيرى وغيرك ، فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصلاح الأمة ، وحقن للدماء ، وألفة الدين ، وذهاب الضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا وبينك حكمان رضيان ، أحدهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا ، فإنه خير لى ولك ... ... » .

وانطلقت الفتنة بعض شوطها فرضى الناس بما جاء به الأشعث ، وما أجمله كتاب معاوية . وتلاقى فريق من قراء الشام وقراء العراق يمهدون بحديثهم للتحكيم وينظرون فى الغاية التى هدفت إليها دعوته، وفى الوسيلة التى تبلغهم نهاية الشوط .

رضوا والإمام ساكت ، وقضوا والإمام مغلوب . فما عاد قيادهم فى يمينه ، بل قياده هو فى أيمانهم يتجاذبونه كيفما حركتهم الأهواء . لكن اجتماعهم على الدعوة الخداعة ، وإصرارهم على الاستجابة لها ، وإنفاذ كل ما يحقق لهم السلم وإن على حساب نصرهم ، تهره على الكتابة لمعاوية : يحذر ويبصر ويوافق فى آن :

« . . إن البغى والزور يذيعان بالمرء فى دينه ودنياه .. فاحذر الدنيا فإنه لا فرح فى شىء وصلت إليه منها . ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته وقد رام أقوام أمراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكذبهم ، ومتعهم قليلا ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ ...

إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ، ولست من أهله ، ولست حكمه تريد . وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ... »

كان التحذير هو كل ما بقى له ، فلعله أن يرشد الغوى ويهدى الضال . وكان موقنا بأن معاوية غير مختار حكما عن أهل الشام إلا عمرو بن العاص فلم يرد أن يدع هذه الفرصة دون أن يحاول استمالة هذا الداهية إلى الحق وليه عن مزالق الباطل وحمأة الهوى وإن علم أن محاولاته هذه هباء وقبض الريح ! . ولكنه مع ذلك كتب يعظه ، ويحذره الزيغ والدنيا وسطوات الله .

« . . إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولم يصب صاحبها منها شيئا إلا فتحت له حرصا يزيده فيها رغبة . ولن يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه . . . فلا تحبط أجرك أبا عبد الله . . »

وكتب أيضاً :

« . إن الذى أعجبك من الدنيا مما نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها منقلب عنك ، ومفارق لك ، فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غرارة . ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقى ، وانتفعت بما وعظت به ... »

لكن عمرا كان صاحب دنيا ، وثق بها ، وسعى إليها ، ولم يزل يسير فى ركابها حتى أوهنه السير وقد فرغ عمره ودنا قبره . وعندئذ تبين أن نصيبه من دنياه غير مغنيه عن آخرته . فاستصغر جناه واستعظم جنايته ...

كان ينظر . أخريات أيامه إلى ماله ويقول :

« من يأخذ هذه بأوزارها ... »

وكان يحس الندم فينزع إلى التوبة التى عساها تخفف عنه عند ربه ، فيدعو:

«اللهم إنك آتيت عمراً مالافإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وإنك آتيت عمراً ولدا فإن كان أحب إليك أن تثكل عمرا ولده ولا تعذبه بالنار فأثكله ولده . وإنك آتيت عمرا سلطانا فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه ... »

وحين دنا أجله بعد أعوام ، وحوم الموت عليه ، وعاده ابن عباس يسأله حاله :

« كيف أصبحت ، أبا عبد الله ؟ .. »

قال :

« أصبحت وقد أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدت كثيرا . فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت . ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبت . ولو كان ينجينى أن أهرب لهربت ... فعظنى بموعظة أنتفع بها يا ابن أخى .. »

فرد زائره :

« هيهات ، أبا عبد الله ! ... »

وعندئذ رفع إلى السماء وجها غشاه يأسه ، ودعا الله :

« اللهم إن ابن عباس يقنطنى من رحمتك ، فخذ منى حق ترضى ؟ . . »

غير أنها دعوات من ضاق جهده ، وفتر أيده ، وأعجزته الحيلة ، وتقطعت به كل وسيلة عن طلب دنياه وتلمس المزيد فى الحياة . . . ولو قد كان يحسب فى هذه الآونة أن العمر موصول ، والبقاء مأمول ، لرجا أن ينال من الدنيا فوق الذى نال ، ولأبطره الرجا عن الدعاء ! . . . فأما وقد بلغ حافة اليأس من العاجلة الزائلة فلا يأس إذن من رحمة الله ! . .

وكذلك أفلحت حيلة معاوية فى خدع الناس . واستغلقت نفس عمرو عن الرشاد . وبلغ الأشعث بن قيس بعض ماراودته عليه نفسه من سنين حين ارتد عن الإسلام ليشترى بالردة ملك كندة ، ويعلو بعرشه المرتقب على البلاد والعباد علوا يغذى صلفه ويشبع غروره . فما هو أن اتى الرجل معاوية ، وأحس من نفسه أنها أصبحت محور الرحى للحوادث الجارية ، حتى يروج لقضية الحكمين وهو يحرص الحرص كله على أن يظل الأمر دائما فى يمينه ، لا يفلته . وأن يبقى الرأى لسانه لايبرم بمنطق سواه وهل ثمة امرؤ فى أصحاب الإمام يستطيع الآن أن يرد على الرجل رأيا يراه وإنه فى عيون العامة لصاحبها ، والبطل الشعبى الذى دعا وروج حتى نجحت دعواه .

لقد كان واضحا من بدء الفتنة أن معاوية لن يعدل بعمرو بن العاص حكما له ، وأن أهل الشام لن يخالفوا عن اختياره ، فهم دائما أسرع إلى طاعته وأسبق إلى الاستجابة إليه من نفسه وإن دعاهم لباطل وهم كما قال فيهم عمرو الذى ذاق حلوهم ومرهم : « أطوع الناس لمخلوق ، وأعصاهم للخالق ! » . . وكان واضحا أيضا أن أهل العراق سيمضون على مزلقهم فلاخيرة لهم غير الأشعث إذا شاء ، أو من يرى لهم ترشيحه ، إن أبى هو أن يكون حكمهم المختار . فهم قد ساندوا رأيه ، واجتمعوا على إنفاذه ، وغرهم منه أن أتاهم من مأمنهم فكانت دعوته « كتاب الله » وإنهم لقوم تدارسوا الدين وقرأوا القرآن . وهم على قولة

ابن العاص أيضا — الذى خبر أمرهم ، وتكشف له بالنظرة المصيبة باطنهم من خلال ظاهرهم ، وعرف ما سيكون منهم بما قد كان : « أطلب الناس للعلم وأبعدهم عنه ! » . .

واختار معاوية ، فأمن رجاله على اختياره . .

وحاول على أن يختار فحيل بينه وبين الاختيار . . وهل كان هناك من جدوى لمحاولته وقد ابتزه القوم أمره ، وغدا كل ما يربطهم به خيط كالشعرة هو لفظة « الإمرة » — إن شاءوا مدوه ، أو شاءوا قطعوه ؟ . .

٨

قالت عصابة من قراء أهل العراق :
« قد اخترنا أبا موسى الأشعرى ... »
الأشـــعرى ؟ ...

وعجب على ، وهل نسى القوم موقف أبى موسى منه قبيل الجمل ، وتثبيطه الناس عنه فى الكوفة كأنه عدو وليس بولى ؟ . . كيف يستطيع امرؤ له قلب هذا الرجل أن يمثل الإمام ، وينقل إلى منافسيه وجهة نظره فى الخلاف بأمانة ، ويقوم بالدفاع عنها وما نراه كان مؤمنا بها فى يوم من الأيام ؟ . .

لو تعقل القوم لحضرتهم لحظتهم هذه كلمات الإمام التى أرسلها للأشعرى وهو عامل من قبله على الكوفة ، يحذره تمرده عليه ، وينذره مغبة تخذيل أنصاره عنه :

« بلغنى عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولى عليك فارفع ذيلك واشدد مئزرك ، واخرج من جحرك ، واندب من معك فإن حققت فانفذ ، وإن تفشلت فابعد ... وايم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخاثرك ، وذائبك بجامدك ، وحتى تعجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك كحذرك من خلفك ... ... » .

لـكن العامل المتمرد لم يرفع حينذاك ذيله ، ولم يشدد مئزره ، ولم يخرج ملبيا دعوة أميره للجهاد حتى أعجل عن قعدته تلك ، ودخل الأشتر الـكوفة وافداً من لدن على فأثار أهلها عاملهم الذى هرب ، ثم اعتزل لا يدلى فى نصرة أمير المؤمنين ولو بكلمة ! . .

فـكيف اليوم يختاره الناس حكما يمثل الإمام ؟ .

من وراء هـــذا الاختيار الأشعث بن قيس — لا ريب . فهذه إحدى الحلقات من سلسلة مؤامرته الطويلة التى بدأت يوم استماله عتبة بن أبى سفيان إلى اعتناق فكرة السلم بالملق والمداهنة والتعظيم . ثم امتدت حين وقف ليلة الهرير يحذر جنود العراق الفناء إن هم استمروا فى الحرب . ثم اتصلت بتهافته على دعوة القرآن التى ختل بها معاوية أعداءه عن النصر . ثم ارتبطت بحلقة جديدة وهو يبتز عليا سلطانه الفعلى وقد روج بين أنصاره للدعوة المخذلة ثم وقف بعدها يظاهرهم حتى هزوا سيوفهم توعداً فى وجه إمامهم ليرضخ أو يقتلوه . وها هو الآن وقد بلغ أوج نفوذه الذى ترتضيه نفسه الـكلفة بالاستعلاء ، وباتت كلمته العليا ، يبخل أيضاً على أمير المؤمنين بالحق الطبيعى الذى يستطيع أصغر أجناده ممارسته ، ألا وهو حقه فى اختيار من يمثله . . .

وقال على وعجبه لا يغيض :

« إنى لا أرضى بأبى موسى ، ولا أرى أن أوليه . . » .

فإذا العصابة تنبرى له معارضة ، على رأسها الأشعث بن قيس ، وزيد ابن حصين ، وفريق من أشياخ القراء الذين أمعنوا من بعد فى عداء الإمام حتى تقدموا يقاتلونه :

« إنا لا نرضى إلا به ! . . » .

فما أقرب قاع الأنفس البشرية لا تكاد المحن تحرك ماءها الضحل حتى ينكشف ما جهدت لتخفيه فى الأغوار ! . . وما كان أشد عبث الأهواء بضمائر الناس ! بالأمس القريب ، وقد دعاه على ليلحق به ليطفىء معه فتنة البصرة التى شبها عليه أصحاب الجمل ، تردد الأشعث ، وخشى وهو الـكلف بالسلطان والنفوذ ،

ألا يجد لنفسه مكانا مرموقا فى دولة الإمام ، وأن يقصيه عن عمله بأذربيجان كما أقصى غيره من ولاة عثمان ، فراودته نفسه على التماس دنيا معاوية ، وقال لخاصته :

« إن كتاب على قد أوحشنى . وهو آخذ بمال أذربيجان . وأنا لاحق بمعاوية . . . »

فلولا أن ثبته صحبه ، وخوفوه أن يصبح « ذيلا » لأهل الشام هو الذى يطمح إلى مكانة « الرءوس » لفر إذ ذاك إلى مغانم ابن أبى سفيان . .

ثما الذى يربطه اليوم بالإمام وقد غدا وحده « الرأس » الذى تنتهى إليه طاعة بقية الرءوس ؟ . .

وبالأمس القريب أيضا كان زيد بن حصين يشتمل حمية ، ويتحرق حماسة إلى مقاتلة معاوية دون أن يسمع منه أو يصل جوابه على دعوة الإمام بالتزام الجماعة فوقف يصغى إلى مقالة عدى بن حاتم بالتريث وهو برم ، ضيق النفس ، مغيظ . . . يقول عدى :

« يا أمير المؤمنين . . . إن رأيت أن تستأنى هؤلاء القوم وتستديمهم حتى تأتيهم كتبك ، ويقدم عليهم رسلك فعلت . فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا ، والعافية أوسع لنا ولهم . وإن يتمادوا فى الشقاق ولا ينزعوا عن الغى فسر إليهم وقد قدمنا لهم العذر . . . »

فيندفع زيد يسفه الرأى :

« . . . أما والله لئن كنا فى شك من قتال من خالفنا لا يصلح لنا النية فى قتالهم حتى نستديمهم ونستأنيهم . ما الأعمال إلا فى تباب !... ولا السعى إلا فى ضلال ! . . . إنا والله ما ارتبنا طرفة عين فيمن يبتغون دمه ، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم ، القليل فى الإسلام حظهم ، أعوان الظلم ، ومسددى أساس الجور والعدوان ؟ . . »

وعندما يحاول بعض أصحابه أن يحد من غلوائه :

« أكلام سيدنا عدى بن حاتم تهجن ؟ . . » .

يسارع بالرد عليه :

« ما أنتم بأعرف بحق عدى منى ، ولكنى لا أدع القول بالحق وإن سخط الناس ! . . » .

أما اليوم فهو غيره بالأمس ، وما كان حقاً أبلج لا يداهن الناس فيه ، ويجبهم به وإن أسخطهم ، تنحرف نفسه فيراه الباطل الذى لا باطل سواه ! . .

ويحاول على ، بكل حجة ممكنة . حمل هذه العصابة الغالية فى معارضته ، على التزحزح عن رأيها ، الذى لا يستند إلى منطق ، ولا إلى دعامة من ماضى مرشحها الأشعرى ، ولا إلى ضرورة تقضيها طبيعة الحوادث الجارية :

« إنه ليس لى برضا ... قد فارقنى ، وخذل الناس عنى ، ثم هرب حتى أمنته ... ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك . . » .

فكأنما قد ختم على قلوبهم الشيطان فآثروا العنف وإن أودى بهم إلى خسران كل ما قاموا فيه . وما جاهدوا من أجله وإن قضى أيضا القضاء المبرم على أميرهم الذى كانوا يرونه إلى الأمس فقط ، المأمون على الدنيا والدين ...

يثورون به وقد عدموا مجرد القدرة على تخير اللفظ الذى يؤدى ولا يسىء :

« والله ما نبالى أكنت أنت أو ابن عباس ! . . لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر .. » .

بهذه الخشونة وهذه الجلافة واجهوه . ومعهما أيضا بالرأى التسكنى المقلوب الذى يصيب قضيتهم فى مقتل يستعصى على وسائل العلاج والمداواة ، ويهدمها من قواعدها هدما ينقض فيها كل جدار ، وكل حجر ، وكل حصاة !

فهل كان عمرو بن العاص رجلا هو من معاوية ومن على سواء ! . .

أم هو العناد والعنت وعمى القلوب والعقول ...

لمن شاء أن يعجب فليعجب لهذه الطائفة كيف تحرم على أميرها ما تحله لعدوه ، فتأخذ عليا بوجوب اختيار حكم له « محايد » ثم لا تدع له حرية الاختيار ، بل تملى عليه رجلا هو أدنى إلى عدائه ، أو هو أدنى إلى خذلانه وفى ماضيه

ما ينضح بهذا الخذلان ، بينا قد أباحت معاوية اختيار حكم أحرص منه على مطامعه ، وأكثر الناس انغماسا فى شأنه إلى أذنيه ! . .

ولمن شاء أن يعجب فليعجب أيضا لهذا الأشعث بن قيس — الذى دس وتآمر وأمر بالرأى السفيه الخبيط يضعه له الشغب والسلاح موضع النفاذ — كيف لا تبقى له بقية من حياء تمنعه أن يلحق جريرة تدبيره بالإمام ! . . . فلقد وقف على ذات يوم ، بعد هذه المؤامرة وعقب ارتداده عن صفين ، يخطب الناس فى شأن التحكيم ، فاذا رجل من القوم يسأله :

« نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها ، فلم ندر أى الأمرين أرشد . . . »

فأرسل الإمام عينا ترمق سائله ، وأرسل أخرى اخترقت الأشعث ، وصفق بإحدى يديه على الأخرى تأسفا وهو يقول :

« هذا جزاء من ترك العقدة ! . »

فإذا الأشعث قد وجد فى نفسه الجرأة على وأد الحياء وادعاء الغباء ، وآثر أن يبدو أمام الناس كأنما الإمام لا يعنيه بقوله ، ولا يلقى عليه وعلى حزبه المتمرد تبعة هذه النكسة ، فقال فى خيلاء :

« يا أمير المؤمنين . . هذه عليك لا لك . . »

وعندئذ هاجت غضبة الحليم فى صدر على ، فثار به :

« ما يدريك ما على مما لى ؟ ! — عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ! . . حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر . . والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك . وإن امرأ دل على قومه السيف ، وساق إليهم الحتف لحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد ! . . »

ولم يكن الإمام ليعنف كل هذا العنف بالرجل إلا وقد أيأسه أمره ، وأعضلت به مشاقته ومشاقة قومه اليمانية الذين تابعوه فأفسدوا النصر فى الحرب ، والأمان فى السلم سواء بسواء . وبهم قامت من بعد عمد الملك الأموى حتى ثله السجم بعد سنين طويلة وأقاموا على أنقاضه خلافة العباسيين . فليس إذن يستغرب أن تخلى سماحة الإمام المكان لمثل هذه الغضبة الفائرة وهو يلطخ الرجل وقومه بأسود

ما نضح عنه تاريخه ، وبأقذع ما جرت عنهم الأحاديث . وقديما وصف خالد ابن صفوان — حكيم العرب الذى ذكرته فى أنبيائها — أهل اليمن فقال عنهم :

« ليس فيهم إلا حائك برد ، أو دابغ جلد ، أو سائس قرد ! . . ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم فأرة ، ودل عليهم هدهد ! . . »

وأحدث من هذا فى حساب التاريخ ردة الأشعث بعد إسلامه طمعا فى الملك الذى عدمته كندة . فقد ارتد بنو وليعة بعد وفاة الرسول ، فلما قاتلهم زياد بن لبيد الأنصارى وعضتهم سيوفه ذهبوا إلى الأشعث يستنصرون به . . .

وقال لهم وقد وجدها فرصة سانحة لتحقيق حلمه فى عرش باذخ يعيد عرش كندة القديم إلى الحياة .

« لا أنصركم حتى تملكونى . . . »

فارتضوا شرطه . وصبأ عن الإسلام . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان . فلما أن حسب سلطانه الجديد مانعه ، وخرج فيهم يقاتل المسلمين ، لم يلبث سوى قليل ثم تبدد غروره ، وتهاوى كبره وهو يرى قوات زياد تضيق عليه الخناق حتى تحصره فى حصن لجأ ورجاله إليه . . وعندئذ تدبر أمره فآثر أن يشترى حياته بالغدر وإذا هو يستأمن للمسلمين فى غفلة من قومه ، على نفسه وعلى عشرة من أهل بيته ، ثم يفتح الحصن ، ويبيح « أعداءه » دماء رعاياه !

كبا به مرة طموحه إلى السلطان على حساب الدين ، فما له اليوم لا يحاول ممارسة نوع شبيه على حساب على ؟ . . لا تلوم ولا حريجة ، فطبعه الغادر بهذا كفيل ! . .

٩

وقف الإمام فى وجه السيل . . . ليست هذه بوقفته الأخيرة فلسوف يقف لسيول وسيول . إن محنة صفين قد فتحت ثغرة فى هيبته التى كانت تؤلف سدا هائلا يقوم بينه وبين الناس ، أخذت تتدفق من خلالها المشاقة والاجتراء والعصيان ، يوما يوما ، إلى آخر خلافته . . .

ولكنه لم ين عن بذل النصح ، ومحاولة إعادة العقول إلى الرءوس التى ملأتها الأوهام فلم تعد تدرك ولا تعقل . وهو الآن يحاول أن يخرج بالخلاف بينه وبين الداعين إلى تحكيم الأشعرى إلى ميدان أوسع ، يطل عليه ملأ الناس من رجاله ، قادة وجنودا ، أشرافا وحثالة ، ليغدو قضية عامة ، وليؤدى ما عليه من إعذار أمام الجميع . . .

وقال يخاطب الجموع وهو يبسط القضية التى بينه وبين مخالفيه الذين أبوا إلا أن يفرضوا عليه حكما بعينه يتحدث بلسانه ، وحرموه بهذا أحد حقوقه الأولية كفرد عادى ، فضلا عنه إماما له نفوذ وسلطان :

« . . . إن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما تكرهون وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول : (إنها فتنة ، فقطعوا أوتاركم ، وشيموا سيوفكم) . . . فإن كان صادقا فقد أخطأ بمسيره غير مستكره . وإن كان كاذبا فقد لزمته التهمة » . . .

وقد علم السامعون لا ريب هذا التصرف الذى أتاه الأشعرى وهو عامل له على البصرة ، وما انطوى عليه من اجتراء على الأمير الشرعى للدولة لم يبلغ فحسب حد التقاعد عن نصرته بل مبلغ تخذيل الناس عنه وإنه لجريرة تقارب الخيانة . . . ومع ذلك ، فماذا كان رأيهم فى اختياره ليكون نائبا عن إمامهم عند الأعداء ؟ . .

لكأنى بتذكرة على إذ ذاك ذهبت صيحة فى مقبرة ، لا تملأ أذنا ولا تحرك جارحة ؟ . . فقد وقف الجمع يشهد ولا يرشد ، ويبصر ولا يتبصر ، وحتى أولئك القادة الذين كانوا من قبل يملأون العيون والخواطر ، ويكتبون مع على سطور التاريخ ،

قد ألقوا الآن — فيا يبدو — الأقلام ، وسكبوا مدادهم ، ثم انتظروا ما قد تسفر عنه الأمور . . . فلا الأشتر ، ولا ابن عباس ، ولا الأحنف بن قيس ، ولاغيرهم من الخاصة قاموا بدور إيجابى أمام الجماهير لتنحية الأشعرى عما اختاره له الأشعث وعصابات القراء ... وما فعلوا ، على ما يظهر ، أكثر من لقاء على فرادى ، وفى خفية من العيون ، محاولين أن ينقض اختيار الرجل بعد أن أجبره المتمردون على التسليم لهم بما أرادوه ، وما أحسب تصرفهم هذا ، فى مثل هذه المحنة الحازبة التى قوضت خلافة الإمام ، إلا دليلا واضحا على انفراد الأشعث بن قيس — فى ذلك الوقت — بالسلطة انفرادا لاتؤمن معه مغبة معارضته والاختلاف عنه . .

وأكمل الإمام ما بدأه من حديثه :

« . . . ادفعوا فى صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس . وخذوا مهل الأيام ، وحوطوا قواصى الإسلام . . . ألا ترون إلى بلادكم تغزى ، وإلى صفاتكم ترمى ؟ . . . » .

هكذا ود لو يفيدوا — ماوسعهم ، وما أمكنتهم الظروف — من خدعة الهدنة التى جازت عليهم ، وسلبتهم وهم غافلون ثمار النصر ، فابن عباس أعرف الناس بألاعيب ابن العاص ، وأقدرهم على مفاوضته . وهذه الهدنة التى فرضت عليه فرضا هى على أية حال فسحة من زمن لا يجدر أن تتسرب وتنقضى دون أن يعملوا على استغلالها لتقوية جيوشهم ، وتنظيم صفوفهم من جديد تأهبا للقاء عدوهم ثانية إن فشل التحكيم . . .

لكنهم عموا عن رأيه ، وفشا بينهم اللغط الذى ينبىء بما اعتادوه من معارضته . مرارا عموا عنه ورفضوه ، ولم يشفع لديهم منطقه الذى لم تثبت أمامه لهم حجة ولم يستقم برهان . وكم من مرة بعد مرة حاول أن يحملهم على الاقتناع فما زادتهم محاولاته إلا لجاجا فى العنت وإصرارا على الإصرار . . .

ثم يأتى الأشعث فيجهز بعنفه وعنفوانه على كل أمل فى العدول عن ذلك العناد المرذول وهو لا يخفى ما تنضح به طبيعته التى شاءت أن تخرج بالأمر من قضية عامة يهم مجموعة المسلمين علاجها بما تتفق ومصالحهم العام ، إلى قضية خاصة ينال

من كبريائه حلها بوسيلة لا توافق هواه ولا تفسح أمامه ساعة التعالى والاغترار . . .

يقول الإمام فى بعض محاولاته :

« . . إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله . فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به ، فإن عمار لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ويحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمرا إلا نقضه ، ولا ينقض أمرا إلا أبرمه . . . »

فماذا يكون رد الرجل على هذه الحجة التى تستلهم طاقات الأنفس البشرية فتعد للخصم كفوه ، المنحدر من نفس أصله ، النابت فى نفس بيئته ، التاهل وإياه من نبع كما تعد الحديدة لتطرق الحديد ! . .

إنه يثور ! . . لا يبالى تعرف المنطق السليم فى حديث الإمام أو تبين النتائج الناجمة عن إنفاذه . فلا كانت قضية ! . . ولا كانت نتيجة مرجوة ما نهض بالمفاوضة غير من شاء ، خصوصا إذا كان هذا الناهض رجلا من « قريش » يكاد هذا الغادر المريب أن يرى فى نهوضه دلالة قاطعة تدمغ « اليمن » بالقصور والهوان عن أن يسند إليها التحكيم ! . .

بمثل هذه النظرة الكليلة — بمثل هذا العمى يستقبل الأشعث بن قيس رأى الإمام فيدفعه صلفه إلى الوراء بضع عشرات من السنين إلى عصبية الجاهلية الأولى التى وأدها الإسلام . فهل حقا ثار ؟ . . أم هى الحجة المعجزة تلجئه إلى الفرار منسترا بالثورة حتى لا يحق عليه التسليم والإقرار ؟ . .

على أية حال لم تعجزه الوسيلة التى تحقق له غرضه ، وككل مكابر يغمض العين عن نور الحق حين ينبلج ، ويصم أذنه عن هتافه حين تدعوه دواعيه ، تظاهر الأشعث بالثورة ، أو زأر حقيقة وثار . فلعله غضب لنفسه وقد جرح غروره ، ولقومه وقد هانوا ، ولسلطانه الغض وقد رآه وشيك الانقصاف والذبول لو استجاب لرأى على ، وسلم لمنطقه ، وما كان قد نعم بعد بهذا السلطان إلا ساعات ! . .

ويصيح كمخبول :

« لا والله ! — لا يحكم فيها مضريان إلى قيام الساعة ! . . . »

فأى حجة هذه وأى برهان ! . .

ثم يندفع مرددا نفس رأيه القديم :

« اجعله رجلا من أهل اليمن إذ جعلوا رجلا من مضر ... »

فيجيبه على بهدوء :

« إنى أخاف أن يخدع يمنيكم ، فإن عمرا ليس من الله فى شىء إذا كان له فى أمر هوى . . »

لكن هذا التحذير الهادئ يزيده ضلالا ، فيقول :

« والله لأن يحكما ببعض ما نكره ، وأحدهما من أهل اليمن ، أحب إلينا من أن يكون ما نحب فى حكمهما وهما مضريان ! . . . »

* * *

وهكذا يكشف الأشعث خافيته فلا يخطئ امرؤ فى تبينه على حقيقته : رجلا يمكن لسلطانه ماوسعه التمكين . يستهوى الأنفس أولا ببريق دعوته المضللة للسلام . ثم ينشر هذه الدعوة حتى يغدو نبيها فى عيون الجماهير . ثم يفرض إرادته . حتى إذا غدا مؤزرا بالنزعات النفسية لم ينس أن يوفر أيضا لنفسه القوى المادية التى تضمن بقاء تحكمه فى مصاير الناس والأمور فيختار حكماً من قومه ويتحصن وإياه بالعصبية اليمنية وإن أفرادها إذ ذاك لحزب لا يستهان به فى جيش على ، وقوة غالبة فى جيش الشام . . .

هنا يحق أن نتساءل : أكان للرجل مطمع وراء التحكم ؟.. ماهى غايته ؟ . وما قصاراه من هذا التحكيم الذى قد مهد له ، ورسم خطوطه ، وابتدع له حكما من قومه صنعه بيديه هو ذلك الأشعرى اليمنى الطنين ؟

أخيال ، أم شرود مع الخيال ، أن يطمع الرجل فى إمرة المؤمنين لنفسه بعد كل هذا التدبير والتمكين ؟ . . قديما اشترى عرشا بدينه . وأمس فقط اشترى السطوة بهيبة على — بل بدولته ! . فلم اليوم — وقد اجتمعت له عوامل النجاح والقوة ، نفسية ومادية ، من نفوذ ، وسيطرة على عواطف الجماهير ، وأعوان غفيرة هنا فى هذا الفريق وأعوان تفوقها هناك فى ذاك — لا ترنو عينه إلى الخلافة وإن أحد الحكمين اللذين يملكان إلباسه طيلسانها لصنيعة يده ؟ . .

إنه أعلم باتجاه الأشعرى . . . يعلم أنه لن ينصر معاوية لأنه يرى فيه أحد طرفى الفتنة التى اكتواها السلمون كل هذه الشهور . . ويعلم أنه ينصر عليا فى غد وقد سلف منه أمس ما سلف من خذلانه . . . ولم يكن علمه هذا سراً خافياً ظل مستغلقاً على سواه ، ولا كان مما جرى فى الأفهام مجرى الظنون ، بل كان من قبيل الخبر الشائع على الألسنة ، المستقر فى الأخلاد استقرار اليقين ... نسمعه فى معسكر معاوية كما نسمعه فى معسكر على ، ونسمعه قبل أن يكتب الحكمان صحيفة التحكيم كما نسمعه بعد كتابتها . . . . . .

* * *

يقول الأحنف بن قيس لعلى يحدثه فى شأن أبى موسى :

« . . . قد حلبت أشطره ، فوجدته قريب القعر ، كليل المدية ، وهو رجل يمان وقومه مع معاوية . . . » .

* * *

وينشد شاعر من الشام ، هو أيمن بن خريم ، ينعى على أصحاب على سوء اختيارهم حكمهم :

« لو كان للقوم رأى يعصمون به	من الضلال رموكم بابن عباس
لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن	لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
أبلغ لديك عليا غير عاتبه	قول امرىء لا يرى بالحق من باس
ما الأشعرى بمأمون	... ... »

* * *

ويلتقى عمر بن سعد بأبيه سعد بن أبى وقاص ، إبان اجتماع الحكمين بدومة الجندل ، فيقول له وهو يعنيه الخلافة :

« ... إنك لم تدخل فى شىء مما تكره هذه الأمة ، فاحضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غداً ... » .

* * *

ولا يكاد الأحنف بن قيس يودع أبا موسى الأشعرى إلى مقر الاجتماع ، حتى يسرع إلى الإمام يقول له :

« لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا يشكر خلعك ! . . » .

* * *

فهل هو خيال ، أم شرود مع الخيال أن يطمع الأشعث بن قيس فى إمرة المؤمنين وقد مكن لنفسه كما مكن ، وأعد كما أعد ، وأمامه من قرائن الحال ما قد يغنى عن جواب سؤال ؟ . .

الصحيح أنه تآمر ، وأنه دبر ، وأنه احتال . ولا عبرة بعد هذا بفشله . فقد رتب المقدمات ثم خانته الخواتيم . ولو كان تدبيره كله لغير غاية رمقها من البداية فهو إذن عابث خامل ، يلهو بالسلطة ، ولا يهزه الطموح ، ولا يخايل عينه عرش كندة القديم ! . . .

١٠

ليوشك امرؤ أن يستبعد طمع الأشعث بن قيس فى خلافة كانت الناس ، إلى قريب ، تراها حقا لقريش دون غيرها من العرب . . . يوشك أن يكون هذا ، لولا أنه ، فيما أحسب ، استبعاد قد يساير النظرة الحديثة التى تنظر إلى المشكل الآن وهو غارق فى عشرات من الحجج والجداليات ابتدعتها مئات من السنين ثم لا يساير نظرة القوم الذين كابدوه حين نشوئه وعاشوا فيه . فالخلافة الإسلامية — كنظام من نظم الحكم — هى فى حقيقتها وليدة رأى وليست وليدة نص دينى ثابت لا يحتمل التأويل ورسول الله وهو يستقبل ربه ، بعد أن فرغ من أداء رسالته ، لم يوص لأحد بعده بالحكم وصية صريحة وإن بدرت منه فى أوقات شتى إشارات وتلميحات تاه أصحابه فى تفسيرها عقب وفاته بين الاحتمال والترجيح . وثمة أحاديث فيها من الصراحة ما قد يرسم لنا صورة للمستخلف بوضوح — كحديث « الغدير » وحديث « خاصف النعل » — ولكنها أحاديث « توجيهية » تهدى إلى الحقيق بالإمرة ولا تلزم الناس باستخلافه.

وحق على نفسه لم يدع الحق فى الخلافة بعهد من محمد قاطع يحبسها عليه ويحصرها فيه . بل كان يقول فى ذلك : « لو عهد رسول الله إلينا عهدا لأنفذناه . . . » .

كانت هذه نظرة القوم عامة إلى مشكل الخلافة والاستخلاف والنبى حينذاك لم يتوسد مستقره الأخير وبين هذه الحدود اضطربت الآراء من بعد ، وتشعبت شعبا ، وراح كل فريق من المختلفين يحاول أن يلتقط من أقوال رسول الله ، ومن أفعاله ، ومن تلميحه ، ومن الأحداث التى لازمت مولد الإسلام ونموه ما لعله يسند دعواه . وفى بدء الأمر كان ثمة معسكران للرأى : أولهما معسكر الأنصار ، وثانيهما معسكر المهاجرين الذى ما لبث أن انقسم على نفسه حق فتت الخلاف كتلته القرشية ، فإذا به يغدو « بيوتا » كبيرة مستقلة إن يكن نماها أصل واحد فقد تفرقت بها فروعه . وإذا بكل بيت منها يرى الخلافة الإسلامية حقا له وحده ، ثم إذا بالبيت الواحد الكبير قد انقسم أيضا إلى « أسر » كل منها تنفرد بالعمل لحسابها الخاص .

وليس يعنينا هنا تتبع هذه الانقسامات فى الأعصر وما تفتقت عنه من الفتن والدول والدويلات . ولكننا نعود بها إلى نواتها الأولية يوم خرجت إلى الوجود ورسول الله مسجى على فراشه . فحينذاك لم ير الأنصار ضيرا فى التطلع إلى تقلد السلطان الزمنى الذى بات لزاما على المسلمين إقامة بنيانه بعد أن رسم لهم محمد خطوطه وأرسى قواعده . ولقد شجعهم لا ريب على هذا التطلع أن الإسلام وضع أهله جميعاً فى مكانة سواء ، ولم ينص على حصر الحكم فى طبقة بعينها أو أسرة بذاتها دون سائر الأسر والطبقات . وشجعهم أيضا دورهم الفعال فى نصرة الرسول مستهل الدعوة حين عز النصير من قومه ، وما كان من فضل هذا الدور فى استفحال شأن الدين واشتداد ساعده حتى بطش بالشرك فى الجزيرة العربية ودان له الناس . فالأنصار إذن وقد تقدموا يرنون إلى قيادة الدولة الجديدة الناشئة إنما يتقدمون ولهم صحيفة تزكيهم ، فيها « العمل » الذى أسلفوه ، الكاشف عن اقتدارهم على القيادة الزمنية ، الجدير بالثناء والجزاء ، وفيها « المبدأ الدينى »

الذى لا يميز بين المسلمين ولا يفرق بين طبقاتهم وأجناسهم وإنما يجعلهم جميعا سواء . . .

لكن هذه النظرة التى تدنو نوعا من التحرر اصطدمت فورا بأخرى تقابلها قد غلب عليها الخضوع للأحياز وكان من مبادئها تقييد « الأهلية للحكم » وحصرها فى حدود وشروط . فما اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة وهم رأيهم يجتمع على البيعة لسعد بن عبادة رئيسا سياسيا للدولة حتى انطلق رجال من المهاجرين إليهم يحاولون ثنيهم عما اعتزموه . وكان الناطق بلسان هؤلاء أبا بكر ، ومن ورائه وقف صاحباه أبو عبيدة وعمر بسندانه . وكان الرأى المناوىء الذى جاءوا به هو تضييق نطاق تلك الأهلية للحكم بالعدول عن التعميم إلى التخصيص ، وعن العرب إلى المهاجرين ، وعن المهاجرين إلى قريش ، وعن قريش إلى أدناها من الرسول .

واضطرب الناس ذلك اليوم بالسقيفة حتى لكادت الفرقة توقع بينهم فتنة لا تحمد مغبتها لولا تيقظ الخلاف التاريخى القديم بين الأوس والخزرج وانبعاثه من رقدته ، وعندئذ تفتتت وحدة الأنصار ، وتراخت قبضتهم على الخلافة فافلتوها وهم يرون السلامة — من انقسامهم ، ومن فتنة قد تصيب الأمة عامة — فى البيعة لقريش بالزعامة السياسية على العرب فى شخص أبى بكر الصديق .

حتى على فى هذه الآونة كان يرى رأى أصحابه أولئك من المهاجرين ولا ينكر منهم إلا خروجهم على ما دعوا له وألزموا به الأنصار من شروط . فلقد جاءته الأنباء بالحادث ، وما أدى إليه من استخلاف أبى بكر ، فسأل من أنبأوه :

« ما قالت الأنصار ؟ . . »

« قالت : منا أمير ومنكم أمير . . »

« فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ؟ . . . »

« وما فى هذا من الحجة عليهم ؟ . . »

« لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم ! . . . »

« فماذا قالت قريش ؟ . . »

« احتجت بأنها شجرة الرسول . »

وعندئذ قال :

« احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة ! . . »

ولقد أضاعت قريش « الثمرة » حين فوتت على على ما يراه حقه فى الخلافة إذ هو أدنى مهاجرى قريش حسبا ونسبا وقلبا من الرسول . ولكنها لم تر فى هذا ما قد يحسب عليها جريرة إذا ما قيست الجرائر بمقاييس النصوص الصريحة ولم تقس باجتهاد الرأى فى التأويل والمفاضلة والترجيح . فإن هو إلا رأى ارتأته إبان داهمة ، وما ثمة سند « رسمى » كان يلزمها البيعة لعلى وإن وضعته شروطها هى على رأس قائمة الحقيقين بالخلافة . . .

والذى لاشبهة فيه أن نظرة أبى بكر كانت دعوة صريحة إلى « أرستقراطية » الحكم لا ينكرها الدين وإن نجد اليوم من عساه ينكرها بين مروجى المبادىء الشعبية التى لا ترى قط افتراض حصر الرئاسات فى أسرة من الأسر أو فى طبقة من الطبقات . وهى فضلا عن أرستقراطية مظهرها قد توسلت أيضا بوسيلة مثلها أرستقراطية لتبلغ حظها من التحقيق . فما كان لعامة الناس رأى فى اختيار الخليفة ، ولا هم دعوا المشاركة فيه ، بل قد دعوا بعد الاختيار للموافقة والإقرار . وحين نعرض لاختيار أبى بكر ، ومن بعده لاختيار عمر وعثمان ، نرى « الخاصة » من المهاجرين والأنصار ، فى مجتمع المدينة دون غيرها من البلاد الإسلامية ، هم وحدهم الذين يبدأون البيعة فتبرم برأيهم إمرة المؤمنين ولا يبقى بعدهم لأهل بقية المدن والأمصار إلا قبول الاختيار . . .

فلتكن إذن هذه الخاصة التى نصبت نفسها لاختيار الخليفة نوعا من « المجالس النيابية » أسفر عنه « الانتخاب الطبيعى » فى مجتمع قبلى ، يتبع العرف والتقاليد ولا يعرف من أساليب الانتخاب الوضعية ما نعرف الآن . . . وليكن رأيها ممثلا الرأى العام ، محققا لرغبة الشعب إذ هى قادة الرأى فيه ، ومناط رجائه فى أمور الدنيا والدين — ليكن هذا ، ولتكن هذه . ومع ذلك فإن « المظهر الشعبى »

لانتخاب الخلفاء لم تتضح ملامحه إلا عندما « انتخب » على أميرا للمؤمنين بعد مصرع سلفه . فهذا الرجل الذى اجتمعت الآن الأهواء على حربه ، وتنكر له رجاله ، لم تنفرد باختياره الخاصة فى مجتمع محدود ، بل انتخبه أقوام من المدينة ، والبصرة ، والكوفة ، ومصر — أمهات بلاد الإسلام وأقطاره — كانوا يمثلون إلى حد كبير التيارات السياسية الشعبية .

هذا المظهر الشعبى الذى اصطبغ به انتخاب على هو فى الواقع نكسة شعبية أصابت الاتجاه الأرستقراطى الذى استن يوم السقيفة وأدى إلى اختيار الصديق . وهو تحرر جزئى وخطوة نحو الانطلاق . وإذا كانت هذه النكسة لم تمس مبدأ الاختيار ، ولم تهدم الحدود والقيود التى تحميه ، فإنها غيرت أسلوب التطبيق . وإذا كان الزمن لم يمتد بهذا التحرر ليسير فى طريق التطور الطبيعى ، وينمو ، ويبلغ اكتماله ، فرد الأمر إلى نكسة أرستقراطية مفاجئة ، عصفت به وهو وليد ، وأقامت على أشلائه الطرية الغضة ملكا عاتيا متوارثا لا مجال فيه لانتخاب ولا اختيار . . .

كان انتخاب على إذن وسطا بين النظرة الأرستقراطية التى دعا لها أبو بكر وبين النظرة الشعبية التى دعت لها الأنصار فالأمة « عامة » — ممثلة فى أقوام من أقطار دولتها — قد انتخبته من « طبقة » محددة ، لها ما يرجح كفتها على بقية الطبقات حين لا تحسب المزايا بحساب التقاليد المرعية ، والنفوذ الأدبى ، والصلة بالرسول . والشعب الذى شارك فى انتخابه قد وجد فى هذه المشاركة متنفسا لرغباته ، واكتسب لنفسه حقا طبيعيا ، لم يكن له من قبل ، هو حق الانتخاب . . . ومع ذلك ، وحتى تلك اللحظة ، فإن الخاصة لم تكن لتقر هذه النزعة السياسية الجديدة ، وظلت ترى أن حق اختيار الخليفة وقف على طليعة المؤمنين وحدهم بالمدينة ، وتجعل تبعا لرأيهم بقية الآراء .

وما من شك فى أن رأى الخاصة ، وإن خالف الاتجاه الشعبى فى مظهره ، إنما كان يهدف مخلصا إلى الصالح العام للدولة الإسلامية الناشئة ، التى لم يمض على بنائها سياسيا إلا سنوات قليلة ، توفرت لها خلالها بعض مقومات الدول منذ جمل رسول الله من عناصر المجتمع المدنى المضطربة وحدة متسقة ، يحكمها قانون

مرسوم ، وتتركز آمالها جميعاً فى غاية واحدة لا تتهاون فى الدفاع عنها ولو بقوة السلاح . ويوم دعا أبو بكر لنظرته لم يكن فيما نحسب داعية يؤيد الأرستقراطية لذاتها ، ويوم تابعه أصحابه على هذا الرأى ، إبان عهده ومن بعده ، لم تكن متابعتهم فى حقيقتها الظاهرة والخفية تنكرا للشعب ، ولا انتصارا للخاصة فيه على حساب عامته ، وإنما كانت الدعوة والمتابعة كلاهما امتثالا لحكم الظروف المحيطة بدولتهم الجديدة . فالبناء حينذاك لم ترتفع منه إلا قوائمه . والدين الغض جب كثيرا مما خامر العقول والنفوس من العرف والعادات والتقاليد . والمبادىء الإسلامية قد تترنم بها الألسنة ولكنها لم تتعمق غالبية القلوب . . . لذلك كان أدنى إلى المنطق ، وأليق بمقتضيات الحال ، وأقرب إلى تحقيق الصالح العام للأمة أن يكمل البناء من شاركوا فى وضع قواعده ، وأن يحمى الدين من ثورة التقاليد المكبوتة من ناهضوا من البدء هذه التقاليد ، وأن يرسى مبادىء الاسلام فى القلوب من أشربوها ولم تنل منهم المحن والخطوب . .

فهل كان عجبا إذن — وقد اجتمعت كل هذه المزايا لقريش — أن ينادى لها بالزعامة السياسية فى وقت كانت العرب فيه لا تنكر عليها صدارة الناس ؟.. أو أن يلاق النداء صداه فى النفوس التى عاشت طويلا تؤمن بالنفوذ الروحى لقريش منذ كانت لها ولاية البيت الحرام فى الجاهلية ثم من بعد إذ غدت موئل النبوة فى الاسلام ؟ . إنما العجب أن تفشل الدعوة وأن يتبدد النداء ولامتقبل فى الجزيرة العربية ولا مستجيب . . وإنما الأعجب بعد هذا أن يظل النداء يتردد وأن تظل النفوس تتقبل ، والعالم منذ مولد الدعوة تتكشف للعرب مجاهيل بقاعه ، وتتدانى أباعد رقاعه فتمتد النظرة وينفسح الأفق أمام المفكرين والأفكار . . .

جيل جديد من الناس يبرز الآن من الأغمار . عنصر جديد . أخلاط من الشعوب التى احتواها الإسلام فى ذراعيه من بحر الهند إلى البحر المحيط ، ومن جبال القوقاز وسهول التركستان إلى هضبة النوبة بجانبى النيل . . . إن ثلث قرن من الزمان قد أتى بأحداث غيرت الأرض والبشر . فالدولة الناشئة لم تعد محصورة — كبدئها — بين أسوار بلدة صغيرة ، بل انسابت أماما وخلفا ، ويمنة

ويسرة ، تأكل العالم ، وتهدم الحدود كأنها طوفان . انتشرت تسرح كالنار وتفيض كالنور . استطاعت بين قرنى الشمس... والشعب الإسلامى لم يعد فحسب عربا أطلعتهم الرمال ، وروتهم العيون والآبار ، ولا بدوا تخبطهم المحل فمرة جيرة الفرس ومرة جيرة الروم ، بل غدا أمما جمة ، تتناثر فى المشرق والمغرب ، وفى الشمال والجنوب على وجه ذلك العالم القديم المعروف ، وتختلف بها الأصول والعناصر والألوان ، فتتباين فهما وفكرا وعاطفة ... وبعد أن كانت «المدينة» خلال عهود الخلفاء الثلاثة الأولى حاضرة الدين والسياسة ، ومهوى القلوب والعقول والأنظار من أنحاء الدولة ، خبا ضياؤها لا يخطف ، وخفت صوتها لا يطاع ، وأشرفت على جيلها الثانى وهى بلدة فى عمر البلدان ! ..

تلك الثورة على عثمان أنزلتها من علياء عزها المؤثل . فقد هانت حتى اقتحمها أهل الأمصار ، ومن لاذ بهم حينذاك من عبدان ، وحكموا فيها بشرعة الثورة لا بشرعه التقاليد . الهيبة التى كانت تصدهم عنها غدت خيال غابر ، كثيف الظلال ، خفيف الأضواء ، والنفوذ الأدبى الذى تسربلته منذ عهد الرسول رث كأسمال . فالذين أسهموا فى بناء مجدها أكلت منهم الفتوح فغابوا عنها فى ثرى غريب ، أو استهوتهم العوالم الجديدة التى غزاها الإسلام فهاجروا إلى الخير والدعة والثروة . والذين مكثوا على أديمها تربطهم بها بقية من وفاء للغابر ظلوا قعودا شهودا لا يمنعونها عن مقتحميها ولو بإشارة بنان . بل إن منهم لمن أعان عليهم بحرض ونفخ فى النار يؤازر الثوار ...

وحين تذكر الثورة تذكر المساواة . فما هى إلا نتاج هذه التعاليم الجديدة التى طلع بها ذلك الدين الجديد على عالم من العبيد تملكه حفنة من الطغاة . فيها وجد الذليل عزه ، والخائف أمنه ، والضعيف قوته . وبها تحرر الأسود والهجين والأصفر من معرة الجلود والأبشار . وحيالها أصبح الناس سواسية ، لا فضل لأحدهم بعنصر ولون ، ولا بأصل وقبيل . . . وحين تذكر المساواة فقريش إذن على مكانة سواء ومن داناها ومن باعدها من رحل الصحارى ، وبدو العراق ، وبربر إفريقية ، وأهل الجبال فى هضاب آسيا ، وفالحى الأرض بشاطئ النيل . . .

كانت المساواة هى القبس الذى استضاءت به أذهان الناس فى البلاد الإسلامية . ثم استوى شعلة ، ثم توهج وتأجج نارا غضبى راحت تأكل الفروق الطبقية التى استطاعت لذروتها فى أخريات أيام عثمان . ولم تذد قريش حينذاك عن تراثها — عن تلك النظرة التى ارتآها لها أبو بكر يوم السقيفة وبوأتها سلطانها السياسى على الدولة الناشئة إلى جوار ذلك السلطان الروحى الذى استمدته قبله من ولاية البيت الحرام فى الجاهلية ، ومن ولاية النبى فى الإسلام. كان منها ، حقا ، من تقدم إلى اللهيب يحاول أن يطفئ نائرته ، ويهدئ ثائرته . ولكن أكثرها كان يشهده وهو ساكن أو صاغر ، وبعضهم كان يذكيه بالتحريض أو بالتآمر . فلما أن طعن عثمان وقضى نحبه ، لم تكن الطعنة التى أصابت خاصرته بأنكى من تلك التى أصابت قريشا قبيلته وذهبت بهيبتها مع الدم المراق .

إنه لأدنى إذن إلى مطابقة منطق الأمور — بعد هذا كله — أن يرنو إلى الخلافة كل ذى عين تستطيع أن ترنو ، وقلب يعرف كيف يطمح ، وذهن قدير على المكايدة والتدبير . أيما امرىء وسعه أن يفعل فلا حريجة ولا جناح ما اجتمعت له مقومات الطموح وأسناده ، يستوى فى هذا من شبه الرمل ومن أنبتته الظلال ، من انحدر من خاصة ومن كان من عرض الناس . . . فسلطان الدينة تقوض ، وهيبة قريش تهاوت ، وتلك الهالة حول أرستقراطية الحكم قد محاها التطور الفكرى وذهبت بها الانفعالات الشعبية . . . القوة الآن حيثما تكون القوة لا حيثما كانت التقاليد . وميزان التفوق هو الأسناد المادية وليس العاطفة الدينية . . .

١

جرى حديث الصحيفة الصفراء :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . .

هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه . قضية علىّ على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، وقضية معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب .... »

وبمثل هذه الفاتحة بدأو التحكيم . . .

فلولا أن استهلوا الوثيقة باسم الله لحسب المسلمون أنهم طووا زمانهم إلى الخلف جيلا حتى وقف بهم عند « الحديبية » يطالعهم فيها عنت قريش بلسان صاحبها « سهيل بن عمر » وهو يملى عليهم مشيئة الجاهلية التى استسفرته لعقد الهدنة وكتابة عهدها حينذاك . . . فما عدا مما بدا ! . . . وما خالف الخلف عن سلفه كأنهم شخوص وظلال ! . .

كما أبو أمس أن يلحقوا النبوة باسم محمد أبوا اليوم أن يلحقوا الإمرة باسم على وإن علموا أنما قد بايعه بها الذين بايعوا قبله أبا بكر وعمر وعثمان . وهل يضيرهم وقد تأثروا خطا الآباء ؟ . . وهل يعضل بهم أن ينكروا عليه ما قلده الناس وسلفهم قبلهم أنكروا على ابن عمه الكريم ما قلده الله ؟ . .

يهول معاوية أن رآهم يلحقون الإمرة باسم خصمه فى وثيقة التحكيم ، فيقول :

« بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ! . . »

ويعقب صاحبه عمرو ، مخاطبا من كتب :

« اكتب اسمه واسم أبيه ! . . إنما هو أميركم ؛ وأما أميرنا فلا ! . . »

ويتلبث على مليا يفكر ، حين جاءوه بالصحيفة الصفراء ليمحو اللفظة التى هالت ابن أبى سفيان ــ يتفكر هادئا فى غير ضيق ، وفى سخرية وترفع . وهل ينقص

المحو منه ؟ . . وهل يزيد الإثبات فيه ؟ . . . إنما كان ذهنه يكر به إلى أطياف الماضي ، من جيل ، إذ راح يكتب لرسول الله ، بجانب ماء الحديبية ، عهد الهدنة ، فيعنت سهيل ، ويحلم محمد ، ويمحو هو وإنه لـكاره حتى تجيء الصحيفة على الهيئة التي يرضاها هوى سهيل ومن بعثوه . . . راح يكتب والنبي يملي عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . »

لـكن سفير الجاهلية أبى :

« لا أرضى ! . . . اكتب : باسمك اللهم . »

فأمره الرسول :

« اكتب : باسمك اللهم . »

ففعل . محا وأثبت .

ثم كتب :

« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . . . » .

فاعترض سهيل : « لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ! . . اكتب اسمك واسم أبيك . . . » .

وعندئذ غضب علي :

« بلى والله ! . . إنه لرسول الله وإن رغم أنفك ! . . . »

غير أن محمدا يأمره :

« اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ... »

وكأنما يتبين النبي في وجه ابن عمه التردد ، فيهدئ من روعه ، ويعيدها عليه :

« اكتب ما يأمرك ... إن لك مثلها . ستعطيها وأنت مضطهد ! . . . »

وهو يوشك أن يعطيها الآن ! . .

ويقبل عليه الأحنف بن قيس في لهفة . الجزع في قلبه ، والغصة في حلقه ، والحزن يتواتر على وجهه ظلالا كثيفة دكناء :

« يا أمير المؤمنين ! . . لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك ! . . لا تمحها . . »

فيبتسم له .

ويعاود الرجل الجزع الرجاء والتحذير :

« لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ... إنى أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا ! . . »

ثم يقبل عليه الأشعث . فى خطوة اختيال ، وفى قلبه خيانة ، وفى عينه تجبر . . . يقول باستعلاء :

« امح هذا الاسم ! . . »

فيبتسم أيضا له .

« امح هذا الاسم ! . . »

وفى سخرية وترفع يرمقه الإمام بعين لا تكاد تستقر هنيهة على شعثه حتى تنفلت تقززا ، إلى وثيقة التحكيم الصفراء فتنفذ منها إلى صحيفة الحديبية وعنت سهيل ، وحلم الرسول . . . ما عدا مما بدا ! . . الأمس واليوم فى لحظة ! . . السلف والخلف فى فرد ! . .

ويهتف على فى إيمان وتسليم :

« لا إله إلا الله والله أكبر ! . . سنة بسنة . . . »

ثم لا يأبى على المعنت ما شاء ، فيمحو ويثبت . . . ويقول :

« أما والله لعلى يدى دار هذا الأمر يوم الحديبية حين كتبت الكتاب عن رسول الله . . . فاليوم أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله إلى آبائهم سنة ومثلا . . . »

٢

الأشعث ليس يسعه ثوبه !... انتفخ من فرح . وبدت على وجهه صولة الظافر وهو يلوح فى يده بالصحيفة الصفراء كأنما قد ملك مفاتيح المجد . . .

وحق له ! . . فالقوة الآن فى عينه : اليمن فى ظهره . ودعاة المدنة . والمخدوعون . وكل منافق . وأصحاب الدنيا الذين تخايلهم مطامع السلام . ومن نهكتهم الحرب وأفزعتهم الدماء . . . وأمام عينيه ، إلى هذا كله ، دنيا فسيحة من أحلامه .

غدا الرجل سيد الموقف . الأمر له . والنهى له . لا راد لما أراد ، ولا معقب عليه . . . أكره عليا فقر السلاح . وأكرهه فكان حكمه من ذى يمن . وأكرهه فامحت إمرته من الصحيفة . والناس من وراء هذا شهود قعود ، من رضى فأقر ، ومن أكره فصبر سواء بسواء . . .

حتى الصفوة المختارة من رفاق الإمام وذويه اتسعت رقعة كتاب التحكيم لأسمائهم ، يذيلونه بها ، ويشهدون على أميرهم وشيعتهم وأنفسهم بما فيه . . . ليس عن تخاذل كان توقيعهم ، ولا عن فتور إيمان ، ولكنهم انحنوا للعاصفة ، وانساقوا مع التيار . . . وعند ما دار الأشعث بن قيس ، يضع الوثيقة تحت أقلامهم ، كانت فى قلوبهم حسرة ، وفى حلوقهم مرارة ، وخلف أجفانهم للرغبة قطرات دموع تهم أن تسيل مع الحبر . .

ومد الأشعث بالصحيفة يده إلى الأشتر ، ليشهد كرفاقه . فإذا هو ينكمش ، وينأى كأنما مدت إليه حية . . . ثم يصيح فى إنكار :

«لا صحبتنى يمينى ، ولا نفعتنى بعدها شمالى إن كتب لى فى هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة ! . . . » .

وبدت السخرية فى عين الأشعث ، ثم رد فى صلف واستعلاء كأنما يأمر :

« هلم فاشهد ! . . »

« أشهد ! . . أو لست على بينة من ربى ، ويقين من ضلالة عدوى ؟ . . أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الجور ؟ . . »

فجاءه الرد ثانية ، قد أتخمه الغرور ، وقطرت من حروفه خيلاء صاحبه ، وكبره ، وعجبه بمقداره :

« هلم فاشهد على نفسك ، وأقرر بما كتب فى الصحيفة ، فإنه لا رغبة بك عن الناس . »

وعندئذ ثار الأشتر ، واندفع جوابه كالحمم الملتهبة :

« بلى والله إن بى لرغبة عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الآخرة للاخرة ! .. ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندى ولا أحرم دما ! . »

وتقبضت يده على مقبض سيفه ، واندلع من عينيه مثل الشرر . . . وما يمنع وبال غضبه عن هذا للشاء بالحور ، المدل بضلالة ؟ . . لولا أن يعصى إمامه — ولولا أن تكون فتنة جديدة لا يحتملها هذا الجيش الذى مزقته الفتنة ، لسل وقتل ، وألحق الغاوى المغرور بالغابرين . . .

وانكمش الأشعث فى جلده ! . . واستخزى . وتغير وجهه بمثل الرماد . . .

وقيل للإمام :

« إن الأشتر لم يرض بما فى هذه الصحيفة ، ولا يرى إلا قتال القوم . . . »

فلم يغيره القول على صفيه الوفى . بل قد بدا كمن استشف من الخبر وقيمة نسجوا خيطها لتفصل بينه وبين صاحبه ، فرد يلومهم ويثنى عليه فى آن :

« وأنا والله ما رضيت ، ولا أحببت أن ترضوا ! . فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت . . . »

ثم انثنى يبين لهم وفاءه لعهده وإن أكره عليه ، وثقته فى رفيقه وإن دسوا له :

« . . . لا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى الله ويتعدى ما فى كتابه ... بلى ! .. إن الأشتر ليرضى إذ رضيت . وأما الذى ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك ! . ياليت فيكم مثله اثنين ! . . يا ليت فيكم مثله واحدا يرى فى عدوى ما أرى ! . . إذن لخفت على مؤونتكم ، واستقام لى بعض أودكم ، لكن — نهيتكم عما أتيتم ، فعصيتمونى . . . . . »

على أن هذا كله لم يوقع الندم فى قلب الأشعث ، ولم يكفه عن اختياله . . . إنما نضح بما فيه ، وفضح خافيته . فلقد مضى على عجل ، الصحيفة بيمينه ، والبشر على ثغره ، والزهو فى لمح عينيه ، يدور على الجيشين فيقرأ عهد التحكيم الذى أنجبه اليوم تزاوج حرام بين النفاق والخديعة ! .. مضى تياها بمولوده ، يكشف الناس عنه ، ويعرضه عليهم وهو يود لو حملهم أجمعين على الإشادة بحسنه وإن رأوا فيه قسمات أبيه ! . . فأما ذوو الأم : أصحاب الشام ، فقروا خاطرا وعينا ، ولعبت الفرحة بهم إذ جنبهم الفضيحة اعتراف الأب الأثيم بالوليد ! وأما ذوو الأب : أجناد على ، فمنهم راض ، ومنهم كاره مستكره ، ومنهم منكر أشد الإنكار ..

وما أكثر الآن من أنكر ! .. من سويعات ، حلت الحياة فى عيونهم فران على قلوبهم حب البقاء حتى آثروا الحذر واشتروا السلام بالتسليم ... ثم ، هاهم الآن : ذهبت السكرة . فترت النشوة . خفت عنهم حميا الدعة ، وحمى المخادعة والتضليل ..

ويعجب الأشعث الناس ، يطوف بصفوفهم ويعرض بضاعته ، كيف تبدلت بهم هكذا سريعاً الحال حتى توشك أن تفسد ما دبر ، وتجىء بغير ما قدر ... لكنه يطوى عجبه ، ويكتم قلقه ، ويمضى شوطه مكافحا منافحا عن غرضه يلقى فى آذانهم نتاج دعوته : ما ضمته الصحيفة الصفراء . . .

كان رأسها : فصل الإمرة عن الإمام . فهو على ، وليس له من أمر المسلمين شىء تنص عليه الوثيقة إلا مثل ما لخصمه وإن كرهت الحقيقة الواقعة وكرهت البيعة التى أدتها له الأمصار . . .

وكان هيكلها كما رسموه :

« ... ... رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ... ... وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته ، نحيي ما أحيا ، ونميت ما أمات ...... »

وكان المحور الذى تدور حوله :

« . . . إن عليا وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظرا وحاكما ، ورضى معاوية وشيعته أن يبثوا عمرو بن العاص ناظرا وحاكما ، وإنهم أخذوا عليهما عهدالله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماما فيما بعث له لا يعدوانه إلى غيره فى الحكم بما وجداه فيه مسطورا . وما لم يجداه مسمى فى الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة .. . . . . فإن لم يفعلا ، برئت الأمة من حكمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة . . »

وكان من ختامها :

« . . . . . . والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل . والسلاح موضوع . والسبل مخلاة . والغائب والشاهد من الفريقين سواء فى الأمن . . . . . . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما فى هذا الكتاب ، وهم يد على من أراد فيه إلحادا وظلما ، أو حاول له نقضا . . »

وإلى جوار هذا ، وفى ثناياه ، مشت نصوص بموعد الحكم ومكانه . فأما المكان فموقع عدل بين أهل العراق وأهل الشام يتفق عليه الحكمان . وأما الموعد فإلى انسلاخ رمضان إلا أن يرى الحكمان تعجيله أو تأجيله . فإن عجلاه فلهما ذلك ، وإن أجلاه فغاية الأجل انقضاء الموسم ، يجب عليهما الحكم خلاله وإلا كان للمسلمين أن يعودوا إلى أمرهم الأول من الحرب دون شروط لفريق على فريق . . . »

هذه هى الوثيقة التى وضعوها للتحكيم بين الإمام ومعاوية . وهذه هى شروطها نصوصها التى مضى الأشعث بن قيس ، فى غبطة الوالد بوليده ، يدور بها على جند على — بعد جند الشام — يقرؤها ، ويتحمس لها ، ويود لو آمن القوم مثله بمزاياها التى ابتدعها نفاقه ، وقرت لها عين هواه . . . إنه ليعجب : فيم همسهم ، وما إنكارهم الآن ؟ . . . ولكنه يمضى شأوه ، وهو يكتم عجبه ، ويطوى قلقه . فحسبه اليوم أن قد أنجب ولو من سفاح ! . . .

٣

صفا صفا ، وقوما قوما ، وراية راية جر الأشعث بالجيش يعرض وليده : الصحيفة الصفراء : وثيقة التحكيم ! . . ما أراه عرضها عليهم ليعلن شروطها ونصوصها ، وإنما ليروج لها ، ويخايل الظنون والأوهام بما احتوته من ألفاظ السلام ، والدعة ، والأمن على النفس والأهل والمال ، ومثيلاتها مما يغرى كل من قاسى من ويل الحرب .

وكان موقنا من رواج سلعته ، واثقا أنها ستلقى القبول . فمنذ قليل ، من سويعات لم تنسدل عليها بعد غبرة الغروب ، كانت الحشود الغفيرة إلى جانبه ، تعينه ، وتظاهره ، وتهتف به فى إلحاح أن يبادر بالإنتاج ! . . . فما لها الآن ، والسلعة فى يمينه ، تعرض إعراضا يكاد يهدد بضاعته بالبوار ؟ . .

وعجب . وقلق . وأحس خوفا خالسا يزحف على صدره . . . هذا اللغط الذى استقبلوا به الوثيقة حرى أن يفسد أمره ويقلب عليه ميزان تدبيره . وهذه الحشود التى أيدته من قليل حرية أن تنفض يديها من شأنه الآن . فعهده بها بغاوات ، تنشرها لفظة وتطويها لفظة كما فعل بها نداؤه المضلل إلى التحكيم ...

أينما خطا كانت همهمة ، وأينما قرأ وتلا كان إنكار ... اللحظة لا يقابلونه باحتفال . إن أصغوا فإصغاؤهم وجوم وإنصاتهم إليه عن تشكك أو من تسليم . لا مؤمن الآن بعهده . لا متحمس له يلقاه بالثناء بل الناس من هذه الوثيقة اثنان : كاره صامت ، وكاره مجاهر . . .

« لا حكم إلا الله » كانت النداء الجديد . . فى بدئها كانت حديث السرائر . خلجة قلب ، وهمسة ضمير . ولكنها استوت بعد هذا فكرة تنمو وتكبر فتتخم الذهن وتفيض عنه على طرف اللسان ... كل من امتحن بعقله دعوة التحكيم بعد أن غدت صكا مكتوبا حار فيها لم كانت ، وفى جدواها كيف تكون ؟ . . وفى وكر هذه الحيرة القلقة أفرخ الفكر فتنة جديدة ! . .

فى صفوف « عنزة » سمعها الأشعث . وفى ألوية « مراد » ، وفى معسكر « بنى راسب » ، وفى رايات (تميم) . . كلما مضى بسلعته من ناحية إلى ناحية انطلقت نحوه تدق سمعه ، وتهز قلبه وأطرافه . وكانت آنا عاتبة عاتبة ، وآنا آخر ثائرة غاضبة أوشك أن ينبثق لصيحتها الدم ! . .

هذان فتيان من عنزة يجابهان الأشعث بها :

« لا حكم إلا الله ! . . »

ثم لا يكاد يسترد دهشته حتى يراهما انطلقا انطلاق إعصار إلى جند معاوية ، يثخنان فيه ، حتى يقتلا على باب رواقه . . .

وهذا عروة بن أدية التميمى ، يزأر به :

« لا حكم إلا الله ! . . أتحكمون الرجال فى دين الله ؟ . . فأين قتلانا يا أشعث ؟ . . »

ثم يتبع إنكاره ضربة سيف تمرق كالشهاب الثاقب . فلولا بقية من أجل لطالت الأشعث دون دابته ، وجعلت منه أحدوثة غابر ! . .

وكم من صور بعد هذا توالت . وكم من أفراد ومن جموع شاع فيهم هذا الإنكار كالوباء والصحيفة لم يجف على رقعتها الحبر ! . . وكان الأشعث يشهد فيعجب ، ويشهد فيقلق ، ويشهد فيوجس الخيفة كل الخيفة على وليده الذى لم يهنأ به غير طرف نهار ، . لكنه يصطنع لنفسه الثبات والطمأنينة ، ويأخذ سبيله إلى الإمام ليبلغه رضا الناس ! . . .

يقول له :

« يا أمير المؤمنين . . قد عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : قد رضينا . حتى مررت برايات بنى راسب ونبذ من الناس سواهم ، فقالوا لا نرضى ، لا حكم إلا الله —)

ثم لا يكاد يضع الأمر أمامه على هذه الهيئة الهينة حتى يردف تهوينه بما ينقضه ، ويكشف عن تمويهه :

« . . . فلنحمل أهل العراق وأهل الشام عليهم فنقتلهم ! . . »

نبذ من الناس ؟ .. قلة ! .. ففيم إذن دعوة الأشعث إلى الحل عليم؟ .

وكأنما يستشف الإمام خطرا خافيا وراء هذا التهوين ، فيسأل الرجل مستوثقا منه :

« هل هى غير راية أو رايتين ونبذ من الناس ؟ . . »

فإذا هو يؤكد له :

« بلى ! . . »

« دعهم . . . »

بل الصفوة أيضا من صحب على بدوا كأنما لا تسيغ حلوقهم مر الحسرة التى خلفتها دعوة المهادنة . ركبهم الهم ، وغمرهم الندم ، وجاءوا له يودون لو وسعهم أن يرجعوه عما أكره عليه ، وقد أنساهم الحزن أنه لا ينقض العهد ، ولا يخفر الذمة . . .

يأتيه سعيد بن قيس فى مقاتلة من همدان كثيفة عليهم السلاح كأنهم قلعة ... ويهتف به :

« يا أمير المؤمنين . . هأنذا وقومى ! . . لا نرادك ، ولا نرد عليك . فمرنا بما شئت . . »

فيجيبه الإمام بهدوء وهو يرمى بعينه إلى جند الشام :

« أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم أو تنفرد سالفتى قبل ذلك ! . . ولكن ، انصرفوا راشدين . فلعمرى ما كنت لأعرض قبيلة واحدة للناس . . . »

ويأتيه أيضا سليمان بن صرد ، وهو يمسح عن وجهه دم جرح غائر كان لا يزال يشخب منذ أصابه سيف عدوه ذات ساعة من الصباح . . . يقبل سليمان محسورا يقول :

« أما لو وجدت أعوانا ما كتبت هذه الصحيفة أبداً ! . . »

وينبرى عند ذلك محرز بن جريش ، يضرع فى تلهف وإشفاق :

« يا أمير المؤمنين . . . أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ . . فوالله إنى لأخاف أن يورث ذلا . . . »

فيكون الجواب الحزين الذى يسمعانه :

« أبعد أن كتبناه ننقضه ؟ . . . »

ومع ذلك لم يكونوا نبذا — أولئك الذين استشعروا بعد سطر الصحيفة الندم ، وأسفوا على ما فرط من الاستجابة لدعوة الموادعة . . . ولم يكونوا أيضا أنباذا شتى مفرقة ، هنا وهناك بين الأجناد كتفرق السحب البيض على وجه الأفق فى ليل صائف ! . بل قد كانوا جموعا غفيرة ، وحشودا جمة ذات قوة وخطر ، سواء أقيست القوى بالثبات والعناد أم بالسلاح والأعداد . وليس يدفعنا عن هذا الإيمان بكثرتهم أن قد شاء الأشعث بن قيس أن يرامم قلة ، وأن قد خدع الإمام بتقديره ذاك ، وأن قد خاب ابن صرد أو غيره فى تلمس أعوان يناصرونه بالحرب — قبل سطر الصحيفة — على أهل الشام ويتابعون معه القتال . . .

كانوا كثرة قبل كتابة العهد ، حين راح الأشعث يلغط ورجاله بوقف الحرب والاحتكام إلى القرآن — كما كانوا كثرة بعد كتابته وإبرامه بالشهود والمواثيق . . . لكنها كثرة توهم بالقلة ، إن جمعتهم كلهم كراهة التحكيم فأقلهم جاهر بهذه الكراهة وأغلبهم كتمها فى ذات نفسه حتى بدا التفوق العددى فى جانب أنصار السلم . . . وكانت العلة وراء موقفهم هى الملل من الحرب — الملل الذى طمس البصائر وشل الأذهان .

ولقد عرف الأشعث حينذاك بدهائه كيف ينقب لدعوته المثبطة أكثر من ثغرة في صفوفهم تنفذ منها إلى ما اشتهاه . . . عرف كيف يستغل فيهم الوهن النفسى والإعياء البدنى اللذين جرهما عليهم طول القتال . وعرف أيضا كيف يخاطب فى نفوسهم المهطعة إلى الموت حب البقاء وعرف ثالثة كيف يلعب بعصبيته القبلية فيتهافت عليه قومه ، من يمن الشام ويمن العراق . ثم عرف إلى جوار هذه العوامل كلها كيف يحشد أنصاره ، ويضخم نداءه فلا يرى الناس سواهم ولا يسمعون سواه . . .

هذه كانت حقيقة الحال ... ما عن إيمان هتف من هتف من جند على لدعوة التحكيم ، أو سكت عليها سكوتا لاح كالقبول ، ولا عن روية وتدبر فى دوافعها وجدواها ... إنما كان الهتاف — كما كان السكوت — انفعالا انبثق فى النفوس من كراهة الحرب فتداعت له الأبدان المنهوكة ، وصاحت به ألسن الببغاوات ! ... كانوا مسلوبى الإرادة ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم إلى هاوية ! ...

ثم هزتهم الوثيقة فصحا النوم ! . انتبه الغافل والذاهل ، سرت فيهم الآن حميا اليقظة فجاشت القلوب والصدور ... فيم كان هذا الصك المكتوب ؟ . . كيف ؟ . . بمن ؟ . . ما جدواه عليهم ؟ . . ما غاية القوم من ورائه ؟ . . ما قصارى الحكمين فيه ؟ . . ثم ، قبل هذا كله ! ما هى القضية ؟ — ما هى ، إن لزم قضاء ووجب تحكيم ؟ ...

عشرات من الأسئلة راودتهم والأشعث يقرأ عليهم العهد والشروط . وعشرات غيرها خطرت لهم وقد خلفهم وهم منطوون على عقولهم كالقواقع ، يديرون فيها قصة هذا الوليد الأشوه الظنين ؟ . . عشرات وعشرات . عجب وتساؤل والعقول حيرى ، تلف وتدور كالدوامة ، والأكف مضطربة تنقبض على السيوف ، والنفوس ولهى تتلهف على معاودة الحرب ... فما من جواب معقول . وما من رد حاسم مقنع ، يسكن القلق ، ويكف التلهف ، ويرخى الأكف ، ويشبع الفضول ...

حتى قادة الرأى من صحابة الإمام قد أعياهم أن يردوا هذه الحيرة الغامرة عن الناس . وأنى لهم وما ردوها عن أنفسهم ؟ ... وكيف وهم كغيرهم فى غمرة ؟ ... هذا سهل بن حنيف ، رفيق صبا على منذ مولد الإسلام ، يعضل به أن يعالجهم إلا بقوله :

« أيها الناس ... اتهموا رأيكم ! ... فوالله لقد كنا مع رسول الله يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا ... »

وهذا الأشتر النخعى — ولى على فى الحلو والمر ، وحين الرخاء وحين الشدة ..

الرجل الذى ثار كالعاصفة لحظة انبثاق نداء الهدنة — قد هدأ الآن . . . ركد كالبركة الآسنة ! . . . مسه من اليأس ما جمد عاطفته ، وفكره ، ولمع عينيه فلاح كتمثال ! . . . حتى عندما عنف بالأشعث وهو يقدم له الصحيفة ، وزأر فى وجهه فأخزاه ، وحرك سيفه فشل كبرياءه ، كان عنفه عفو لحظة عاد بعدها إلى ركوده ، وقال فى تهافت واستسلام :

« قد رضيت بما صنع أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت مما خرج منه . . . فإنه لا يدخل إلا فى هدى وصواب . . . »

وهذا أيضا على — على نفسه لا يجد لهم عنده غير الملامة على ما فرط . ملامة لا تشفى حيرة ، ولا تكف قلقا ، ولا ترد مصيرا قائما أصبحوا يعاينونه من ثنايا الغد المجهول :

« إنما فعلت ما فعلت لما بدا فيكم الخور والفشل . . »

ولقد قال وأسرف فى المقال . . كم قال فأطال ، وقال فأقصر ! . . . كم حذر وكم بصر فما سمعوا منه ، ولا وعوا عنه . . . وها هو الآن ، كمن قبل ومن بعد ، يضرب لهم الأمثال :

« .... ولقد كنا مع رسول الله ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ، ومضيا على أمض الألم ، وجدا على جهاد العدو . . . ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا . . يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون ، فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا . فلما رآنا الله صبرا صدقا ، أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل علينا النصر . ولعمرى لو كنا نأتى مثل الذى أتيتم ما قام الدين ، ولا عز الإسلام . . . . »

ومع ذلك فمنطقه اللائم يرهف فيهم الشعور بالإثم ، ويورث الحسرة ثم لا يكف الحيرة . . . وكيف له ! . . كيف للإمام الآن أن يشفى داءهم ، هم الذين لم يكفهم أن رموه بالداء بل أراقوا الدواء ! . . .

ولكنه يصبر : وهل محيص عن الصبر على النعمة ؟ . . وهل سبيل إلى الرجوع ؟ . .

ويتلو عليهم :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . . . »

لقد جعلوا ! — غير أنهم حينذاك كانوا مسلوبى الإرادة من وهن الذهن والبدن ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم ! . .

٤

ما هى القضية ! . .

هذا هو السؤال ! — السؤال الذى لعله دار بكل خاطر ، وحار على كل شفة منذ كان ذلك العهد الذى كتبوه ، وما زال يدور ويحتار إلى الآن . . .

فالذين تهاتفوا بالرغبة فى الاحتكام إلى كتاب الله ، من الفريقين ، لم يفصحوا عن مداره . . .

والذين ترجموا هذه الرغبة إلى ألفاظ مكتوبة . فيها شروط وعليها شهود ، لم يبينوه . . .

وتلك الصحف ، التى طالعتنا مع الماضى الغابر بصور شتى من وثيقة التحكيم ، لا تدلنا عليه . .

وفى عماية هذا الغموض كله ، قد يعسر تلمس الجواب الحاسم ، فيبقى السؤال ليفرخ لنا مائة سؤال وسؤال ! . . .

عشرات وعشرات من الأسئلة تحيط بموضوع القضية كالهالة ، وتدور فى فلكه بلا استقرار ثم لا تبرح تلف وتدور . . .

فما الذى دعا لهذا الإبهام ؟ . . .

هل كان القوم إذ ذاك فى غير حاجة تلجىء إلى الإفصاح والبيان ؟ . . .

هل كانت القضية ، فى رأيهم ، بديهية من البديهيات التى تقابل دائما بتسليم ينتفى معه نشوء السؤال ولزوم الجواب ، فلا غناء إذن فى النص على موضوعها كما لا تقصير إن أغفلوه ؟ . . .

كأن بهم وهذه نظرتهم ! — أم لا فكيف تبرم على شاكلتها وثيقة خطيرة إلا أن يكون المتحاكمون جميعاً ، هنا وهناك ، يعلمون فيم التقاضى علما يرقى بهم إلى درجة التثبت اليقينى ، ويرقى بالقضية إلى ذروة البديهيات ؟ . . .

أجل ، ما هى القضية ؟ . . .

ما هى حين نشأت ، وهى إذ ذاك — فى حسباننا — ساطعة لا تشوبها ظلال ، واضحة لا تحتمل التأويل ؟ . . .

ما هى فى حساب هذا الفريق وإنه ، بغير شك ، حساب ذاك ؟ . . .

ثم . . . ما هى بعد لبها وتأويلها ؟ — ما هى من ثنايا خدعة الخادع ومن وراء وهم الموهوم ؟

وما هى — فوق هذا كله — أمس ، وما هى اليوم ، وما هى أبداً فى كل جيل تنفى فيه الحقائق عن الوثائق ، وتهتك الوقائع عماية الأباطيل ؟ . . .

يضرع أهل الشام ، عندما نهكتهم الحرب ، وأكلت عظمهم ودمهم ، وهم يرفعون المصاحف :

« يا أهل العراق . . . كتاب الله بيننا وبينكم . . . »

ويستجيب الضراعة من استجاب ، فى البدء ، من رجال العراق ، فيكون الهتاف الذى يلحون به على الإمام :

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه . . . »

كانوا يعلمون أنهم أسرفوا على أنفسهم ، كما أسرفوا على عدوهم ، بهذا القتال ، فإن تكن نجاة مما وقعوا فيه ، فبكتاب الله . . . كانوا يحسون هذا من قبل أن ترتفع لهم مصاحف الشام ، سواء منهم الناقق ، وعبد عمره ، وسواء المؤمن والمخدوع . . .

ويزيد الإلحاح . . .

وتبتدر الأقوال فى صور شتى من المشورة والمناصحة . ومن الإكراه والإملاء . . .

فشقيق بن ثور يقول :

« إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه . وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم . . . »

وسعيد بن قيس يقول :

« ... لم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل من أن يحكم بما أنزل الله ... »

والأشعث يقول :

« ... أجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ! ... »

وكثرة غيرهم ، قبلهم وبعدهم ، على اختلاف فى اللفظ ، واتفاق فى الدعوة ... ومن خلال لفظهم وتناديهم لم يعل واحد منهم إلى موضوع الاحتكام فيفصح عنه بكلمة واحدة تجلوه ، وتهتك غموضه إن كان فيه مايستحق منهم الجلاء والتبيين.

بل الشام أيضا جرت على هذه الجادة التى يخالها المرء لأول وهلة فضاء فارغا بلا معالم كتيه الصحراء وما هى كذلك !... إن سيدها يعلن عن القضية فلا يجىء فى إعلانه بجديد ... وإن مشيره يتناولها فإذا حديثه عنها نفس ذلك الحديث الذى تلوح به غموضا من الغموض ...

يكتب معاوية إلى على :

« ... فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصلاح للأمة ، وحقن للدماء ، وألفة الدين ، وذهاب للضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا حكمان رضيان ، أحدهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك . فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا ... »

ويكتب كذلك إليه عمرو :

« ... إن ما فيه صلاحنا وألفتنا : الإنابة إلى الحق . وقد جعلنا القرآن حكما بيننا ، فأجبنا ... »

وحتى الإمام ، رب البيان والتبيين ، لا يفصح أيضا عن القضية ذلك الإفصاح الذى يحسبه بعض الباحثين لازما كل اللزوم لإبراز موضوعها مكشوفا مجلوا يقطع الحدس والتساؤل ... فهو يكتفى حين يلح عليه رجاله ليقبل التقاضى بأن يقول :

« ... أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه . وليس يحل لى ،

ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله . . . إنى إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ... ... »

وهو يكتفى حين يجيب معاوية بأن يكتب إليه :

« ... إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ـ ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ، ولست حكمه تريد ـ وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ! ... »

كلهم إذن أبهموا — كلهم ، من هذا الفريق ومن ذاك ، كما قد يبدو للنظرة العابرة التى لا تتعمق الأمور فلا تنفذ إلى الأصول والجذور ... وبمثل إبهامهم «الجماعى» جرى ذلك العهد الذى كتبوه ، وشرطوا فيه ، وأشهدوا عليه الشهود ليكون موثقاً وحجة ...

تقول وثيقة التحكيم :

« ... إنا رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ، وأنه لا يجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته ... ... »

كتاب الله هو الحكم ...

والقضية هى الخلاف ...

أما ، « ما هو الخلاف ؟ » فلا تفصيل ...

لا إفصاح ! ...

بل إجماع على الإبهام أيما إجماع ! ...

أجل ، فكلهم أبهموا ! — كلهم : الوثيقة ، وأولئك ، وهؤلاء ...

* * *

لقد يعسر ، فى عماية هذا الإبهام كله ، تلمس الجواب الحاسم الذى يبين لنا جلية القضية ، فيبقى السؤال عنها معلقا بلا جواب ، أو يفرخ عشرات من الأسئلة وعشرات ، أو تتنوع الأجوبة عليه بتنوع الظنون والأخلاد ...

قد يحدث هذا مع النظرة العابرة التى ترى الخاتمة وتغفل المقدمة ، ومع الرأى العجول الذى يلقف ما يحمل الزبد ولا يتقصى ما تضم الأصول ، ومع الهوى حيث سرح وانساب ! ...

إنه حقا إبهام — إن جاز لنا أن نسمى الأمور بظواهرها دون ألبابها ...

وهو حقا إبهام — إن جاز أن ننساق وراء رأى يرى الغناء كل الغناء في استخلاص المعانى من منطق الأشخاص دون منطق الحوادث ...

وهو حقا إبهام — إن جاز أن نغمض العين عن هذا « الإجماع على الإبهام » ولا نحاول أن نتبين دلالة هذا الإجماع ...

أجل ، لا إفصاح ..

ولكنا نقول : لا إفصاح لأنه لا إفصاح عن معلوم ! ...

٥

« لا إفصاح عن معلوم ! . . »

هذه هى الحقيقة الثابتة التى ينبئ عنها ذلك الإجماع على الإبهام ، وتنبثق لنا من منابع الحوادث ، وتنكشف أمام الاستقراء السليم ...

هذه هى ! ... بها تنهتك عماية الغموض ، وبدونها يترنح كل رأى ، وعلى غير هديها يبطل أى تعليل قد يجرى به مرة منطق هذا الفريق ، ومرة ثانية حديث ذاك فى معرض المجادلة والتدليل ...

إنها مفتاح سر التحكيم ! . . .

فالقضية جلية ، بديهية من البديهيات التى تقابل دائما بالتسليم دون حاجة إلى سؤال وموجب إلى جواب ، لأنها من الوضوح بحيث تغنى عن النص عنها ولو بالإشارة المختصرة مع المبالغة فى الإسهاب . . .

جلية فى ذهن على ، وفى خاطر معاوية ، وفى أخلاد أولئك وهؤلاء من الأنصار والأعداء على السواء ، وإن شابتها على الأيام أدران شتى من التعليل أو التأويل ، ومن التهاويل والأباطيل . . .

جلية بغير خلاف ، لأنه خلاف قط على « موضوع الخلاف » ! . . .

* * *

من اليوم الأول الذى آلت الإمرة فيه لعلى ، نشب ذلك الخلاف بين الرجلين

وإنه لمفترض قبل أن تبدو بواكيره ، ذائع شائع بعد أن فرع واستطال ، يعرفه الناس هنا وهناك ويعرفون دواعيه . . .

ما من مسلم عاصر هذه الحقبة من التاريخ ، عربيا كان أو غير عربى ، وما من فرد ألم بأمر الأبناء وسير الآباء ، وما من باحث رد المظهر إلى العلة والنتائج إلى الأسباب إلا قد تبين عن يقين : لم ، وعلام ، وكيف دب الخلاف بين الرجلين اللذين نماهما أصل واحد ، وشاءت المقادير أن يتجاذبا سيادة الدولة الناشئة ومصير الإسلام .

أما ما هو الخلاف ، وما هى دواعيه فليس أبلغ فى تعريفها جميعا من إجمالها فى عبارة : « التنافس على السيادة » . . . ذلك التنافس الذى ولد مع الآباء ثم انحدر — جيلا جيلا — فى أصلاب الأبناء . . . وحين نكر إلى الماضى نجده محنة نفسية امتحن بها بنو عبد مناف فشطرتهم شطرين ، وأوقعت بأسهم بينهم ، مرة منافرة يسوقها التفاخر ، وأخرى خصومة ... الحسد ، وثالثة حقدا عن ترة ، ثم لا تزال المحنة تنتفخ وتنتفخ حتى تنفجر حربا مدمرة تكاد تأكل الخصوم والأولياء . . .

وندع جانبا ما وقع بين الآباء من فرعى هاشم وأمية من الخصومة فأمره غير منكور ، ونعرض فى إيجاز للخصومة الجديدة بين السليلين : على ، وابن أبى سفيان . . .

لم كانت ؟ . . وعلام ؟ . . وكيف والإسلام قد جب ترات الجاهلية وأمر أن تذاب فى سماحة تعاليمه ؟ . . .

وراء هذه الأسئلة كلها : « النفس البشرية » بما جبلت عليه من نوازع منحرفة قد يشذب الدين من أطرافها ، أو يلطف حدتها ، أو يداريها جملة إلى حين ، ولكنها — إلى هذا — تظل منطوية على ضعفها ، أو على بقاياه ، وهى تستمهل الزمن حتى تسنح لها فرصة مواتية ؛ وعندئذ ترفع رأسها ، وتنفض غفوتها ، وتسعى سعيها الوخيم الوبىء . . .

وكانت فرصة معاوية مصرع عثمان .

كانت هى الثغرة التى يستطيع أن ينفذ من خلالها إلى دنيا النفوذ والسيادة ، ومن أمامه حلم آبائه يخايله ، ومن ورائه رواسبه النفسية تدفعه وتحث خطاه . ولقد ساعده على احتيالها أنه كان تواقا المجد لم يقعد يوما عن طلبه ، ولم يقنع بما بلغ فى الدولة الناشئة من شأن قنوع غيره من الولاة والعمال بل كان يعمل ما وسعه وما أمكنته الظروف على توفير عوامل القوة لنفسه حتى قبل أن يصرع عثمان وقبل أن تمتلىء القلوب والأذهان بالسخط على سياسته . . . وساعده أيضا على توفير هذه القوة المرجوة أنه تفرد بحكم الشام عشرين عاما طويلة لا يكاد يرجع عليه فى أمرها بشىء ، وأن أخاه يزيد عمل عليها عامين قبله فكانت بهما تحت حكم أموى خالص منذ دخلها الإسلام .

أجل كانت الشام فى حساب الواقع دويلة مستقلة منقطعة من الدولة الجديدة ، وفى حساب معاوية ، وكثرة غيره ، والظروف السياسية التى لازمتها ، أرضا أموية ، مع تفاوت صغير أو كبير فى درجات التقدير . فهو الذى كان يقيم من قبله على أقسامها العمال ، وهو الذى كان يكنز من مالها ما جمع لديه ثروة ضخمة يمسك منها أو ينفق إذا شاء ، وفى الأوجه التى يختار ، مخالفا بهذا السياسة العامة التى كانت إلى ذلك الحين تجرى على سنة تقسيم المال فى الناس . هو الذى شهدناه يتخذ الجند والأحراس على نحو يقارب ما نعرفه الآن فى الجيوش النظامية الحديثة بينما بقية الأمصار ، وعاصمة الدولة نفسها ، لم تكن تعرف هذا النظام .

جاءت إذن الأيام لمعاوية بفرصته ، وأعد الرجل لهذه الفرصة المنتظرة فأحسن الإعداد ، فما له لا يقدم ولا يقتحم وكل الدلالات تكاد تهديه إلى نجاح مضمون ؟..

فى الحق أعد ، وعمل ، وثابر . . . لم يكن الخامل القاعد الذى يحلم . ولم يكن النهاز الذى يغامر بغير أسناد ولا إعداد . فلقد رنا كما يرنو كل متطلع لهدف ، وعمل كما يعمل بناة الدول وليس يبخسه قدرته فى هذا السبيل التواء الوسائل أو اعتساف الأعاليل . ومع ذلك فقد كان « حاذقا » وهو يروض أساليبه على الالتواء نحو غايته ، « كيساً » وهو يسوق التعلات والأسباب التى كانت ذرائعه

حتى بدا — فى أعين الكثيرين — كالمحق المنصف ، وبدا خصمه كالمبطل المتحيف .
ومن ثنايا هذا الحذق وهذه الكياسة نستطيع أن نستشف الصورة الحقيقية للخلاف بينه وبين على وهو موضوع القضية الذى لم تنص عليه وثيقة التحكيم .

على نحو ما كتب الإمام — عند استخلافه — إلى عمال الأقاليم ، كتب أيضا إلى معاوية يطلب بيعته :

« . . . قد علمت إعذارى فيكم ، وإعراضى عنكم حتى كان ما لابد منه ، ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ما أدبر . وأقبل ما أقبل . فبايع من قبلك ، وأقبل إلى فى وفد من أصحابك . . . »

البيعة — الطاعة للرئيس الشرعى للدولة هى كل ما كان يطلبه على ، بكتبه ورسله ، من معاوية . ورد البيعة ، أو العصيان فى كتمان أو إعلان ، هو جواب معاوية ، فى صمته ، وبكتبه ، وعلى ألسن وفوده ، إلى على . ولم يعدم أبدا فى أية مرة ذريعة تسند عصيانه أو تلفه فى علة مقبولة [illegible] تظهره أمام أنصاره غير جانح إلى العصيان ، وتدفعه خطوة إلى الأمام نحو غايته وهو آمن كل الأمان أن تزل به قدمه أو يفشل تدبيره . . .

كذلك أعد معاوية فى تؤدة ، وخطا على مهل . لم تغره قط مقومات القوة التى توفرت لديه كما لم تتوفر مثيلاتها لعامل آخر . لم تغش عينيه الرواسب النفسية التى راكمها الزمن والوراثة بعقله الباطن فيندفع فى تيارها يتخبط على غير هدى تخبط الخفاش فى وهج النور . لم يقفز — مسرفا فى التفاؤل والاعتداد — إلى غايته . إنما راح يتحسس طريقه فترا فترا ، وشبرا شبرا ، وهو يزيل مايعترضه من العقبات — صابرا مثابرا — حجرا حجرا ، بل حصاة حصاة ! ... وعندما نتعقب « العلة الكبرى » التى أصبحت مجازه إلى الإمرة المرجوة ، لسوف يدهشنا كل الدهشة ألا نجدها بين تعلاته منذ البيعة لعلى وحتى بدء صفين ! . . .

كانت علته الكبرى ذلك الادعاء الصارخ الذى رمى به الإمام ليبديه للناس والتاريخ قاتلا لعثمان تلطخت يداه بدمائه . كانت هذه التهمة الشنعاء المختلقة هى العلة التى توارى خلفها حينا ليتحلل بها من الطاعة المفروضة عليه نحو الرئيس

الشرعى للدولة . ومن التزام جماعة المسلمين إبقاء على وحدتهم . فمتى ابتدعها؟..
وأين هى من ذرائعه الشتى التى اتخذها مرة بعد مرة لتنفى عنه معرة السعى على
أشلاء وحدة الأمة كافلا بتحقيق أحلامه وبلوغ مأربه الخاص ؟ . .

الواقع أن معاوية لم يحاول قط فى مستهل خلافة الإمام الخروج على الأسماع
باتهامه البطل الجرىء ، لا عن تحرج وتلوم ، بل لأنه لم تكن ثمة تهمة فلم يكن
إذن موجب للاتهام . فهو عليم بسير الحوادث وتطور الفتنة التى أدت لمصرع عثمان
علما يضع عليا على رأس الذين دافعوا عن الشيخ إبان محنته وكفوا عنه أذى
الثوار . ولكنه حين رأى عائشة والزبير وطلحة ينهضون بحجة الطلب بدم
الخليفة القتيل شام فى دعوتهم عاملا جديدا من عوامل القوة التى يستطيع بها
تحقيق سيادته . فالخلاف بينهم وبين على حقيق بأن يلقى بينهم الدماء والتراث ،
ويضعف حزبيهم جميعاً . ويوهى تلك السيادة التقليدية التى للحجاز على أقطار
الإسلام . ثم هو بعد هذا كله كفيل بأن ينال بالشبهات من سمعة الإمام : خصمه
الذى لا منافس سواه يؤبه لخطره أو يحسب له حساب .

لهذا سكن الرجل إلى شامه ، فى بدء تمرد عائشة وصاحبيها ، يشهد ويترقب
دون أن يؤيد جانبهم تأييدا فعليا بقوة الجند والسلاح . لم ينغمس فى الصراع
الجديد انغماسا جديا كما كان ينتظر منه أن يفعل ، بل آثر انتهاج خطة مائعة
أوشكت أن تكون سلبية ، وأوشك بها أن يكرر نفس خطته عند اضطراب
الأمور واشتدادها على عثمان . فما زاد عن التفجع على القتيل ، والتحدث عن
فداحة الخطب فيه ، والقول المرسل بأنه مظلوم . وإذا كان قد كتب إلى الزبير
بالبيعة وإلى طلحة بولاية العهد بعده ، فلقد فعل وهو يعلم أنما بيعته للرجلين
ليست سوى الوقود الذى يشعل حماسهما ، ويدفعهما إلى الخروج بالدعوة من
نطاق الكلام إلى نطاق التنفيذ فتقع الحرب ، ويضعف الفريقان وهو وحده ،
من بعد ، القوى المكين الذى يسمه — فى يسر — السيطرة على مصاير الأمور .

معاوية إذن لم يتهم عليا — فى الأشهر الأولى من خلافته — اتهاما صريحا
بقتل عثمان . ولا هو أيضاً اتهم أحداً بعينه من الناس . إنما كل ما جرى به قلمه
أو لسانه فى تلك الفترة كان قولا مرسلا بغير تحديد ، مبهما بغير تصريح . . .

هو حقا — كما شهدناه — بعث إلى على ، بعيد استخلافه بشهرين أو ثلاثة ، برسالة مع رسول ، فارغة إلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا عبارة سواها تضيء خافية صدره وتكشف حقيقة نواياه . وهو ربما أباح رسوله الإفاضة فى الحديث عن سخط أهل الشام ، وقوتهم ، وتحفزهم الظاهر للأخذ بثأر عثمان ممن خلفه على إمرة المؤمنين ... ومع ذلك فلسنا نملك ، عندما نستشف الظروف الملابسة إذ ذاك ، إلا أن نرى ابن أبى سفيان قد أراد أن يساوم ويشغب فى آن . . .

أما الرسالة الفارغة فإلماع منه — فيما نحسب — إلى اتجاهه مؤقتا خطة سلبية مع الخليفة الجديد ، لا إلى موالاته ولا إلى معاداته ، حتى يذوق أمره ، ويستيقن سياسته ، ويستوثق لنفسه منه . ولعل اتخاذه جانب الحياد ، أو ما يشبه الحياد ، من بعد فى حرب الجمل ، فيه ما يومئ إلى هذا الإلماع . . . والرسالة الفارغة أيضا إن حملت معنى التلكؤ عن البيعة بالإمرة لعلى فهى ليست بالدلالة الواضحة على إنكار حقه إنكارا قاطعا حاسما فى البيعة . وهى بهذا قد يمكن اعتبارها « هدنة » تفسح الوقت للتفاهم ، أو « دعوة صامتة » من معاوية إلى على بمعاودة النظر فيما قر عليه عزمه من خلع صاحبها عن عمله بالشام .

وأما حديث رسوله فله ، كما يبدو ، هدفان : أبعدهما أن يعلن للأمة أن دم عثمان لن يطل وإن عز خصومه ، وإن داهنتهم المدينة ، وإن خافتهم كثرة رأت سلامتها فى الاعتزال . ومن وراء هذا الإعلان لاريب توجس الخصوم واستعدادهم . وتحفز للمعتزلة ومن يتابعهم للنهوض فى الطلب بالدم ؛ ووقوع الفتنة بين الفريقين بما يفسد الأمر على الإمام . . . وأقربهما تهديد على نفسه بغضبة كامنة ، وراءها أكداس من السلاح والرجال ، لا يستطيع أن يكف غلواءها عنه سوى صاحب الشام . ولعلى إذن الخيار بعد هذا ، لو شاء خلع العامل القادر ، ولو شاء أبقاه ...

هذه هى قصة الرسالة الفارغة التى أقبل بها رسول معاوية من دمشق بعيد البيعة للإمام فى المدينة بنحو ثلاثة شهور . وهذه دلالاتها وعبارتها لا تحمل اتهاما صريحا لعلى بقتل عثمان وإن حملت « إرهابا » و « فتنة » و « هدنة » و « دعوة صامتة » إلى العدول عن عزل معاوية إلى إبقائه على عمله ، وعن معاداته

إلى تألفه . وقديما تألف رسول الله معاوية بالعطاء بعد غزوة الطائف ، فما لابن أبي طالب لا يتألفه اليوم بالعمل ؟ . .

على هذا النحو « المائع » جرت سياسة ابن أبي سفيان صدر خلافة الإمام ، لا تقطع ، ولا تبت ، بل تلف وتدور ولا تكف عن اللف والدوران . كانت مشتبهة ، مهزوزة الملامح ، مختلطة القسمات . وعلى ما أكثر معاوية الخوض في قتلة عثمان فإنه لم يوجه تهمة القتل للإمام . وظل هكذا حتى بعد أن فرغ على من الجمل وتهيأ للزحف إلى الشام . ولعل في حديثه مع جرير بن عبد الله رسول على ، حين جاءه يطلب بيعته ، ما يؤيد الذي نراه . . .

يقول لجرير :

« اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية — فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنق — وأسلم له هذا الأمر ، واكتب إليه بالخلافة ... »

وكتب جرير :

ولقد صدق الإمام عندما رد على رسوله يقول : « أراد أن يريثك حتى يذوق أهل الشام » . . . فالذي حدث فعلا هو أن معاوية بدأ بعد هذا يتهم عليا علانية بالقتل ، لا يتلوم ولا يتحرج . وقد مالأه عمرو بن العاص وحرضه ومضيا يدسان معا على رؤساء أهل الشام من يلصق التهمة بالإمام ويقيم عليها الشهادة الباطلة . حتى إذا عرف أن الدس قد جاز ، راح يتهم باجتراء . وبعد أن كان يقول : « إني ولي عثمان وقد قتل مظلوما » — وسعه أن يفترى فيقول : « إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . . » ! . .

وهكذا ولدت التهمة ! . .

وهكذا ابتدعت العلة التي تحسب طائفة أنها مبعث الخلاف بين معاوية والإمام ، ابتدعت بعد الخلاف نفسه بشهور ! . . . فهل من نتيجة تسبق المقدمة ؟ وهل من معلول يسبق العلة ، إلا في منطق ابن أبي سفيان ؟ . .

٦

مهد معاوية للتهمة كأبرع ما يمكن أن يمهد لتهمة زائفة مختلقة لتبدو صحيحة مشروعة . وماله لا يفعل ؟.. إن مقتل عثمان ، لا ريب ، هو « المجال الحيوى ! » الذى تستطيع أن تتنفس فيه أطماعه . وهو وسيلته لما يريد . وهو أيضا الألوان الزاهية البراقة التى يسمها رسمه فى صورة أحد أبطال المروءات فى التاريخ ! . .

ولقد نجح معاوية حيث كان خيرا أن يفشل ، فإذا نجاحه ينزل به فى اعتبار الأخلاق . وفشل على حيث كان خيرا أن ينجح ، فإذا فشله يعلو به فى اعتبار الفضائل . ولئن قيل إنه لم يصابر ظروفه حتى تسعفه ، ولم يداورها مداورة السياسى المرن بل تعجل خلع خصمه فأثار خلافه ، وحرك عداوته فى وقت كان أحوج فيه إلى تألفه واستصلاحه — إن قيل هذا احتجاجا على على فالقول به إذن غلو فى اعتساف العلة ، والقائل به إذن مبالغ فى العذل . ولمن عذل واعتل أن يرينا كيف كان على الإمام أن يعالج الأمور إبان ثورة عاتية أول أهدافها اجتثاث عثمان وولاته وقلب كل ما ابتدعوه من أوضاع ؟ . .

نجح معاوية وفشل على ومن وراء النجاح والفشل عوامل شتى : نفسية وخلقية ومادية ، أصيلة وطارئة ، سبق بيانها ولسنا بحاجة إلى تكرارها والالجاج فيها إن بإيجاز وإن بتفصيل . . . وكان النجاح نكسة كما كان الفشل نكسة إذا ما حسبت النتائج بأسبابها الأولية الأصيلة ولم تحسب بالعوامل الطارئة والدخيلة . . .
ولكنه على أى حال نجاح قفز بابن أبى سفيان إلى إمرة الدولة بعد أن كان قد أعياه أن يظل واليا على الشام . وما يعنينا الآن أنه خالف ونجح بقدر مايعنينا كيف خالف ، كيف تدرع لهذا الخلاف ، كيف « طوع » طمعه فى السيادة حتى غدا تهمة — أو بالعبارة الرقيقة ، « حجة » مقبولة — أقنع بها أصحابه ، وما تزال إلى اليوم تجد من الناس ، بين قارئى سيرته والباحثين فى تاريخه ، من ينصره بها ، أو يراها الأساس الحقيقى للخصومة بينه وبين على ، أو يعتبرها — بأرفق رأى — لعبة سياسية بارعة يحسبها له ولا يحسبها عليه . . .

والظاهر الذى لا نراه خافيا عن العين الفاحصة هو أن الرجل قد عاش صدرا من خلافة الإمام دون أن يلهم التهمة التى اتخذها من بعد مطية لآرابه ، أو على الأقل دون أو يجاهر بها إن كان قد ألهمها فى ذلك الصدد الذى ذكرناه . ولعل خياله المبدع وبديهته الخلاقة لم يسعفاه إذ ذاك . ولعله تحرج وتلوم . ولعله خشى أن ينقلب عليه كيده إن هو انساق مع هواه وخامرت الناس ظنة فى حقيقة نواياه .

على أننا ندع ماقد عساه دار بضميره لنتابع ما كان يجريه فعلا — تلك الفترة — بسن قلمه وعلى طرف لسانه . . . فماذا نجد ؟ . . علام نقع فى بيانه المنطوق وبيانه المكتوب ؟ . . ما هى الأسناد التى تغنينا الغناء كله عن التملل والافتراض ؟ . .

هنا نجمل فنقول : إن معاوية قد أقر على نفسه ، قرابة ثلاثة أشهر ، بأن عليا « لم يقتل » عثمان .

وهذه هى أولى الحقائق التى تنطق بها شواهد الحال ويفصح عنها بيان المقال . وهى كذلك الحجة الداحضة لحجة معاوية المتسفة حين أعوزه من بعد تبرير مخالفته عن على بغير التعلل بأنه « قتل » عثمان .

فالبديهى أن التهمة — أى تهمة — وجرمها يتلازمان . والبديهى بعد هذا أن الجرم ، لو كان قد وقع من على . لقفزت التهمة إلى على فى الحال ، ولنضحت بها وأفصحت عنها أحاديث معاوية وخطبه وكتبه التى تعاصر الصدر الأول من خلافة الإمام .

لكن « تهمة القتل » التى ألصقت من بعد بعلى لم تلازم جرمها عند وقوعه ولا تفسير لافتراقها عنه إلا أنها لم تنبعث منه ، بل انبعثت من خارجه . فمتى انبعاثها إذن ، ومن أين كان ؟ .

بعد أشهر من المصرع ، ومن داخل معاوية ولا جواب غير هذا الجواب !

من داخل معاوية انبعثت التهمة المتسفة . من دواعيه النفسية التى سيطرت طويلا عليه ولم تزل به حتى دفعته ، بأهون تعبير ، إلى إشباع نزعة طموحه وكلفه بالسلطان . وحين نتعقب المخالفات البيانية المعاصرة ، التى تركها لنا ابن أبى سفيان

فى هذه الفترة ، سيظهر لنا أنها « فارغة » لا تحمل التهمة نصا ، ولا تشير إليها ولو بالإشارة العابرة ، لا من بعيد ولا من قريب . . .

ففى أول كتبه إلى الإمام لا يقابل البيعة بالرفض ولا بالإقرار ، ولا يذكر التهمة ، ولا يكاد يخط فى رقعة طوماره سوادا فى بياض . . .

وفى دعوته عمرو بن العاص ، إذ شاء أن يستعينه ، يشير إلى مقدم جرير عليه فى بيعة على ، ثم يخايله بالمغنم إذا لباه : « .. أقبل أذاكرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها . . . » ولا شىء بعد هذا أو قبله ينم عن اتهام أو خيال اتهام . . .

وفى بيعته المزعومة للزبير وطلحة ، لا نكاد نلمح إلا تحريضا على فتنة وقودها منافسوه ممن أهلتهم — دونه — سابقتهم ومزاياهم لإمرة المؤمنين ، وغايتها التى داعبت خياله القضاء عليهم ، أو تجريدهم ، فى القليل ، من قوامهم ليصبح وحده ولا منافس ولا نظير فى الميدان ... فهو يثيرهما على الإمام ، ويرسم لهما — وهو قاعد موفور آمن — خطة العمل وسبيل السير دون أن يعمل أو يسير :

« ... دونكما الكوفة والبصرة لا يسبقكما إليهما ابن أبى طالب ... » ...

وهو يدعوهما إلى الالتفاف حول العلم المشترك الذى رفعاه ، أو رفعته صاحبتهما عائشة قبله : « . . . أظهرا الطلب بدم عثمان . وادعوا الناس إلى ذلك » ، ولكنه لا يقول ممن الطلب ، ولا أين ثأر عثمان فى الناس . فإذا علمنا أن أم المؤمنين وصاحبيها كانوا يرون دم القتيل إذ ذاك فى الثوار الذين أجلبوا عليه ، وأنهم توسلوا لاختلافهم على الإمام — فى أبلغ ما توسلوا به — بتريثه عن القصاص حتى تهدأ الثورة ، وتقر النفوس ، وتستبين الأمور . . . إذا علمنا هذا ، وضح لنا فى غير خفاء أن « تهمة القتل » التى شاء معاوية من بعد إلصاقها بعلى لم تكن ، حتى هذه اللحظة ، قد ألهمها خياله المبدع أو صاغتها بديهته الخلاقة ! . .

ونعود فنسأل : متى إذن اختلقها صاحب الشام ؟ .

بعد المصرع بأشهر كما أسلفنا ، وبعد مقدم جرير عليه فى البيعة أيضا بوقت طويل : وبعد أن نفدت حيل معاوية فى مساومة على لإقراره على ما فى يديه على أى حال ! . .

وهذه حقيقة ثانية جديرة بالاعتبار ، تظهر الرجل لنا متجنيا فى اتهامه الإمام .

أجل . فلقد تردد معاوية منذ البدء فى رفض البيعة التى كان عليه أن يؤديها اتباعا لرأى المهاجرين والأنصار ووفود الأقاليم ومن بعدهم عمال الأمصار الذين بايعوا عليا بالإمرة بعد مصرع عثمان . تردد ، أو على الأقل آثر على الرفض الصريح الحاسم تمنعا قد يبديه فى هيئة المتريث ولا يبديه فى هيئة المخالف الذى يعلن العصيان . وهو بهذا ابتدع نوعا من الهدنة أجدى على غرضيه جميعا : غرضه البعيد وهو الإمرة ، وغرضه القريب وهو الاحتفاظ بعمله على الشام . . . ولعلنا لا نخطىء إذ نراها « هدنة مسلحة » يسندها تهديده بالجند والعتاد ، ثم نراها كذلك « هدنة مشروطة » توسع للمساومة ، وتفتح الباب أمام على للعدول عن خلعه ، تألفا له ، واستصفاء لوده وبأسه . وما كان معاوية بالخاسر على أى حال لو أنه فاز بأدنى غرضيه . ففى إقراره على الشام دون بقية ولاة عثمان ، وفى إلحاق جباية مصر به ، ما سوف يعده بمزايا معنوية ومادية خطيرة تزيد فى تدعيم مركزه الحالى ، وهو عندئذ ، فى رأى الكثرة وفى نظرة الواقع بلا جدال ، الرجل الثانى فى الدولة . وهى لا شك مزايا كفيلة بأن تظفره بإمرة المؤمنين خلفا لعلى لو صلح ما بينهما وأخلص هو النية فى الولاء ، كما هى كفيلة أيضا بتحقيق ظفره معجلا إن أبى إلا النكث وآثر الشغب والانتقاض .

والأدلة على انتهاج الرجل سياسة المساومة فى تلك الفترة كثيرة ، ليس أبينها طوماره الفارغ — الذى استهل به ، فيما نرى ، عهد التلبث أو الهدنة المشروطة ، والذى قد يحتل عليه بأنه أداة تأويل وما هو بدليل . ومع ذلك ففيما نقلته إلينا الأخبار والآثار ما يغنينا عن التعلق بالطومار ! . . .

ففى حديث جرير إليه ما ينبىء عن اشتراطه البيعة شريطة هى بقاؤه على عمله . . . يقول له جرير :

« . . . فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملنى عثمان ثم لم يعزلنى ، فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين ، وكان لكل امرىء ما فى يديه . . . »

وفى مقاله هو لجرير : ما يغنى عن الاستنتاج والتأويل إذ يقول باللفظ السافر الصريح :

« . . . يجعل لى الشام ومصر جباية ، وأسلم له الأمر ، وأكتب له بالخلافة . . . »

بل لقد قر فى الأذهان أن الرجل مثمن للبيعة ثمنا لا يعدل عنه ، هو عمله . قر هذا من قبل مقدم جرير عليه بكثير ، ومن بعد مقدمه بكثير ، وشفت عنه أعداد من النصائح والأحاديث . فالمغيرة ، بدء خلافة الإمام ، ينصح لعلى بأن يبقيه على الشام . وابن عباس يشير بمثل نصحه . وأشباههما كثيرون ينصحون ويشيرون وقد علموه لا ينهض فى شىء سما أو هان إلا أن يكون له من وراء النهوض فيه نفع أو — بعبارة السوم والمتاجرة ! — « جعل » حتى ولو كان هذا الشىء دم عثمان ! .. وصحب لعلى أيضا يشيرون به ، بعد استشراء الخلاف وإراقة بعض الدماء فى صفين ، فيقول منهم قائل ، والإمام إذ ذاك يستفسرهم لاستفاءة الرجل إلى الحق والطاعة :

« ألا نطمعه — ياأمير المؤمنين — فى سلطان توليه إياه ومنزلة تكون به له أثرة عندك هو بايعك ؟ . . »

ثم تفشل سياسة المساومة ، فماذا يكون ؟ . .

لا شىء إلا أن يقتل على عثمان ! . .

وهذه حقيقة ثالثة ، أو حجة الحجج التى تذرع بها معاوية للنيل من على ثم بلوغ أربه فى السلطان .

فلقد استنفد حيله فى الفوز بأصغر غرضيه عن مصالحة وتراض ، ولا معدى له إذن عن الخلاف ليدرأ العزل عن نفسه . . . فما عليه لو خالف فى سبيل هدفه الأكبر ما دامت ثمة عوامل معنوية ومادية تهيأت لعونه ، وما دامت « التهمة » سوف تبديه فى أعين الناس مناضلا عن هدف عام لا متهالكا على مأرب خاص ؟ .

ولكنه — تحوطا وحذرا — لم يفاجئ الناس بالتهمة فى صورتها النهائية الكاملة، فيهدهم به لا يعرفها ولا ادعاها وكانت أمامه الفرصة سانحة للادعاء والاتهام

إثر مصرع عثمان أو عقيبة بأيام قليلة . إنما مضى يبنيها حجرا حجرا ، ويطورها طورا طورا ، ويقطرها قطرة قطرة فى الأذهان . فلما أن اكتملت ، وتخلقت تخلق الهوام الحقــــيرة يرقة فيلجة فعذراء فحشرة ، راح يحط بقدرها على سمعة الإمام ! . .

فلعل قائلا يقول : إنما تلبث معاوية هذه الشهور بعد مقتل عثمان ليستقصى ويستيقن لا ليطور ويقطر ، فلما تثبت اتهم ولا جناح إذن عليه فى التلبث بالاتهام . . .

وهنا يسعنا أن نقول: وفيم التلبث للاستقصاء ، وما قصاراه وجدواه إلا الإعداد لباطل أو التذرع بمحال أو بما يكاد يشبه المحال ما دام للصرع قد كان على ملأ ولم يكن خفية ، وما دام القتلة — كما هو معلوم من اللحظة الأولى — كانوا فريقا من الثوار إن اختلفت فى أسمائهم الروايات فليس منها على على أى حال ؟ . .

ونكر ثانية إلى تخلق التهمة المفتراة بعد مراحل وأطوار لنعلم ما هى الأطوار . . .

مع ما نسلم به من تفاوت بين الروايات التى تنقل لنا تاريخ العرب عامة وتاريخ هذه الحقبة الخاصة ، ومع ما يغلب عليها عادة من اختلاط بعضها ببعض ، وتداخل بعضها فى بعض تداخلا واختلاطا يصعب معهما التوقيت لهذه الروايات وترتيبها الترتيب الزمنى المستقيم الذى يجعلها ثبتا أمينا لتعاقب الحوادث — مع كل هذا التفاوت والاختلاط والتداخل ، لا يعجز العين الناقدة ، وهى تعرض الخطب والكتب والأحاديث المعاصرة للأشهر الأولى من خلافة الإمام، أن تقع فيها على حقيقة هذه التهمة ، وأن تتعقب فى نصوصها ومعانيها على السواء قصة مولدها ، وأطوار نموها المختلفة طورا طورا من فم معاوية ، وبين أسطره ، وعلى لسان أخص حلفائه ومشيريه : عمرو بن العاص ، قبل غيرها من أسناد التاريخ . . .

يخاطب معاوية أهل إقليمه ، بعد حديثه إلى جرير ، خطابا « عاما » يذكر القتل ولا يمس عليا باتهام ولا بشبهة اتهام :

« يا أهل الشام . . . إنى ولى دم عثمان ، وقد قتل مظلوما . . . وأنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان . . . »

فهو يسند القتل لمجهول . وهو يدعى لنفسه ولاية الدم من دون ولد القتيل. وهو قبل هذا وذاك يستخير الناس حقيقة موقفهم أهم يا ترى متابعوه لو أنه دعا للقصاص وما يهدف إليه من غاية خبيثة وراء القصاص ، أم لعلهم قاعدون عنه لا يجيبون ؟ . .

لكنهم يجيبونه ، وهل يستبيحون القعود عن دم مظلوم ؟ . . ويقدمون عليه — تحثهم النخوة — يبايعونه على الثأر ، ويقرون له بولاية الدم المسفوك . فإذا ذاق أمرهم ، وأيقن الجد منهم ، خطا خطوة جديدة فكتب للإمام :

« . . . أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . . . »

أخذت التهمة تنفض ميوعتها ! . . لا تعميم الآن . لا إسناد إلى مجهول مادام فى طوقه إسناد بعض أركانها ، على الأقل ، إلى معلوم ! — وأى معلوم ؟ إنه أولى معلوم بالاتهام فى هم معاوية ومناه ! . .

ثم يقدم الرجل فيدفع بالتهمة إلى طورها الأخير . . . لقد أعد ومهد ، وهيأ الأذهان ، وملأ الصدور والآذان . ولقد تلبث وانتظر فما أجدى عليه الانتظار . فليقتل إذن على عثمان ! . .

وهكذا نراه بعد ثلاثة أشهر قضاها فى المراوغة قبل مقدم جرير عليه فى أمر البيعة ، وبعد ثلاثة مثلها قضاها فى المساومة عقب المقدم ، يطلع بالتهمة للفترة كاملة التكوين ، فيقول لشرحبيل سيد اليمن ، ورأس أهل الشام ، وأقدر الناس على تحريك قومها وراء مبتغاه :

« . . . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه — قتل عثمان ! . . »

هذه قصة التهمة بغير حاجة إلى استلهامها من دوافع معاوية النفسية . فيها نطقت وقائع الحال ، وعنها شفت أسناد التاريخ ، ومنها ثبت أن « الإمرة » هى السبب الحقيق للخلاف بين على وغريمه ، ولا عذر بعدها لمن يحاول تلمس سبب آخر موهوم يجهد لاعتسافه من بين ذلك الغموض المزعوم الذى غلب على نصوص وثيقة التحكيم . . .

٧

نجحت « اللعبة السياسية » التي لعبها أبي سفيان . كانت حقيقة بأن يحالفها النجاح قدر ما تقدح من جدل ، وما توقع بين جماعة المسلمين من خصومة . . . وقد قدحت فأورت ، وأوقعت فأمعنت في الإيقاع ، ثم مضت ترتب النتائج على المقدمات .

فما هي نتائجها ؟ .. ما غاياتها المنتظرة بعد عقد التحكيم أو قبل عقد التحكيم؟

ليس أخطرها على أي حال شل على عن ممارسة سلطانه في الدولة فإذا هو « صورة » أمير ، أو هو — بلفظه — أمير مأمور . . .

وليس أهونها أيضا « قشره » عن عمله بإفساد يعته كقشره ولاة عثمان فيستوي العازل والمعزول . . .

وبين هذه وتلك من النتائج « حل معقول » تطلع به اللعبة السياسية وصاحبها من ورائها يعلم أنه قل من يقول إنه غير معقول . . .

هل يرى « تنحية » على عن الإمرة إلى حين . . .

أو — بلغة القانون — « رده » عن أن يقضي في دم عثمان ! . .

* * *

تلك إحدى النتائج المحتومة ، وإنها لا ريب نتيجة «مقبولة» لا تأباها العقول التي تجيز اللعبة السياسية ، لأنها ترتبت على مقدمة « مقبولة » . . .

فعلي قتل عثمان ، أو حرض على قتله في أهون صور الاتهام . . .

ومعاوية ولي الدم . . .

فلمن يكون الاحتكام ؟ . .

يأبي المنطق أن يكون على صاحب القضاء في هذه القضية لأنه متهم ، ولا يقبل منه أن يكون خصما وحكما في آن . . .

وإذن فقد وجب « رده » ضمانا لنزاهة الحكم ، وحرية التقاضي . ولن يجد امرؤ ينظر الأمر من هذه الزاوية ظل حيف من معاوية على الإمام ، لأن «الرد»

هو الحل الوحيد المعقول الذى يدرأ الظنة عن القاضى ، ويوفر الطمأنينة للخصم ، ويكفل للقضية أن تمضى حرة إلى حيثما يجب أن تسير . . .

لهذا يكثر معاوية فى قتل عثمان ، وفى ولايته دمه ما وسعه سبيل الإكثار . لا يكاد يجد الفرصة أو ينتحلها حتى يكثر ويزيد ، ويبدئ ويعيد ، ولا غاية له من وراء هـذا إلا تثبيت حقه فى الطلب بالدم ، ثم تثبيت الدعوة إلى رد غريمه « القاضى الظنين ! . . »

يحدث بعض قراء الشام ، قبيل صفين ، وقد رأوه يتهيأ للقتال ورآهم يوشكون أن ينكروا عليه ، فيقول :

« ما أقاتل عليا وأنا أدعى أن لى فى الإسـلام مثل صحبته ، ولا هجرته ، ولا قرابته ، ولا سابقته . ولـكن . . . ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما ! . . »

قالوا :

« بلى ! »

« فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به . . . »

ويخطب الناس ، وقد طال تأبيه عن البيعة :

« . . . إنى ولى عثمان وقد قتل مظلوما . والله يقول : ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا . . . . . . »

لـكنه يمزج ولاية الدم ، ودفع القتلة إليه ، بالشرط الوحيد الذى يحقق له غرضه الخبىء : إقصاء غريمه المفترى عليه عن الإمامة والسلطان ، فيـكتب إلى أهل مكة عند مخرجه إلى صفين :

« . . . . . . إنمـا نطلب بدمه حتى يدفعوا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب الله . فإن دفعهم على إلينا كففنا عنه ، وجعلناه شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . . . وأما الخلافة فلسنا نطلبها . فأعينونا ، . . . . . إن أيدينا وأيديـكم إذا اجتمعت على أمر واحد ، هاب على لما هو فيه ! . . »

عزل بعزل ! . . يريد على أن يعزله عن ولاية الشام ، فيدعو هو إلى عزل على عن خلافة الإسلام ! . .

ويمثل هذا الطلب يجبه عليا بعد أن فشلت المساومة :

« . . . قد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . . . . . . »

هذه هي الدعوة التي دعا لها معاوية ، وروج جهد الترويج . وهي إحدى ثمرات لعبته السياسية ، وأهون نتائجها المنتظرة . وهي لا شك أحبولة محبوكة وقع فيها كثيرون في أيامه ولا تزال تطبق إلى الآن — فيما يلوح — على كثيرين ممن يعرضون لتاريخه بالمناقشة والتدوين . . .

على أنها حيلة لم تكن لتجوز على الإمام أو يخفى ما وراءها عنه . فذكره إياها متواتر ، ودحضه مزاعمها معلوم تفيض به كتبه إلى ابن أبي سفيان ، وحديثه عنه ، وسفاراته إليه . وبحسبنا منها عبارات تكشف الحيلة ، وتهتك الستر عن صاحبها حتى لتضعه من ولاية الدم موضع الدخيل المقتحم ، ومن خذل معاوية — لا من نصره ! — بحيث كان ويجب دائما أن يكون . . .

يكتب له الإمام مرة :

« . . . ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان . فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه . . . فأينا أعدى له ، وأهدى إلى مقاتله ؟ . . أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه ، أم من استنصره فتراخى عنه ، وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه ؟ . . كلا والله ! . . لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . . .

وما كنت لأعتذر من أني كنت أنقم عليه أحداثا . فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له ، فرب ملوم لا ذنب له ، وقد يستفيد الظنة المتنصح ! .. »

وكتب أخرى :

« ... فأما إكثارك الحجاج في عثمان وقتلته ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له ! . . . »

وعلى هذا النحو جرى حديث أحد سفراء الإمام :

« يا معاوية !.. إنك لا تجد شيئا تستغوي به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم : قتل إمامكم مظلوما ، فهلموا نطلب بدمه !..

فاستجاب لك سفهاء طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل بهذه المنزلة التي تطلب ! . . . . . . »

ويحق لنا أن نبين أن موقف معاوية من على في شأن عثمان على الهيئة التي بسطها الإمام لم يكن غريبا على الناس إذ ذاك أو خافيا عنهم ، بل كانوا يعلمونه حق علمه ، ويعذلون الرجل عليه ، وينكرونه منه وإن لم يكونوا ممن عرف تشيعهم لعلى . ويكفينا هنا مثلا رأى محمد بن مسلمة في هذا الشأن . فهو امرؤ أبى أن يدلى بالبيعة إلى الإمام حينما أدلى بها قومه الأنصار . وهو بهذا يحسب عليه ولا يحسب له . وقد يحسب بأرفق تقدير من المحايدين الذين لا إلى حزب العراق ولا إلى حزب الشام . . . يكتب ابن مسلمة هذا إلى معاوية يقول :

« . . . وأما أنت فلعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى . . . فإن تنصر عثمان ميتا ، فقد خذلته حيا ! . . »

وإذن فلم تخف المرامى الخفية وراء انتصار [illegible]ية لعثمان لا عن على ، ولا عن صحبه ، ولا عن أولئك الذين كانوا منه بمنزلة قطيعة أو كانوا منه ومن معاوية بموقف سواء . بل هى أيضا لم تخف عن أولياء ابن أبى سفيان وخاصة خلصائه وفى مقدمتهم : مرآة نفسه وأهوائه عمرو بن العاص ... فما كان انتصاره سوى انتصار لنفسه يلبسه بما يشاء ليبديه كما يشاء . بولاية الدم ، بالخذل ، بالتحريض ، بالقتل ، بأى من هذه التعلات المعروفة أو بها كلها مجتمعة . فيحسبه أن يبلغ أربه ، وأن يلق بغريمه المفترى عليه فى الظلال ! . . .

ويكتب له على داحضا لملاته :

« . . . وأما قولك : ادفع لنا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ . . إنما أنت رجل من بنى أمية وبنو عثمان أولى بذلك منك . . . فإن زعمت أنك أقوى على دم أبيهم منهم ، فادخل فى طاعتى ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على المحجة . . . »

لكن معاوية لا يأبه . ظل دائما وهو — كوصف الإمام له — « الذهاب فى التيه ، الرواغ عن القصد » . . . يلزم « الأهواء المبتدعة والحيرة المتبعة » ، مع تضييع

الحقائق ، واطراح الوثائق » وإنه عندئذ ليعلم أنه غوى وأغوى ، ومال وأمال.
عليم بهذا من فم خصمه ، ومن منطق الحوادث ، ومن لسان صاحبه عمرو
ثم لا يرشد ولا ينزع عن غيه وإمعانه فى الادعاء . . . فلقد قال له عمرو مرة —
وكم غيرها قال — فى معرض حديثهما عن الإمام وحقه الذى لا ينكر فى الخلافة:
« إنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه ! . . »

ومع ذلك ظلمه ! . . اختلق ما اختلق ليلوى به العقول والألسنة ثم يجعله وسيلة للعصيان : وأعانه على الاختلاق عمرو نفسه — الناطق قبل بحق على ، العارف له ! — لأنه هو الآخر عبد هوى . ممن يثمن لهم بدينهم ، ويبيعون الفرى بمثقال ! . .

وقد نعجب لمعاويه كيف يرى الحق ويحيد لباطل ، ويرى الهدى وينحرف لضلال . وقد نعجب أيضا لصاحبه إذ يحثه على الظلم والحيف . وقد نعجب بعدهما لمن تابعهما من أهل الشام وهم على بصيرة من حقيقة الأمور — لكل هؤلاء قد نعجب ثم نرانا من بعد حقيقين بأن نزيد فى عجبنا أضعاف الأضعاف حينما نجد فى صفوف الإمام ، ومن بين رجاله وأوليائه ، فئة غير قليلة يلتوى بها منطق معاوية حتى لترى فى « دعواه » المختلقة « واقعة » يدخلونها فى حيز الحقائق ولا يطردونها إلى تيه الأوهام ! . .

أجل ، قد كان ! . . فمن رجال العراق من استخفهم حب الجدل فراحوا يسفسطون حول التهمة الباطلة التى ألصقها معاوية بعلى . لم ينكروها كما أنكرها صاحبهم ولم يدحضوها بمثل حججه التى تهدرها وتهدمها وتجعلها هراء وهباء.ولم يردوها إلى أصولها المختلقة ، طورا وراء طور ، إذ هى خلجة رعناء من أثر الماضى فى قلب حاقد ، ووهم شارد فى خيال حالم — إنما قد ازدهاهم عندئذ ، دون هذا كله ، « علمهم » بأساليب النقاش والجدل والمحاجة فمضوا شأو اعتدادهم أو غرورهم من التهمة ، يحللونها ويبررونها كما تناقش الوقائع الثابتة وتبرر بالعلل والأسباب . . .

فما كان قصارى ذلك النقاش ؟ . . وما هى نتيجته ؟ . .

كان قصاراه — فيما يبدو — إشباع تلك النزعة إلى التكلف بالنقاش فى كل ما يعرض لهم من الخواطر والآراء وإن كان الخاطر للتهم ، والرأى الذى يجىء

بمقطع الحجة وفصل الخطاب . وما عهدنا باندفاعهم إلى مجادلة الإمام فى أوامره ونواهيه ببعيد . . .

وكانت نتيجته انتكاس قضية الخلاف بين على ومعاوية فإذا هى ، من لحظتهم ، وعند التحكيم ، وبعده بالسنين والقرون ، تلوح للكثيرين خلافا على دم عثمان هل سفك بحق أم سفك بظلم ، ولا تتمثل فى هيئتها الحقيقية إذ هى خلاف على السلطة يمتسف معاوية دواعيه ، مظهره تمرده على صاحب الأمر الشرعى فى الدولة ، وآثاره انقسام وحدة الأمة ، وجزاؤه فى منطق الدين والسياسة على السواء جزاء التمرد والخروج على النظام العام . . .

يسفسطون ، مفسرين سبب الحرب بين أهل الشام وبينهم ، فيقولون بالمنطق المكلف بالنقاش ، وباللسان الذى يتكلف الترتيب والتخريج والتأويل :

« . . . إن الله عز وجل أحل البراءة ممن حكم بغير ما أنزل الله ، فتوليتم الحاكم (عثمان) بغير ما أنزل الله وقد أحل الله عداوته ، وأحل دمه إن لم يرجع إلى التوبة ويبؤ بالدين . وزعمتم أنتم خلاف حكم الله ، فتوليتم الحاكم بغيرما أنزل الله وقد أمر الله بعداوته وحرمتم دمه وقد أمر الله بسفكه ، فعاديناكم لأنكم حرمتم ما أحل الله ، وحللتم ما حرم الله ، وعطلتم أحكام الله . . . . . . »

ويسفسطون أيضا ، مثل سفسطتهم هذه ، مبررين قتل عثمان :

« ... قد قبلنا من عثمان بن عفان حين دعى إلى الله والتوبة من بغيه وظلمه . وقد كان منا عنه كف حين أعطانا أنه تائب حتى جرى علينا حكمه بعد تعريفه ذنوبه ، فلما لم يتم التوبة ، وخالف بفعله عن توبته ، قلنا : اعتزلنا ونولى أمر المؤمنين رجلا يكفيك ويكفينا فإنه لا يحل لنا أن نولى أمر المؤمنين رجلا نتهمه فى دمائنا وأموالنا . . . فأبى ذلك وأصر . فلما أن رأينا ذلك منه قتلناه ..... »

وإذن فقد نجح معاوية — أغر بثه وترديده حتى التوت ، فى صفوف الإمام نفسه ، ألسن وأذهان بدعواه . . . ولم يكن جديدا على الناس خوضهم فى قتل عثمان فهو من ساعته مادة للحديث والنقاش . ولم يكن عجبا أن يذهبوا فيه طرائق ومذاهب شتى تتراوح بين الإقرار والإنكار . ولم يكن بمستغرب أيضا أن نجد بين

مقربه فئة تراه ضرورة سياسية ، وفئة تغلو فتمده واجبا دينيا ، وفئة أخرى بين هذه وتلك تأسف له ثم لا تنكر الظروف والدواعى التى انتهت به إذ تعتبرها حرية بأن تختم بمثل ذلك المصير حياة أى إنسان ، عثمان أو غير عثمان ... كلا لا نعجب ، ولا ننكر ، ولا علينا من الإثبات ، لأن تعدد الآراء فى قتل عثمان — من حيث هو جرم — واختلافها أشد الاختلاف فيه ، حقيقة تاريخية معلومة ، لا سبيل إلى إغفالها أو التهوين منها ، ومبحث كان مدار مجادلة وحوار ، ولا يزال ، منذ وقع إلى الآن . . . ولكن الذى نعجب له ، وننكره حقا ، ويجدر أن يكون دائما موضع تعجب وإنكار ، أن ينزلق هذا القتل — من حيث هو سبب موهوم لخلاف معاوية عن على — ثم ينزلق وينزلق ليدفع السبب الأصيل عن طريقه ، ويزيحه ، ويبقى وحده ولا سبب سواه . . .

لقد كتب على وقال . . .

وقد كتب معاوية وقال . . .

ومن ورائهما جرت ألسن وأقلام بأقوال أنصار هذا ، وأقوال أنصار ذاك ، وأقوال من دونهم ممن لا يحسبون فى الأنصار أو الأعداء ، على ما بيناه ، فلم نر فيما استفاض منها وشاع إلا « الخروج على النظام » علة لهذا الخلاف . . .

غير أن معاوية مضى شوطه ، يلبس ويشبه ، لتختلط الحقائق على الناس ...

ثم مضى أيضا شوطه ، يعاند ويكابر ، ويثيرها حربا من الفرى والادعاء ليغرق ذلك السبب الصحيح الأصيل فى قاع سببه الموهوم الدخيل . . .

وكيف لا ؟.. إنه لعليم بأن استجابته لحجج الإمام سوف تجرده من سلاحه ، ثم تدعه هملا فى الناس . فإذا هو خليع بلا مطمع ، بلا سطوة ، بلا شام ! . .

ومع ذلك فقد كفانا من تعلاته ، وكفانا من مكابرته وتأبيه ... ولتكن لنا نظرة عابرة فى ثنايا بعض أسطر الإمام وعباراته لنرى موضوع الخلاف الحقيق ، فى صورته البسيطة الأولية التى ظل عليها طول عمره ، منذ نشأ حتى انتهى إلى التحكيم ، وبغير حاجة ، كسبب خصمه ، إلى التطويع والتطوير ! . . . وإنها لصورة واضحة محلوة ، تضم ظلالها وأضواؤها كافة المبادئ التى تحدد لنا الإمرة ،

بمن تكون ، وفيمن تكون ، وحق الأمة فى السلام والوحدة ، وواجب الأمير فى الانتصاف لها من كل مخالف يمرضها الانقسام . . .

فى هذه الصورة ، أو هذا الدستور ، ينفصل الإمام الأمر فى سهولة ويسر . . . فالإمرة لأولى المسلمين بها :

« ... إن أولى الناس بأمر هذه الأمة ، قديمها وحديثها ، أقربها من رسول الله ، وأعلمها بالكتاب ، وأوفقها فى الدين ، وأولها إسلاما ، وأفضلها جهادا ، وأشدها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعا ... ... »

واختيار الأمير من حق تلك الصفوة المختارة من صحب محمد الذين كانوا بمثابة مجلس الأمة : لأنهم أعلم بحاجتها ، وبما يصلحها :

« . . . الناس تبع للمهاجرين والأنصار وهم شهود المسلمين فى البلاد على ولايتهم وأمر دينهم . . . . . . »

وكلمة هذا « المجلس » فى الاختيار واجبة الطاعة :

« . . . بيعة واحدة . . الخارج منها طاعن ، والمروى فيها مداهن . . . »

فمن أبى الطاعة فهو خارج على الجماعة ، شاق وحدتها ، لا يدرأ خطره عليها إلا أن يحمل على الخضوع بقوة الإقناع ثم بقوة السلاح :

« . . . إنما الشورى للمهاجرين والأنصار . فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ... ... »

هذه هى المبادىء الأساسية فى دستور المسلمين غير المكتوب الذى اتبعوه خلال عهود أبى بكر وعمر وعثمان ، أو تحروا اتباعه جهد استطاعتهم ، قد أعاده الإمام على سمع معاوية ، ومر به تحت بصره مرات . ولم يزل به يعيده ويكرره ، لا يمل ولا ييأس عسى الرجل أن يرشد وينزع إلى الصواب .

لكن معاوية أبى ، فلم يكن محيص لعلى من محاكمته محاكمة خارج على وحدة الأمة :

« ... لست أستحل أن أدع معاوية يحكم على الأمة ، ويركبهم ويشق عصاهم ... »

فإذا وقعت الحرب ، ثم تداعى المسلمون فى أثنائها إلى تحكيم القرآن فى الخلاف بين الرجلين ، فلا مراء إذن فى أن موضوع ذلك الخلاف الذى لا موضوع غيره هو خروج معاوية على جماعة المسلمين ، وإن التوت بدعوى ذلك الخارج الزائفة ألسن أقوام فى صفوف الإمام ، والتوت بها من بعدهم نوايا ابن العاص الغوى والأشعرى الظنين ! . . .

٨

قال يحدث صاحبا له :

« إن الفتن لم تزل فى بنى إسرائيل ، ترفعهم وتخفضهم ، حتى يبعثوا الحكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعهما . . . »

فحذره حينذاك صاحبه :

« يا أبا موسى . . . إياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد الحكمين . . . »

« أنا ؟ . . . »

« نعم أنت . . . »

فبان الإنكار فى وجهه :

« لا جعل الله لى إذن فى السماء مصعدا ، ولا فى الأرض مقعدا ! ... »

لكنه أدركه ! .. أدرك الزمان الذى اختلف فيه الناس ثم لم يزدهم التحكيم إلا أعنف اختلاف ! .. فالدنيا دارت . والأيام توالت تكدس على قومه أسباب الفرقة . والأمة التى كانت إلى أمس القريب كالصخرة العاتية توهى الصروف والمحن ، وتوهن الفتن ثم لا تهن ، قد أصبحت فلقتين مثل حبة الفول !... وها هو الآن فى معتزله ذاك الذى اختاره لنفسه ، ببلدة عرض ، بين الرصافه وتدمر ، يأتيه آت بما كان من قبل يكره أن ينهض فيه . . .

يقول له أحد مواليه :

« إن الناس قد اصطلحوا . . . »

« الحمد لله ! . . . »

« . . . وقد جعلوك حكما . . . »

فقلب كفيه كالحائر :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ! . . »

غير أنه لم يرفض . بل سارع ، كمن كان والنبأ على موعد مرتقب ، يتهيأ للرحيل إلى المهمة التى أشهد الأرض والسماء من قبل على تأبيه عليها ، وعزوفه عنها ، وتجنيب نفسه الكلفة بالسلم أمرها الكريه الثقيل . . .

وعندئذ يعجب صاحبه ، ويحاول أن يذكره ما عسى قد أنسى من رأيه المخالف القديم :

« يا أبا موسى . . . أتذكر مقالتك ؟ . . »

وما عليه لو ذكر ؟ . . إنه ليذكر ثم لا ينكر ! . .

على الزمن بلى إنكاره . . . فسخته اليوم سانحة تجيئه وهو قاعد ، غير ساع ولا آمل ، فتضع فى يمينه وحده مصير على بن أبى طالب كما لم تضع قبلها سانحة مصير عاهل فى يد عدو موتور ولا ولى حميم ! . . طوته طى النهار الوضىء كابوس ليلة ! . .

فلعله فرح . . . إن الرجل من الناس قد يلغط بالرأى ، ثم يلوكه لسانه . ثم لا يفتر يعيده على الآذان كلاما . منغما أنغاما ، ما شاء له أن يردد ويعيد ، ومع ذلك فقلبه فى جوفه ينكر عليه منطقه ، ونفسه تبرم به ولا ترضاه ، ودخيلة صدره تضمر خلاف ما يظهر ، حتى إذا وسعه من بعد أن يتحرر من نقاب تظاهره ، ويكشف عن خبىء ضميره ، جاء فعله غير قوله ، وطفت العقيدة الراسبة فى أعماقه — بعد طول احتباس وكتمان — تطغى بدرنها وطينها ووحلها على زخارف لسانه وبيانه المخادع المعسول ! . .

* * *

وكذلك انطلق الأشعرى ، من بعد ، إلى حيث ينتظره دوره فى التحكيم ، ليزن الأمور بميزان إدراكه الخاص ، ثم يسلكها المسلك الذى إليه تهديه رواسبه النفسية . . .

كان قدرا مقدورا أن الرجل حين دعى استجاب . قدرا لازما على الإمام لامناص منه ، ولا حيلة فيه ، بدت من خلاله الخاتمة وانكشف المصير المحتوم .. ما من فرد واحد فى الجانبين المتخاصمين ، من أهل الشام أو رجال العراق ، تجرد حينذاك من هواه وظنونه إلا استشف أن دولة على توشك أن تؤذن بمغيب كما توشك غبرة الأفق أن تشف عن طلائع الغروب ! .. حتى الذين كانوا من البدء فى عزلة ، ولم يسهموا فى الخلاف ، خايلتهم هذه الحقيقة . فالأشعرى اليمنى منشورة لهم أجمعين صحيفة ماضية ، منعكسة على رقعتها خبيئته ، مكشوفة نواياه — وإن حاول وسعه كتمانها — لكل من شاء أن يتطلع من ثنايا البداية إلى الخواتيم ...

ومع ذلك فثمة طائفة من أصحاب الإمام رأت لزاما عليها أن تهطع إلى هذا الحكم بالتبصير أو بالتحذير ... لم يدفعها إليها أملها فيه ، ولا إيمانها بأنه قد أنسى ماضيه !.. قلقها هو الذى كان يدفعها . علمها أنه ليس بثقة ولا بمؤتمن على هدفها الذى طالما تنكر من قبل له وأولاه ظهره .. إنما كان هم كل منهم أن ينفض عن نفسه وقرا ثقيلا ، حريا بأن يظل إلى الأبد يثقله لو أنه لم يتقدم فى هذا الوطن بالنصيحة — وهى غاية جهده ومنتهى قصاراه — إلى هذا الأشعرى الظنين ! ...

يقول له ابن عباس حين يلقاه :

« يا أبا موسى ... إنه قد ضم إليك داهية العرب . وليس فى معاوية خلة يستحق عليها الخلافة ، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه ، وإن يطمع باطله فى حقك يدرك حاجته منك ... »

لكن الحق والباطل فى هذه القضية لم يكونا فى نظرة أبى موسى على الهيئة التى يراها العدول من الناس ! ..

ويمضى ابن عباس ينصح :

« ... واعلم ، يا أبا موسى ، أن معاوية ... يدعى الخلافة من غير مشورة ولا بيعة . فإن زعم أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق : استعمله عمر وهو الوالى عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهى ، ويوجره ما يكره . ثم استعمله عثمان

برأى عمر ، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة . . . واعلم أن لعمرو مع كل شيء يسرك خبأ يسوءك . . . ومهما نسيت فلا تنس أن عليا بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان . وأنها بيعة هدى . وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين . . . »

بهذا الحديث الصريح البين حدثه ، فكشف له ، بما لا يدع مجالا لتأول أو شبهة ، حقيقة الخلاف بين الخصمين . ما هو إذن بدم أو ثأر ! . . ما هو بقتل عثمان ! . . . إنما كان تطلعا من معاوية إلى اغتصاب الخلافة ممن عصبها المسلمون برأسه وقلدوا بيعتها عنقه . . . وإنما كان انسياقا منه وراء نزوة أطماعه تحثه عليه « بيعة » أدلى بها إليه أنصاره أو « رعاياه » في الشام . . ، وإنما هو إذن خروج منه على وحدة الأمة أوقع في صفوفها فرقة وانقساما وليس له عند صاحب السلطة الشرعية ، الأمين على سلامة الدولة ، إلا ما لكل متمرد خارج على النظام . . .

وينطق أبو موسى جوابه ، كلاما ، منغما أنغاما ! ... ينطق من طرف لسانه فيقول :

« رحمك الله ! ... والله ما لي إمام غير علي . وإني لواقف عندما رأى ، وما أنت وأنا إلا بالله ... »

ومع ذلك فقد كان خليقا بشك الشاكين وريبة المستريبين ... الكثيرون ممن عرفوا ماضيه ، وخبروه في أمسه القريب، يتهمون الآن منطقه . أقد صدق؟. أأخلص النية ؟ . أهذا الحديث منه اليوم مرآة قلب يؤمن حق الإيمان بما ندب له أم هو صدفة ظاهرها زخرف وجوفها فراغ ؟

ويقبل عليه الأحنف بن قيس ، يسرع به الشك ثم يبطئ اليقين ! ... إنه يحدثه . وينصح له ، ويشير عليه ، حتى إذا نصح وحذر بما يسمه النصح والتحذير أطلقها من بعد كلمات رقيقة ، بريئة الظهر ، ليبلوه ، ويعلم منه أصلحت نفسه حقا وصفت للإمام أم قد بقيت على رأيها القديم السقيم ؟ ... يقول الأحنف ، كأنما يسوق فكرة طارئة قد تؤدي مناقشات التحكيم إلى تبنيها حينما يعضل بالحكمين الاتفاق على الرأي الحق الذي لا وحدة ولا سلام بغيره :

« . . . فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلى ، فليتخذ أهل العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليتخذ أهل الشام من قريش العراق من شاءوا . . . »

فلم ينكر الأشعرى فكرة هذا الاقتراح . ولم يبد عليه أنه لا يجد لها مكانا فى خاطره الجدير بأن تمتلىء مخارجه ومداخله بفكرة غيرها تذود عن الحق البديهى للإمام . . . فكأنما كان لا يرى جناحا عليه فى تقبل آراء تنأى به عن الجادة المستقيمة التى حددها كتاب الله لفض كل خلاف ، وعن الخطوط السوية التى رسمها دستور المسلمين غير المكتوب وتقاليدهم المقررة فى اختيار الخلفاء . وكأنما كان — بأرفق تعبير — لا يستشعر هنة من ضير فى زوال ولاية أمور الأمة عن صاحبها الشرعى وقد اختير هو حكما ليؤدى عنه ، ويدفع عن حقه باطل خصمه . . . كلا لم ينكر ! . . إنما تقبل الفكرة المقترحة بإقرار ، أو باستسلام يشبه الإقرار . فقال :

« قد سمعت ما قلت . »

وسمع على ! . . وهل كان يملك إلا أن يسمع ثم ينتظر ؟ . . إن الأحنف يسرع صوبه قلقا مهموما ، ويجأر وفى صوته رنة نذير :

« يا أمير المؤمنين . . أخرج أبو موسى والله زبدة سقائه فى أول مخضة ! . »

فيبتسم . هو بحقيقة الأشعرى عليم .

ويتم الأحنف :

« . . . لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكر خلعك ! . . »

لكن هذا النذير لا يهزه . . . فما الإمرة ! . . ما ملك هذه الدنيا بأسرها !. ما النصر الذى يود الأحنف بن قيس — بجدع أنفه ، وحتف ثقته واستقرائه مقدمات الأمور — لو يجىء ، وإن على يدى الأشعرى : السفير الظنين ، كما تجىء الخوارج مباغتة ، وتقع المعجزات بغير إعداد ولا تدبير ! . .

ويجيبه الإمام بهدوء :

« الله غالب على أمره . . . »

« فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين ! . . »

***

ثم يمضى أبو موسى شوطه ، وشأو رأى مكتوم — كان يحبسه من بضعة أشهر — أتيح له اليوم أن يطلقه من ربقة خوفه ، أو حذره ، أو تحرجه ، أو أيما عاطفة حكمته أن يجاهر — بعد عزله من الكوفة — بسياسة العزلة والتخذيل التى كانت ثمرته . . . وإذا كان الأحنف بن قيس قد داوره ، ولم يرد أن يجبهه بهذه السقطة القديمة ، فشريح بن هانئ جبهه ، وحذره أن تكون لها فى نفسه بقية تفسد عليه نزاهة حكمه ، وتقضى على الرجاء الذى ظل رجال متفائلون يعلقونه به . . . يقول شريح وهو يودعه إلى دومة الجندل ، مقر التحكيم :

« يا أبا موسى . . . إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ، ولا تستقال فتنته . ومهما تقل شيئاً ، لك أو عليك ، يثبت ... وإن كان باطلا .. إنه لا بقاء لأهل العراق إن يملكها معاوية . ولا بأس على أهل الشام إن ملكها على . وقد كانت منك تثبيطة أيام قدمت الكوفة ، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينا ، والرجاء منك يأسا . . . »

فإذا الرجل يبدو كالمغضب لهذا التذكير بسقطته ، فيجيب غير مهاود :

« ماينبغى لقوم اتهمونى أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلا أو أجر إليهم حقا ! »

عندئذ يعقب صاحب له بالرجاء فيه :

« إن أبا موسى سيدرك حقنا . . . »

فيهدأ الأشعرى ويقول :

« والله إنى لأرجو أن ينجلى هذا الأمر وأنا فيه على رضا الله . . . »

على أن الرجاء واليأس منه قد حسمهما ، بعد هذا ، المغيرة بن شعبة . أحد الدهاة فى العرب ، والرجل الذى كان له فى ولاية معاوية رأى لم يقره عليه الإمام . . فلقد بعث معاوية حينذاك ، والحكمان لم يلتقيا ، إلى فريق من قريش كره أن يعينه فى حربه ، يستلحقهم ليشهدهم خاتمة الأمر . . . وكان فيهم ابن الزبير . وكان فيهم ابن عمر . وكان فيهم المغيرة الذى أسرع به فضوله من الطائف بالحجاز إلى هذه البقعة بين العراق والشام . .

واستقبله معاوية يلاينه عسى أن يستصفيه ويستخلص دهاءه ليوم قريب . وأصغى المغيرة إليه وسمع منه ، فلما أن فرغ تلطف ابن أبي سفيان وسأل زائره :

« . . . ما ترى يا مغيرة ؟ . . »

تفكر الزائر الحذر هنيهة ثم قال :

« يا معاوية . . . لو وسعني أن أنصرك لنصرتك . ولكن ، علي أن آتيك بأمر الرجلين . . . »

وفعل . ودخل زائرا على أبي موسى ، يحادثه ليذوق أمره :

« يا أبا موسى ... ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ؟.. »

فلم يكن أسرع إليه من جواب الأشعري شيء :

« أولئك خيار الناس . . خفت ظهورهم من دمائهم ، وخمصت بطونهم من أموالهم ! . . »

وركب المغيرة إلى عمرو :

« يا أبا عبد الله .. ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ؟..»

فلم يكن أسرع إليه من جواب ابن العاص شيء :

« أولئك شرار الناس . . . لم يعرفوا حقا ، ولم ينكروا باطلا . . . »

من هذا الحديث وضحت نية الأشعري للمغيرة حتى لقد انطلق بها إلى معاوية يعلنها وإنه عند ذلك غير مخدوع :

« . . . أما عبد الله بن قيس فخالع صاحبه ، وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذي عرفت . . . »

ومن هذا الحديث أيضا يتبين لنا الرجل على ما كان عليه بالأمس ، له نظرته الأولى ، وسياسته السلبية التي أقعدته عن انحيازه لهذا الخصم أو لذاك . .

أفتلحاه يا ترى الآن إذ هو أخرج زبدة سقائه ، ونضح حقيقة بما فيه ؟ . .

لكأني إذن بفئة من الناس تراه ، أمس واليوم وفي غده ، مخلصا لرأيه ، ثابتا عليه ، ولم يغير منه شيء ، فإذا هو في حسبانها يرتفع إلى مستوى أصحاب المثل والمبادئ . . .

وكأن بغيرها فئة أخرى تصوبه ، وتستطيع أن تزعم له صدق النظرة واطلاعها على المجهول ، إذ تنكشف له الأحداث فإذا الناس هذا اليوم فى فريقى العراق والشام ، قد « ثبطتهم » الظروف عن الحرب فقعدوا مثله يلتمسون عافيتهم فى السلام أو فى السعى إلى استفاءة السلام . . .

ومن حق الأشعرى أن يستمسك برأيه . ومن حقه أيضا أن يرى فى هذا التحكيم رجعة من الناس إلى تلمس خطة هينة ، ليس فيها عنف الحرب ، وتدنو هونا من خطته التى دعا بها وهو فى الكوفة إلى القعود عن المشاركة فى القتال ليجبر الخصمين على التزام الحسنى لفض ما وقع بينهما من النزاع . . . من حقه لا ريب كل هذا وكثير غيره مما عساه قد خاص ذهنه حينذاك ، ويخاص الآن أذهانا أخرى من الآراء والنظرات ، ثم من حقنا بعده أن نتساءل أكان أيضا له أن يخضع قضية التحكيم ، وهى قضية عامة ، لرأيه الخاص ؟ . .

كلا ! . . وكلا بلا جدال ! . . فلم يكن أبو موسى يمثل نفسه . كان يعلم أنه يمثل العراق والإمام . وكان يعلم أنه قد اختير ليتحدث عنهم برأيهم لا برأيه . وكان أولى به — إذ أيقن أنه لا يستطيع التحرر من رأيه القديم — أن يستقيلهم اختيارهم ، كما كان أولى به من قبل أن يستقيل الإمام ولايته على الكوفة ثم لا عليه لو اعتزل ، ملتزما سياسته السلبية ، أو داعيا لها بصفته الشخصية لا بصفته العامة . .

ولكنه لم يتجرد من نظرته الأولى . وأبى إلا أن يساير فى التحكيم هواه ، فخذل الذين جاءوا به ، ونصر الذين كانوا أولى عنده بالهزيمة والخذلان . ولئن قيل إنه « حكم » وما هو بنائب ولاسفير لأهل العراق فليس يحق إذن عليه التزام رأيهم والدفع عنه . . . إن قيل هـذا فإن القول به لا يهدر الحدود التى كان على الأشعرى ، بأية صفة من الصفات ، التقيد بها والسير محكمة فى نطاقها المرسوم . .

لقد كان جليا له ، قبل اختياره وبعد اختياره ، فيم اختلف الناس ، ولم اختاره أهل العراق ، وأية مبادئ — بنص وثيقة التحكيم — عليه التزامها وهو يناقش رفيقه ابن العاص ليخلص وإياه إلى الحكم المطلوب . . . كان هذا كله جليا ، وأجلى ما فيه ذلك النص الصريح فى الصحيفة الذى أوجب « الحكم بالقرآن » .

فإذا رأى أبو موسى من بعد أن « يجتهد » الرأى ثم يحكم بما يراه ، فحكمه إذن مردود منقوض لأنه لايقوم على مبدأ « الحكم بالقرآن » ، واجتهاده إذن اسم جديد لهواه لأنه « لا اجتهاد مع نص » ! ..

ومع ذلك فقد مضى شوطه ... لعله كان أسير نظرته القديمة ... لعله انزلق فى دعوى معاوية ... لعله خدعته خدع ابن العاص ... على أى حال ، نسى الرجل — فيما بدا — لفتة الأحنف ، ووصية ابن عباس ، وتحذير شريح ، وهو يتخذ سبيله إلى دومة الجندل . أفلم يكن أجدر به أن يذكر ، فيعتبر ، ما عساه قد أنسيه ، وهذا كتاب من الإمام قد لاحقه ، إلى حيث أقام بتلك البقعة بين الشام والعراق ، فيه تذكرة ، وتلميح بالشك ، وتحذير من الميل والزيغ ؟..
لقد كتب على إليه إذ ذاك :

« ... إن الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم ، فمالوا مع الدنيا ، ونطقوا بالهوى . وإنى نزلت من هذا الأمر (الخلافة) منزلا اجتمع به أقوام ، أعجبتهم أنفسهم ، أداوى منهم قرحا ... وليس رجل — فاعلم ! — أحرص على جماعة أمة محمد وألفتها منى ، أبتغى بذلك حسن الثواب ، وكرم المآب . وسأفى بالذى أخذت على نفسى وإن تغيرت (أنت) عن صالح ما فارقتنى عليه !.. »

١

كانت العودة حزينة ... العيون ساهمة . القلوب مكلومة . الرءوس خافضة . وهذه الأجسام التي مشقتها خشونة الصحراء ، وضمرتها شدائد السلم والقتال لاحت رخوة متداعية كأنها بلا عظام وأعصاب . وهذه البشرة الحنطية التي أنضجتها حرارة الشمس ، ولوحتها أطياف الأشعة ، بدت شاحبة كأنما امتصها الرمل رونقها ، أو عكس عليها لونه الأصفر . . .

بلا حياة . في خمول وتثاقل . يمثل حركة الظلال أو الدمى المنحوتة عادوا يطلقون الأقدام على طريق حياة هي الموت وقد خلفوا وراءهم ساحة موت كانت لهم في جنباتها حياة ... تقهقروا إلى مواطن الدعة . ارتدوا للسلم ينسلون صوب الكوفة ففيها ملاذ لكل حالم بالطمأنينة يرخي جفنيه عن غوائل الحرب فعل النعامة عن سهام الصياد ! . .

وخلف ظهورهم كانت صفين . البقعة التي غدت بقعة كبيرة من الدم ! المثوى الفسيح الذي التقم وما تخم ، وشرب وما شرق ! . . الأرض الندية الحمراء ! فكم لونوها ! . . وكم أودعوها ! . .

كم تركوا عليها وهم يعودون ! . . كم خفقة قلب ، وخلجة صدر ، ولمحة عين من اللمحات اللواتي تترجم عن القلوب والصدور ! . . كم أهدروا ، هناك ، فوق أرضها من عواطف ، من حنان الأبوة . من وفاء البنوة . من التعاطف الذي كان حتى أمسهم القريب يربط بين الرفاق في السلاح ! . . تلك الأعداد الوفيرة الكثيرة من الأعضاء والأجساد التي غيبوها عن عيون الأنجم تحت التراب . في قبور غير معلمة ، ليست كل ما ضيعوه . فالصفاء أيضاً قد مات ! . . .

حتى النمط الذي صاحبهم عند مخرجهم من ميدان الموقعة ، مات هو الآخر ! . . دفنوه في صدورهم . وأدوه حسرة حية تضطرب بعد أن عملوا نهارين وليلتين في إهالة ثرى صفين على قتلاهم . أم لا ، ففيم هو الآن ؟ . . وما جدواه ؟ . .

لقد ربح من ربح وخسر من خسر وليس بينهم رابح على الإطلاق ؟ .. إنهم ليعلمون أن النقاش نقش على الهواء ! صرخة بلا صدى ! هينمة كهينمة النائم ! .. وإذا كان له ما وراءه ففرقة أقصى من هذه التى أشاعها بينهم ، منذ أيام ، نداء التحكيم . . .

كلا ما لهم اللحظة طاقة لجدل ، ولا قبل بحديث . . . هذه نفوسهم تبرم بهم . تعاف ما كان منهم . تخجل أن تبدىء فيه وتعيد . فالسلم الذى تنادت به بعض طوائفهم أطلع التسليم أو ما هو أدنى فى اعتبار الحقائق من التسليم . والحرب التى تصايحت بها بعض فرقهم كانت أدنى إلى أن تكون مذبحة تقط فيها أعناق قلة متحمسة بينما الكثرة المفتونة بإغماد السيوف واقفة تنظر . وبين أولئك وهؤلاء كانت طوائف وفرق تترجح فى حيرة ، لا تلحق بأحد الحزبين لأنها لم تكن على يقين مما تريد ... أما الآن فكلهم فى هذه الحيرة : أصحاب التردد ، ودعاة الحرب ، والمبشرون بالسلام . . .

كلهم فى هذه الحيرة وهم يحركون أقدامهم للعودة ، ينطلقون فى تثاقل ، ويتذاءبون على منبسط الصحراء فى مسيرهم متداعين ، بلا إرادة ، كالهشيم حين تدفعه الريح ! .. بلا عظام ، بلا أعصاب كأنهم ظلال ! .. والمشاعر فى صدورهم موءودة ، والخواطر فى عقولهم خرساء ، والكلام فى حلوقهم مختنق ، وليس فيهم من علائم الأحياء إلا زفرة تضطرب ، وخجل يرخى الأهداب ، وحسرة تحنى القامة . . .

وسمعوا الإمام يبتهل لربه ، فى نبرة حزينة :

« ... اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى المال والأهل . . . »

فكأنما هم فى حلم . وكأن دعاءه قد شد شفاههم إليه فرددوه بغير وعى ، خافتين . . . ثم ذابوا خجلا . ثم تهافتوا حسرة ، والأقدام والمطايا تتحرك بهم إلى الجنوب . . .

فى سهوم ووجوم . وفى انكسار وكآبة ، راحوا يأخذون على شاطىء

الفرات صوب النخيلة ضاحية الكوفة ، حاضرتهم التي شهدتهم من أشهر يتعجلون زحفهم إلى الشمال ليقطفوا النصر ! . . . فما أقرب اليوم من أمس ، وما أبعد الحال عن الحال ! . . إنهم ليسيروا سير الذاهل ، لا يكادون يلقون بالا لمن يستقبل ولا لمن يودع . أفواههم تعيي بالكلمة ، وعيونهم تثقل بالنظرة . حتى الطريق التي أقبلوا عليها إلى صفين قد مالوا عنها ، وأخذوا غيرها أخرى ، كأنما أخجلهم أن تشهدهم وهم على مثل فشلهم ، وتهاوى أيدهم وعزمهم ، وتفرق رأيهم وهي التي من قبل شهدتهم وعزمهم منيع ورأيهم جميع . . .

واجتازوا هيت . وبلغوا صندوداء . . . وذهب مساء ، وجاء صباح . . .

عندئذ انتفضوا أحياء ! . . تدفق الدم في وصائل الدمى المنحوتة ، وفي أطياف الظلال ! . . إنهم الآن قطعوا شوطهم . بلغوا آخر المراحل ... فها هي النخيلة . هاهي من ورائها أبيات الكوفة تلوح لهم كالبقع الشهباء في ثوب النور . ها هي وجوه أقوامهم ، تكاد تطالعهم في أخيلتهم الس[illegible] سامتة زارية . . . وهل هي إلى سويعة أو بعضها ثم يلقون الناس ؟ . . ويسمعون لوما أو يسمعون سخرية ؟ .. ويرجهم عويل هنا وعويل هناك !. فما الذي تراهم أعدوه للقاء ؟.. لا الصمت يجدي عليهم ، ولا الوجوم يغني عنهم . . . هذه شفاههم تنفرج . وصدورهم تضطرب . وعقولهم تصطنع وتعمل المشاعر المدفونة في أعماقهم تمزق الأكفان . الخواطر الحبيسة في أذهانهم تكسر الرتاج . الكلام المخنوق في الحلوق راح يتشكل همسا : فلغطا ، فطنينا ، فتصايحا وصرخات ! . .

وعنف النقاش . . . فرغ الآن همهم من مشقة السفر ، ومشغلة الوجهة التي تحلهم إياها ارتدادهم الفاشل عن صفين ، وانبسط حيالهم من زمانهم فراغ تستطيع ألسنتهم المنهومة للجدل أن تتسابق فيه ، وأن تشتبك ، وأن تتصارع — فلا بد من حجة يسوقونها للناس ، وعذر يسترون به أوبتهم التي عادوها على استحياء ! . .

ولقيهم عن مدخل البلدة ابن وديعة الأنصاري : فأسرع يستقبل الإمام ، وأسرعوا هم يرجئون مهاتراتهم ، ليصغوا في حديثه إلى ما قد يدلهم على رأي أهل حاضرتهم فيهم . . .

ويسأله على :

« ما سمعت الناس يقولون فى أمرنا هذا ؟ . . »

فيجيبه الرجل :

« منهم المعجب به ، ومنهم الكاره له . . . والناس كما قال الله تعالى : ولا يزالون مختلفين . »

« فما يقول ذوو الرأى ؟ . . »

فيتردد هنيهة ، متحرجا ، قبل أن يقول :

« يقولون إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه ، وحصن حصين فهدمه ، فحتى متى يبنى مثل ما قد هدم ، وحتى متى يجمع مثل ما قد فرق ؟ . . فلو أنه كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه ، فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك ، إذن كان هو الحزم ! . . »

هنا يظهر الغضب فى وجه الإمام ، ثم يتلوه أسى ، ثم تنطلق عينه تومىء إلى الجموع العائدة معه ، أو العائد معها إلى حيث أرادت ، ويقول بنبرة مرة وهو يقلب كفيه من عجب :

« أنا هدمت أم هم هدموا ! . . أنا فرقت أم هم فرقوا ! . . . . . . »

ويمضى وجهه . . .

ويعود اللغط والطنين والتصايح . . . صحا فى جيشه الخلاف بعد أن نام . وأقبلوا فيما بينهم يترامون ثانية باللوم والشتم ، ويتراشقون بالدعاوى والتهم : هذه الخاتمة المخزية التى انجلت عنها صفين قد جرها عليهم هذا الفريق ! — كلا بل ذاك ! — كلا بل أولئك الذين ترجحوا بين الفريقين لا يقرون ولا ينكرون !.. والتهم تحشد . والدعاوى تكدس ، والفرى تكتال بالكيل الأوفى وليس فيهم ، مع هذا كله ، رجل واحد إلا نزه نفسه من الوزر وألقى بالتبعة على كاهل سواه . ولولا ما كان بهم من إعياء الرحلة ، ولولا دنوهم هذا من الأهل والعشيرة لكانوا احتكموا حينذاك للسيوف والرماح بدل احتكامهم للعصى والسياط ! .

أجل . فلقد وسعهم أن يتشاتموا ، ويتنابذوا بالألقاب . ووسعهم أن ينزو بعضهم على بعض فيضرب بعضهم وجوه بعض . وأوشك سلاحهم آونة أن يتشابك

ويتلاحم . لم يتلوموا هنيهة ولم يستشعروا حرجا أن كان الإمام فيهم فما يحرجهم شيء ، ولا يكفهم شيء . أفلم يهدروا هناك ، على رمال صفين ، كل العواطف الكريمة : حنان الأبوة ، ووفاء البنوة ، وحتى ذلك التعاطف الذي يؤلف دائماً بين الرفاق في السلاح ؟ . . .

مرة ، وثانية ، ومرات تلاحوا وتشاتموا وتضاربوا وهم على الطريق للكوفة . ولم تشهدهم البلدة من بعد إلا عدوين . ولم يستقبلوا أبوابها إلا فرقتين على خصومة جامحة . وعندما أخذت مطيهم وأقدامهم تطأ مدخل الكوفة ، كانت فرقة منهم تصيح بخصيمتها :

« ويحكم ! . . فارقتم إمامنا ، وفرقتم جماعتنا ، و . . . . »

فإذا الأخرى تزأر :

« يا أعداء الله ! . . أدهنتم في أمر الله ، وحكمتم ! . . »

ثم تنحرف بجمعها عن الصفوف العائدة كأنما ضاق أن يحتويها وإياها مكان أو يجمعها طريق . . . تنحرف في لجب وضجيج إلى قرية حروراء تلوذ بها عن هذه الحاضرة التي يعود إليها الإمام والذين تابعوه . فما لها معه مقام . فرقهما الرأي فليفرقهما الموطن ! . .

ويحزن الإمام . ويمضي بصفوفه الباقية في دروب حاضرته والألم يعصف برأسه ويرنح خطواته . . . في صمت أجوف يسير . ومن ورائه لا تزال تدوي كالطبول صيحات هذه الفئة الخارجة عليه من أصحاب حروراء ... تدوي صاخبة هادرة ، غاضبة ثائرة يهتاف أكثر من عشرة آلاف لسان :

« البيعة لله ! . . . البيعة لله ! . . »

ولكنه لا يزايل صمته ، ولا يروض نفسه على التطلع نحوها إلى الوراء . . . إنما ينطلق قدما ، إلى منتجعه المنتظر بالكوفة ، بصفوفه الصامتة كصمته ، الأسيانة كأساه . . في وجومه الحزين ينطلق ، وئيدا وئيدا ، خطوة خطوة . حتى إذا طالعته القبور بظاهر البلدة ، ضيق الخطا ، وخفف السير ، وانقشعت سحابة الوجوم لتفسح لصفاء الخشوع على محياه .. فهاهنا دائما الخاتمة ، في حفرة كهذه الحفر ! ..

هنا تصغر النفس حتى تفنى ، ويرق الجسد حتى يشف ، وتذوب الخلافات والأطماع ! . . هنا تصبح الحياة عبرة . . .

ويقف يخاطب ساكنى ذلك القفر ، فى هدوء :

« السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة . . . أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، بكم عما قليل لاحقون . . »

ثم يرفع وجهه إلى السماء ، يناجى ربه بالرجاء والضراعة :

« . . . اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم . . . . . . طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله عز وجل بذلك . . . »

٢

عادوا من وادى الموت ينسابون إلى قلب البلدة انسياب الأنهار ، بغير ضجة ولا هرج ، فالأرض تحتهم خرساء لا تستجيب لوقع الأقدام . وكانت عودة هادئة ، لينة كأنما مشوا على ريش . ولكنها كانت أيضاً حزينة ، فأينما خطوا كان بكاء . وأينما كانت أدمع لاحت الأعين من وراء غيومها الرقيقة كسيرة ذابلة وهى تجول من صفوفهم فى ثغرات فارغة كان يملؤها أمس القريب أحباب واراهم التراب الندى فى صفين . . .

وكانت البيوت كالمهجورة . وكانت الطرقات موحشة وإن غصت بالرجال والصبية ، فالبكاء صامت والأنين مكتوم . من هنا تند زفرة ثم يستردها التجلد .

من هنا تبدر أنة ثم تغرق فى الصمت . ووراء هذا الجدر لواعج ذاهلة ، لا تعربد ولا تصيح ، والجيش يسير فى تراخ ، ثقيل الخطا ، ثقيل القلوب . .

لكن غاشية الصمت التى لفت السكونة لم يتح لها حينذاك أن تدوم . كانت مثل غيمة من غمائم الصيف بددتها خفقة ريح . . الدمع الحيى ينطلق . الحلوق تنفسح للغصص . الصدور تضيق بالأنين . كلما تقدموا على الطريق أوغلوا

فى الحزن . وكلما أوغلوا سكت الصمت وتحدث التفجع . . . نطقت القلوب المتجلدة بالمواجع ، فكان صياح وكان عويل . . .

ويرتج الجمع . وتضطرب الخطا والبكاء فى هذا الحى قد زلزل تحتهم مواطئهم وهز عمد الفضاء . . . ويرفع الإمام عينا عاتبة ، فيها شعاع من الرثاء والمرحمة ، إلى رجل من أصحاب الطريق يلقاه . ويقول فى عطف مشوب بإنكار :

« أيغلبكم نساؤكم ؟ . . ألا تنهونهن عن هذا الرنين ؟ . . »

فيدارى الرجل من حزنه فى حيائه ، ويجيب بخفوت :

« يا أمير المؤمنين . . . لو كانت دارا . . . أو دارين . . . أو ثلاثا قدرنا على ذلك . ولكن — ليس دار إلا فيها بكاء . . »

ويطرق الإمام . ويسكت الرجل هنيهة وقد هاضه أن يسير فى الحديث ، ويرخى إلى الأرض عينيه . . . حتى إذا وسعه بعد قليل أن يرفع بصره كانت على أطراف أهدابه قطرات أدمع مستحيية ! . .

ثم يكتسى التجلد . . . يهز رأسه كأنما لينفى عن نفسه وأهل حيه الخور والتهافت والتسليم للفجيعة . ويضغط بأسنانه على شفته السفلى مغالبا عاطفته ، ويقول وهو يرسم على ملامحه المكتئبة أطياف بسمة مشرقة :

« . . . أما نحن ، معشر الرجال ، يا أمير المؤمنين ، فإنا لا نبكى . . . ولكن ، نفرح ! . . نفرح لهم ! . . . ألا نفرح لهم بالشهادة ؟ . . »

فيأسى على له . ويربت ظهره مواسيا . . . ويقول وصوته الهادئ يذوب حزنا ورحمة :

« رحم الله قتلاكم وموتاكم . . . . . . »

وإنها لرجاء ودعاء : الرجاء الذى يملكه حى لميت ولا غاية بعده لأمنية أو رجاء ، والدعاء الذى ينتظره ميت من حى ولا رقية غيره لمتلهف على دعاء . وإنها بعد هذا لعزاء . . .

ويمضى الإمام صابراً محتسبا ، تخب به دابته . ويمضى الرجل ، متصبرا يسير فى جواره . فإذا على عند هذا يكبح دابته فتقف ، ويخاطب هذا الرفيق المحزون :

« ارجع . . فإن مشى مثلك مع مثلى فتنة للوالى ، ومذلة للمؤمنين . . . »

ويأخذ سبيله وجيشه إلى القصر . . .

غير أنه لا يبلغه إلا وقد غدا هدفاً للمزة من هنا ولمزة من هناك . فما سلم من لحى القوم ، ولو من لومهم هم الذين أولى بتبكيته وعذله وقد جنوا عليه ثم يوشكون أن يسلموه يومهم وغدهم لقبضة مصير مؤلم رهيب ... ولكن الناس هم دائما الناس ، يتربصون بالمهيض الدوائر وإن وطأوا له المزالق تحت قدميه.. وها هو رجل من القوم يسخر ، لا يرده عن السخرية ذوق ، ولا تكفه عنها محنة جديرة بالرثاء والتهوين ، يقول هذا الساخر في غير حياء !

« ما صنع على والله شيئاً . . . ذهب ثم انصرف في غير شيء ! . . »

ويقلب كفيه ويهز رأسه . وتسرى كلماته الجارحة ، دون أن يدرى ، إلى مسمع الإمام فيلتفت إليه بنظرة زارية يغيض لها الدم في وجنة العاذل المجترىء ، ثم يقول لأصحابه :

« وجوه قوم ما رأوا الشام العام ! . »

فقد عذل وهو قاعد ، ولام وهو بقعوده أحق بالملام . ولكنها الألسن التي تتصيد الهنات ، والأعين الموكولة بالتطلع إلى ذرة الغبار في غيرها وفيها هي من القذى مثل الأعواد ؟ . . وكم غير هذا الناقد قالوا كقوله وكانوا قعودا لم يبلوا مع الإمام في كفاحه الدامى ، ولم يعانوا عناءه ، ولم يؤازروه ؟ . وكم غيره أيضا من الذين ارتادوا حقل الهلاك والنصر قد أضلتهم غفلتهم فذاقوا من الهلاك حتى تعموا عن النصر !.. كم من أولئك وهؤلاء يلحونه أو يعادونه وأجدر منه بهذا اللحى وهذا العداء أنفس لهم مريضة أو عنيدة قد أوهنت من أيده أو قهرته على إهدار نصره هناك على ثرى صفين ثم تأبى هذه اللحظة إلا أن تأخذه ، وهى ظالمة ، بإثمها وتحاسبه عليه ! . .

ولكنه يصير ما له عن الصبر على الساخر والعاتب سبيل عسى أن تتبين الحقائق فيرشد الغواة إلى هديه . إنما الذى أهمه وحز في نفسه تلك الطائفة الغالية في مشاقتها ، التى رافقته في الخروج وهى أمعن ما تكون غلوا في الانتصار له ، ثم رافقته في العودة وهى أمعن ما تكون غلوا في الانتقاض عنه . مالها انحازت

إلى حروراء ؟ . . أي الأمور تنكره منه ؟ . فيم خروجها عليه حين مرجعها وهي أحرى بأن تبدى له من ندمها وتوبتها عما فرط منها هناك ، بساحة المعركة ساعة الفصل ، بجر عليها وعلى إخوانها وعليه جميعا هذه العودة التي صارت مادة السخرية والملامة ؟ . .

أولئك الحرورية التوى بهم تفكيرهم حتى لتعمي في مرادهم الأفهام . هم اليوم يأبون التحكيم . وهم أمس قد تقبلوه وغلوا في تقبله حتى أجبروا عليه الإمام أو يقتلوه أو يسلموه . وبين موقفيهم هذين تفرخ الفتن وتنمو ، ثم تسمى وتعيث . . .

غير أنه كان رأيا رأوه واعتنقوه اعتناق العقيدة المنزلة فلا فسحة لغيره في صدورهم الضيقة . هو القضاء الذي لا يبرم . تنزيل من التنزيل فلا نقاش فيه ! . . فمن عجب وهم القراء ، وأعلم الناس بالقرآن — فيما يتبدون للناس — تضيق بهم مواطنهم . ويختم عمى عصبيتهم الذهنية على قلوبهم حتى يغيب عنهم أن أولى وسائل الدعوة للرأي ، كما رسمها الدين ، هي الموعظة الحسنة التي توفر حرية المناقشة ثم تقود إلى استخلاص أرجح الآراء ، وأثبتها الحجة ، وأجدرها بعد هذا بالاتباع .

لكنهم كانوا كما تحدث رسول الله عنهم ، ذات ساعة استضاء له فيها الغيب : « يتلون القرآن لا يتجاوز تراقيهم ! » . . . وهم الآن يتلونه ويلحدون فيه . ويتأولونه بما يعتسف لهم من المعاني غير ما تطيق آياته جريا وراء غاية لهم رسمها هواهم ، وتأييدا لرأيهم الشبه الخبيط ، وها هم أولاء تحصرهم كزازة عقولهم في مثل كهف مظلم ضيق لا تنفذ إليه لمحة من شعاع الإدراك ثم يحسبونه طلاقة العلم والمعرفة ! . . وإذا هم بزعمهم هذا هم وحدهم أصحاب النور . وإذا رأيهم وحده هو الرأي . وإذا إيمانهم وحده هو الإيمان وكل ما عداه عمى وضلال . . .

كذلك زعمت هذه الطائفة صاحبة حروراء ذلك اليوم الذي باينت فيه عليا وأبت أن تساكنه بمكان . فهو عندها ومعاوية سواء ، كلاهما قد انحرف ، وهو والذين تابعوه ليسوا من الهدى في شيء منذ ارتضوا التحكيم فأقروا به مبدأ يهدم الدين لأنهم قبلوا أن يحكموا الرجال فيما لا حكم فيه إلا الله : وهو إذن أولى بأن ينابذوه ، ويخلعوا طاعته ، ويخرجوا عليه . . .

كان هذا ما « هداهم » إليهم تفكيرهم وانتهوا به إلى رأى فال كل الغلو ، مغرق كل الإغراق فى العسف والخطأ والتحيف يوشك أن تعتنقه شرذمة سوف تحدث أفظع فتنة أصابت الإسلام . وقد اعتنقته اليوم ، وستعتنقه شراذم لا تزال نطفا فى أصلاب الرجال . وسيمضى الزمن بالأعصر فإذا الجيل بعد الجيل ينجم فيه لهذه الخارجة حزب لا يفى يألو الأمة الإسلامية من مشاقته ما يشيع بين أبنائها الفرقة والعداوة والدم . وإذا كان أصحاب حروراء الآن قد أبوا على الإمام إمامته ، فإنهم من بعد سيأبونها على كل رجل لأنهم لا يرتضون إلا دولة « دينية » بلا إمام على الإطلاق فلا تنازع فيها « الكبار » على السلطان . إنما الأمر فيها لله ، والبيعة لله ! .

استحدثوا إذن نظاما جديدا من نظم الحكم ، شعبيا مغرقا فى شعبيته لا حاكم فيه ولا محكوم من الناس ، الكل فى ظله رعية الله . . واستبد بهم رأيهم هذا حتى أبوا أن يجعلوا على شرذمتهم رئيسا منهم تطبيقا للمبدأ الذى استخرجوه . فحرقوص بن زهير أبى الرئاسة . وحمزة بن سنان أباها . وشريح بن أوفى امتثل هو الآخر نهج صاحبيه . ولولا أن كانوا بسبيل حرب توشك أن تنشب بينهم وبين الإمام لأبى أيضا عبد الله بن وهب التزاما لما رأوا أن يأخذوا به الأمة جميعا من إباء الرياسات والإمامات ! . . ولكنه عندئذ استحل لفرقته ما أراد تحريمه على أمته ، فقال لأصحابه حين عرضوا عليه الزعامة وألحوا عليه فى القبول :

« هاتوها ! . أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ، ولا أدعها فرقا من الموت ! . . »

وهكذا غدت « البيعة لله » شعارا لطائفتهم يلهجون به ويتخذونه دستوراً للحكم تقوم عليه « دولة مثلى » ابتناها لهم فى خواطرهم الخيال . وعجيب حقا أنهم تنادوا به . وأعجب منه أنهم رأوا تطبيقه فى الدولة الإسلامية وقد تبين لهم استحالة تطبيقه فى مجتمع فئتهم القليلة المفتونة . ولكنهم مع ذلك استمسكوا به أشد استمساك ، وحسبوه دارئا عن الشعب الخلافات والخصومات التى يجرها تنازع « الكبار » على السلطان . وصورت لهم أوهامهم أنه أقوم المبادئ والدساتير

وأدناها إلى مقاربة الدين واتباعه لأنه يحق أمر الله ، ويجنب الناس طغيان الحكام ! . .

ولقد عجب لهم على كيف تستمرئ عقولهم مثل منطقهم ثم تلج وتكابر ، وتأبى أن تستجيب لمنطق الواقع . فإذا بنا من بعد نسمعه يناقش مبدأهم ، ويطلعهم بهذه المناقشة على ما تحتمه ظروف المجتمعات الإنسانية فى كل زمان ومكان ، وفى حقائق الحياة لا فى سطحات الأوهام ، فيقول :

« ... نعم ، لا حكم إلا الله ، ولكن ، هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا الله ! . . . إنه لابد للناس من أمير ، بر أو فاجر ، يعمل فى إمرته المؤمن ، ويستمع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل . ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو . وتأمن به السبل ويؤخذ به الضعيف من القوى حتى يستريح به بر ويستراح من فاجر . . . . . »

هذه سنة الحياة وإن أبى معتزلة حروراء ، وإن أغلقوا عيونهم دون حقائقها ، وأصموا المسامع عن دعوتها التى استجابت لها البشرية منذ درجت فى المهد حتى شبت وبلغت اليفاع . غير أنهم كانوا فريسة عناد أورثهم إياه عصبيتهم العمياء لرأيهم للشبه الخبيط ، فإذا هم دائما يجمحون فى الغى ، ثم لا يزالون يجمحون ويخبطون كالعشواء حتى تحشمهم مصارعهم جيلا ناجما وراء جيل ! . . .

٣

لمعتزلة حروراء ، مهما قيل عنها ، أن تعتنق أى المبادئ تراه فى نظرتها أمثل الدساتير . وأن تجعل منه القاعدة التى تبنى عليها نظام الحكم الذى تحلم بتحقيقه وتحسبه أقوم النظم ، وأجداها على الجماعة ، وأولاها بالاتباع . وأن تدعو بعد هذا لنظامها ودستورها بكافة وسائل الترويج والإعلان . فما عليها أن تفعل ما لم تجر على حق الناس المشروع فى تقبل دعوتها بالحسنى ، أو رفضها بالحسنى . وما لم توقع بها بينهم فتنة . وما لم تخالف الدين . . .

من حق هذه الطائفة إذن أن ترى ، في الحدود المقررة ، ما تشاء ، وأن تدعو كما تشاء لأن هذا الذى تراه ، على أى حال ، رأى من الآراء له أن يسمع ، وعلى المجتمع أن يوسع له فى الحياة ما ثبت للتمحيص والمحاجة . فهذه هى الحرية التى تكفلها دائما الشرائع ولا تنبو بها العقول . . .

ولقد لقيت دعوة الحرورية دائما من على سعة الصدر ، وانفساح الأفق ، والترفق الذى ليس بعده ترفق بدعوة مثلها قد اعتسفت اعتسافا لإهدار حقه هو والنيل من شخصه ومن دينه إمعانا منها فى مناهضته والانتقاض عليه ، ذلك لأنه كان « إنساناً » مثاليا قبل أن يكون حاكما مثاليا ، يعرف ما لحرية الرأى من أثر فى تجدد الأفكار ، ودفع الشعوب فى سبيل التطور والارتقاء إلى الأمام ، والبلوغ بالإنسانية إلى حياة أفضل . كما كان يعرف أن كبت هذه الحرية أو إهدارها هو فى حقيقته إهدار ظالم لآدمية الإنسان .

فعلى ما بدا من تلك الفئة من عصبية ذهنية عمياء ، ومن غلو فى العنت والتجنى، ومن ركوبهم إياه بالمساءة التى لا تقرها قط أساليب الجدل للمنصف النظيف ، ولا وسائل الخصومة الشريفة ، ظل على دائما يلاقيهم بالحسنى ، ويقابل زعمهم بالحجة ، ويقرع الرأى بالرأى دون أن يضيق بعنتهم أو يعضل به تجنيهم عليه فيروضهم بما فى طاقة الحاكم من ضروب الشدة والقمع والإرهاب . . . وحتى عندما بلغوا من إيذائه مبلغهم ، وتنادوا فيما بينهم بكفره ، وصلوا سيوفهم يبغون قتاله وقد أبوا إلا خلع ما له عليهم من طاعة . . . حتى فى تلك اللحظة الحازبة التى أسفروا فيها عن إنكارهم عليه حقه فى حرية الرأى التى مدها لهم ، وكشفوا عن عداوتهم المبيتة ، تراه يتعفف عن معالجتهم بشكيمة الحاكم ، ويترفق غاية الرفق فيقول لهم :

« إن لكم عندنا ثلاثا : لا نمنعكم صلاة فى هذا المسجد . ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا . . . »

ظل على هكذا من بدء اختلافهم عنه إلى أن شبوها عليه حربا عمياء متحيفة كانت وبالا عليهم . فما كان عنتهم لينال من سماحته . وما كان تجنيهم ليخرجه

عما التزم به نفسه من « مثالية » المعاملة ، للرفاق والأعداء سواء بسواء ، مثالية ترسم للبشرية نهجا ممبدا مستقيما إلى حياة فضلى فى ظلال المساواة والحرية والكرامة ، ومنذ انحازوا عنه إلى حروراء ، عند دخوله الكوفة ، قالها فيهم قولة لأصحابه لم يحد عنها قط :

« إن سكتوا عممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم .. »

وكان يعنى أن لهم عطاءهم يعمهم جميعا به ماجنحوا للسلم . وكان يعنى أيضا أن رأيهم هذا الذى ارتأوا فى سياسة الحكم وفى شرعية التحكيم هو عليه هين لايكاد يثبت لمنطقه إن هم تحدثوا إليه به ، لأنه كفيل بأن يحاجهم فيحجهم ويغلبهم بالبرهان . وكان يعنى بعد هذا أنه لا سبيل له سوى مقاتلتهم إن هم عدلوا عن الاحتكام للمنطق إلى المجاهرة بالخصومة المسلحة . . . كان يعنى كل كلمة قالها ، وبقى وفيا لكل عهد قطعه فيهم على نفسه ، ولم يكرثه أنهم نبذوه وغلوا فى شقاقه حتى تهافتوا بخلع سلطانه بغير حق ولا حجة لأنه عليم بأن الكارثة حين تجىء لن تلقاهم إلا وهم لها ولية ! . .

ومع ذلك فلم يدعهم وما اختاروا لأنفسهم من غى دفعتهم إليه فى الحقيقة كزازة الذهن وأغراهم به ضيق مسالك التفكير . إنما حرص كل الحرص على أداء واجبه نحوهم كاملا بأن يبصرهم ، ويعمل ما وسعه على انتشالهم من وهدة الخطأ الذى ترددوا فيه فإن فاءوا إلى الرشد فهم إذن منه ، وإن أبوا فليس عليه حسابهم وما هو عليهم بوكيل .

والواقع الذى نراه ماثلا أمامنا من خلال هذه المحنة هو أن الإمام لم يكن يعنيه أن يستفيئهم إلى جانبه ليستعز بفرقتهم ويقوى بها على غريمه ، إن عادت نيران الحرب إلى الاشتعال ، بقدر ماكان يعنيه أن يجهد لهداية طائفة ضالة قادها عماها الذهنى للانحراف . فهو دائما أحفل بالمعنويات منه بالماديات وهو أبدا يقدم رياضة العقول وطب الأرواح على رياضة الجوارح وطب الأبدان . وهو فى حياته كلها ، بالعظة والقدوة ، وكان مهذب النفوس قبل أن يكون مؤدب الأجسام وعندما ترى طائفة كهذه من الجماعة الاسلامية التى انتهى إليه أمرها قد عنتت وأسرفت

فى عنتها حق لتتأول القرآن فتسىء تأويله ، فإنه إذن حقيق بأن يسارع إليها ليكبحها ويأخذ بحجزها أن تشرد وتتهاوى فى النار . . .

وكان هذا هو الذى أهمه . فلقد يضيره — كرجل دولة — أن تخرج عليه من شعبه فرقة ، تشغب وتشق وحدة الناس . ولكن الأكثر ضيرا والأشق عليه — كرجل دين — أن يكون فى خروجها هذا عليه خروجا على مقومات الخلق البشرى السوى التى تدعو إليها الشرائع وتقيمها أساسا لمجتمع فاضل . ذلك أن دعوة الحرورية ، بخلاف بدعتها التى اعتسفت دستورا مزعوما للحكم الشعبى ، كانت فى حقيقتها تنطوى على التنكر للوفاء بالعهود والمواثيق ، وعلى الحنث فى الأيمان ، وعلى الحث على « دكتاتودية » فكرية تكاد تحرم حرية التفكير وتعطل العقول ثم تدعها شلاء . . .

كل هذه السقطات أودعوها دعوتهم التى بدت ، لأول وهلة ، وليدة غيرتهم على حق الإمام وتساميهم به عن أن يتناوله بالمناقشة فرد من الناس حتى ولو كان هذا الفرد حكما اختاره صاحب الحق أو اختاروه هم متحدثا بلسانه ونائبا عنه . فلقد أنكروا من على رضاءه بتحكيم حكمين ينظران فى الخلاف الواقع بينه وبين معاوية ولم يكفهم أن يروا فى رضائه هذا إقرارا منه بانسلاخه من حقه الثابت فى الخلافة ، بل تهاتفوا بأنه « كفر » وانسلاخ من الدين . . .

ونكاد نجزم بأن نظرية « الحق الالهى » فى السلطان إنما نشأت فى الإسلام من تلك اللحظة ولم تكن الدولة العربية من بعد بحاجة إلى استعارتها من فارس التى لقحت الفكر الإسلامى بكثير من جراثيم ثقافتها . ولقد يلوح هذا الرأى على شىء من المغالاة . ولكن دعوة الحرورية ، فى الواقع ، قد انفسحت لهذه النظرية فيما انفسحت له من النظرات والآراء . .

فما هى دعوتهم ؟ . . ومن أين استقوها ، أو إلى أى الأسناد أسندوها ؟ وإلام ترمى وتقود ؟ . .

نشأت هذه الدعوة ، وما زالت القوى المتصارعة على أرض صفين لم تبرحها عقب تنادى فريق الشام والعراق بالموادعة ، واتفاقهما على إبرام وثيقة التحكيم . وكانت حينذاك خافتة . ولعلها لم تعد أن تكون فكرة طارئة لجة قفزت إلى لسان امرىء متحمس قبل أن تنضج فى ذهنه ، فألق بها يعلن سخطه على هذا السلام الذليل المذل الذى حققته الوثيقة بديلا عن النصر العزيز المؤزر الذى كان آتيا لا محالة مع صبر ساعة أو نحوها على الحرب . على أى حال لا نراها إلا بدأت نخوة من حدث تضطرب حمية الشباب فى دمائه فيرتفع عن قبول سلم هى الهوان ، وينبعث غاضبا وأخا له يحملان وحدهما على صفوف أهل الشام حتى يقتلا على باب معاوية . فلقد حدثنا التاريخ أن أول من نادى : « لا حكم إلا الله » حدثان صغيران من عنزة هما الأخوان « جعد » و « معدان » . . .

على أن نداءهما لم يمت بموتهما ، بل زاد جرسه علوا ، وزادت عبارته ذيوعا كأنما سقياه بالدم فترعرع وطال ! . . . ولم يكن عجبا أن يعلو ويذيع وله هذه « الرنة الدينية » الحقيقة بأن تسحر من القوم أسماع أناس يقرءون القرآن ، ويأخذون أنفسهم أخذا شديدا باحتذاء حروفه — فضلا عن نصه ! — احتذاء يعطل العقول ويشل الأذهان ويوفى بهم على شفا هاوية من الجمود الفكرى سحيقة . فما هو أن لقفوا اسم الله فى النداء حتى ألقوا إليه القلوب والأسماع . وما هو أن تبينوا عباراته حتى رددوها ترديدا ذاتيا كأنه رجع الأصداء . وما هو أن خالط أفواههم حتى خاس عقولهم وأفئدتهم فسكرت به ، وغدوا منه فى «غيبوبة دينية !» حاجزت بينهم وبين الروية وسلامة الإدراك . .

تلقف أولئك القراء نداء الأخوين جعد ومعدان . وكلفوا به ، وهاموا هياما شديدا بجرسه الديني فأخذوا يرددونه ، ويدعون إليه الناس بساحة صفين ما شاء لهم الدعاء والترديد . . وكان طبيعيا ألا يعدموا له نصيرا فى صفوف أمثالهم من ذوى الجباه السود . وكان طبيعيا أيضا أن تلتف بهم طائفة من غيرهم من الذين كانوا يرون البقاء على الحرب وأنكروا الصحيفة وما أقرت من سلم مخزية ذليلة . كان طبيعيا أن يحدث هذا ، وأن تنجم الدعوة الجديدة كقرن الماعز ، وأن يغدو

النداء الذى أجبته — فيما نرى — فكرة طارئة لجة ، مبدأ براقا يروجون له ، ويعصبون عقولهم وقلوبهم به ، ويناضلون عنه وهم يبثونه مهيئين له من الأسناد والدعامات ما يقيمه راية عالية ، وإنهم لا ريب لقادرون على إسناده ودعمه بما فى طاقاتهم المرنة من أدوات الجدل والتخريج والمكابرة . . .

لهذا تراهم لا يكادون يبرحون أرض الوقعة حتى يكون مبدؤهم قد لبس بالدين والتف به تلفيفا أخفى وراءه النخوة والحماسة وحمية الشباب المتقدة التى حركت شفاه جعد ومعدان بالنداء . فهو عندهم مثل نص منزل . وهو عندهم دين من الدين . وبعد أن كانوا يرون الشرك كل الشرك فى إباء أهل العراق الاستجابة للاحتكام للقرآن عندما رفع أصحاب معاوية مصاحفهم ، وبعد أن جاهدوا هذا الشرك بألسنتهم وأسيافهم حتى حملوا عليا ، وهو صاغر ، على التسليم بالتحكيم . بعد هذا وذاك يعدلون عن نظرتهم الأولى ، فإذا الشرك أن يبقى على عليها ، وأن يفى بموثقهم وموثقه . وإذا الإيمان أن ينكث بعهده ، وينقض الصحيفة ، ويعود إلى إنشاب القتال الذى أوقفوه . . .

كان رأيهم الذى ارتأوه واستمسكوا به أشد استمساك : أن الله أمضى حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا إلى وحدة الأمة ، ولا معدى عن أحد هذين الأمرين فى منطق كتاب الله . . .

وكان سندهم هذه الآية الكريمة :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فمعاوية وأصحابه بغوا ، واستنفدت معهم وسائل الاستصلاح ، وقوتلوا على بغيهم فليس محيص عن أن يفيئوا إلى طاعة غير مشروطة ولا مختلف فيها ، يؤدونها صاغرين . . .

ذلك حكم الله .

أو ذلك حكمه الذى يفهمه أصحاب حروراء ، ولا مجال بعده لتأويل . . .

٤

تساءل فريق من قراء أهل الشام عن الخلاف الذى رأى أهل العراق حربهم به ، واستحلوا عليه دمهم ، وإنهم جميعا — أولئك وهؤلاء — مؤمنون بالله وكتابه فلا ينبغى أن تكون بينهم فتنة مسلحة . . . وقالوا :

« نحن قوم نقرأ القرآن وليس يخفى علينا منه شىء . فأفهمونا الأمر الذى استحللتم عليه دماءنا . . . » .

وكان هذا بعد تداعى الفئتين للهدنة ، واتفاقهما على تحكيم حكمين فيما اختلفا فيه . . .

وأجابهم قراء أهل العراق :

« فارقناكم فى تفسيره ولم نفارقكم فى تنزيله . . . نحن وأنتم نشهد أنه من عند الله . . . . . . » .

ثم قال بعضهم لبعض :

« هم يعرضون كتاب الله بيننا وبينهم ، ويسألوننا حجتنا عليهم . وإنما هم صادقون أو كاذبون فى نيتهم ، وليس لنا عذر فى إنصافهم . . . فإنما نطلب الحجة بعد العذر ولا عذر إلا ببينة ، ولا بينة إلا بقرآن أو سنة . . . »

وعلى هذا الأساس قام التحكيم لأنه الوسيلة التى تلزم المخطىء خطأه وتمهل له فى الرجوع للصواب . فهو فى حقيقته لايعدو أن يكون استنباء كتاب الله حكمه فى الخلاف بينهم وبين أخصامهم ، يتم به الإعذار ، وتتبلج به البينة . وإذ كان القرآن « حمالا » تتسع نصوصه — فى مجال المجادلة — لأكثر من تأويل ، فلهذا حكموا حكمين عارفين به ، ليتفقا على تفسيره بما يرضى الله ، أو ليحكما بالسنة الهادية إذا فاتهما هذا الاتفاق . . .

كان هذا هو الهدف من التحكيم ، على الأقل فى رأى قراء الطائفتين إذا أغضينا عن الغايتين السياسية والحربية اللتين استترتا وراءه وكانتا المطمح الحقيق لمعاوية وابن العاص والخلاصة من رجال حزبهما المقربين . وكان هدفا لايختلف

بقدر ما يتفق ، والدين . فالتحكيم مبدأ شرعي ، سنه الله عسى أن يلأم به صدع وتمنع فرقة . سنه في الصيد حين الإحرام . وسنه في الشقاق بين الرجل وزوجه . وسنه في النزاع بين طائفتين من المؤمنين . . . وما كان لقراء أهل العراق أن ينكروه ، أو يتنكروا لدعوة أهل الشام به ، وقد قرأوا في كتاب الله عنه ما يحثهم على الأخذ به .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . . . »

وقرأوا أيضا ما يعير به المنكرين له والمرتابين فيه :

« . . أفي قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون . . »

وقرأوا كذلك أنه يوشك أن يكون علامة من علامات الإيمان :

« . . . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون » .

كل هذا قرأوه ، وعلموه ، وأصروا إصرارا ملحا على العمل به حتى لنجد عصابتهم القارئة ، ذات الجباه السوداء ، وفيها زعيمان من زعماء الحرورية هما مسعر بن فدكي وزيد بن حصين ، تأبى الإباء كله على علي أن ينصح لها ، وأن يبصرها بخدعة معاوية المستترة بالمصاحف المرفوعة ، ثم تعنف به أعق عنف وأظلمه لينزل عند رأيها ويقبل التحكيم . . .

وكل هذا أيضا تنكروا له وعابوه . أو هم أنكروه من أنفسهم — وما زالوا هناك بساحة صفين — واعتبروه معصية يحق عليهم العدول عنها ، والتوبة منها ، وإكراه علي بكل وسيلة على العدول والتوبة . . .

بمثل هذه السرعة قبلوا التحكيم ثم عادوا فرفضوه . وبها أكرهوا عليا على قبوله ثم ارتدوا يكرهونه على رفض هذا القبول . وهم حين فعلوا لم يعدلوا عن نظرة لنظرة ، ولم يستبدلوا رأيا برأي . إنما كانوا في الحقيقة يتنكرون لحرية الرأي في ذاتها ما دامت هذه الحرية من حق سواهم كأنما رأوا حقاً لهم دون غيرهم

من الناس أن يجروا العقول إلى حيث يريدون ، مرة إلى يسار ومرة إلى يمين ، بلا موجب لهذه القلقلة الفكرية إلا أن يسخروا الأذهان ويجعلوها ذيلا لتقديرهم المضطرب الحائر .

الواضح أن معتزلة حروراء كانت مترجحة الرأى منذ سمع لها صوت فى سياسة الأمور . فلم تثبت أبدا على رأى ، ولم تقطع أبدا فى شأن من الشئون العامة التى كانت تشغل آنذاك بال الجماعة الإسلامية قطع المتثبت المستيقن . إنما كان حالها حال أمثالها ممن يعنيهم المظهر دون الجوهر ، وتستخفهم السطوح والقشور دون الأصول والأغوار . وكأنى بهذه العصبية الذهنية التى كانت طابعهم قد أكسبتهم عجلة رعناء ، ككرة الطاط ، تقفز بهم من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا ، كلما اصطدموا بفكرة طارئة ثم لا تكف عن القفز ما طرأت لها فى طريقها المضرس الأفكار . . . وفى خلال ذلك العام الذى كان عمر علاقتهم المضطربة بعلى ، والذى انقضى بين وقعتى صفين والنهروان ، كان ترجحهم بين الآراء ذات الطلاء والرنين وكانت لهم بدوات تستطير العجب ، تفصح عن حيرتهم الذهنية وقلقهم الفكرى أيما إفصاح . . .

ونجمل ذلك القلق باقتصار فتراهم يهللون للمصاحف ويلبون دعوتها الصامتة للموادعة والإصلاح لأنها ، فيما يرون ويعتقدون ، دعوة « قرآنية » حقيقة بالتلبية وإلقاء السمع يهون معها عليهم أن يستقضوا الإمام حياته — أو حريته كأهون جزاء ! — إن هو خالفهم وأصر على ما كان يريده من موالاة القتال . . . ثم تراهم أيضا يسرفون عليه فيكرهونه على قبول أبى موسى ، حكما عنه وعنهم وعن طائفة أهل العراق ، غير آبهين شيئا لرأى على وريبته فى الأشعرى ، ولا لما سلف من تمرد الأشعرى وتثبيطه عن على . وما أحسبهم قد أصروا على اختيار هذا الرجل دون من عداه ممن رشحهم الإمام إلا لأنهم كانوا يرون فى أولئك المرشحين دعاة حرب قبل أن يروهم دعاة رأى ، كما كانوا يرون فى التحكيم وسيلة إلى « الله » تحقق ما تهدف إليه الدعوة « القرآنية » من سلام فأحق به إذن رجل سلام . ولعل حديثهم مع الإمام ، ومجادلتهم إياه عند ترشيح

الحكم تكشف لنا منهم عن هذه النظرة بجلاء . . . يجيئونه فيملون عليه أن « يختار » الأشعرى وما له من محيص عن هذا « الاختيار ! » :

« إنا لا نرضى إلا به ، فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه . . . »

فإذا أشار عليهم بابن عباس أبوا وأغلظوا له القول . وإذا ذكرهم ماضى حكمهم ازوروا عنه وعن الذكرى على السواء . وإذا عرض عنهم اسم الأشتر تصايحت عصابتهم . وفيها عندئذ زعيماهم الكبيران زيد بن حصين ومسعر ابن فدكى ، وردت بإزراء وإنكار :

« وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ! . . »

فيستفسرهم :

« وما حكمه ؟ . . »

وهنا يكشفون عن نظرتهم :

« حكمه أن يضرب بعضنا بعضا بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد ... »

وعلى الرغم مما بدا من حرصهم وتكالبهم على التذرع بالدين لإقرار دعوة المصاحف ، والتحكيم ، والحكم جميعا فإننا لا نلبث — وما مضت عليهم أيام — أن نجدهم أشد تكالبا على نقائضها وذريعتهم الجديدة لهذه النقائض هى أيضا الدين ، نفس الدين ! . . فإن هو أن يهتف فتيان صغيران ، احتدمت فى عروقهما حميا الشباب ، وهزتهما الحماسة للحرب : « لا حكم إلا لله » حتى تنقلب فى خواطرهم المعايير . فإن من بينهم جموع تردد الصياح .. وإذا أحدهم ، عروة ابن أدية ، يزأر غاضبا لدينه : « أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ! » .. وإذا « إيمانه ! » يستخفه فينزو بسيفه على الأشعث بن قيس وهو يقرأ وثيقة التحكيم حتى ليكاد أن يصرعه جزاء وفاقا لأنه نطق عن الصحيفة بغير ما يرضى الله ! . .

وقد يعجب المرء لهذا التحول فى موقف معتزلة حروراء إذ ذاك . ولكننا نرى العجب آخر ما يمكن أن نتناول به تصرفاتهم ، كيفما كانت أو انقلبت ، فى ذلك الحين وفى غيره من الأحيان على السواء . ذلك لأن العجب ، فى الحقيقة ، ليس

سوى انفعال يصدر نتيجة لانحراف أى سلوك كان مقدورا استواؤه وغير مقدور شذوذه عن قاعدته وخروجه عن الاستواء ، بينما القاعدة التى التزمتها هذه الطائفة دائما — فيما اعتدناه من سلوكها — كانت الشذوذ ! . . وبحسبنا أن نذكر أنها بعد ما ارتأته من اعتبار التحكيم ضلالة ، واعتبار دعاته والمستمسكين به مشركين بالله ، واستحلالها قتلهم إن لم يتوبوا عنه — بعد هذا كله نرى فرقة منهم ، غالية فى رأيها هذا الذى بيناه أشد الغلو ، تنطلق وعلى رأسها أيضا ذلك الزعيم مسعر ابن فدكى ، لتترضى الأشعث — وهو الناطق بالشرك والثابت عليه ! — وتعتذر له عن نزوة عروة ! . .

كان تفكيرها إذن خاطئا ، وإيمانها بآرائها إذن خبطا بلا تثبت ولا استيقان . وما نرد هذا إلا إلى عصبيتها الدينية العمياء التى أكسبتها « حساسيـة » شديدة تدفعها إلا الاستسلام لـكل رأى يتصل بالدين ، ولو من بعيد ، ولو من ناحيـة المظهر والصفة الشكلية ، وإن لم يكن من جوهر الدين ولبه فى شىء . فيكفى أن يقرن القرآن بكلمة عابرة ، أو يذكر اسم الله فى رأى طارىء ، ليخفوا سراعا إلى تلقف الـكلمة وتبنى الرأى ثم الجهاد عنهما ما وسـعهما الجهاد ، بلا روية ولا تدبر ، ودون أن يفسحوا السبيل لأى رأى مغاير ليثبت صوابه وخطأهم ما داموا يحسبون أنهم وحدهم تفردوا بالصواب .

لهذا كانوا دائما يعنتون ، ويشقون على مجادليهم كل مشقة ، فنقاشهم إملاء ، ورأيهم هو الرأى ولا حق لغيره من الآراء فى الظهور . ولهذا أيضا كانوا دائما متذائبين يترجحون بين مختلف الآراء من النقيض للنقيض ولا حريجة عليهم — فيما يظنون — إن ترجحوا ما بدت لهم فى هذا الرأى مسحة دينية لم تبد لهم فى ذاك ! . . هم حينا تشبث بفـكرتهم وتشدد وصلابة تبلغ موات الجمود والصمم ، وهم حينا آخر وهن وضعف ورخاوة تبلغ مهاوى التهافت والاستسلام . ولا عجب عندنا من ذلك فتلك شيمة كليلى النظرة الذين يعييهم تعمق الأمور وتستهويهم القشور والظواهر . وها نحن أولاء نشهدهم يعنون فى التشدد غب العودة من صفين ، فإذا بهم قد اعتزلوا عليا إلى حروراء وحرموا على أنفسهم مسا كنته

بالكوفة لأنهم يرون فى التحكيم غير ما كان يراه . وهاهم أولاء ، بعد قليل ، يدعون تشددهم حين يستفيئهم منطقه فيعودون راضين . حتى إذا حسب الناس أن يده ويدهم جميعا على خصمه انبروا هم خصما يكيدون له ، ويهطعون إلى حربه فى غير تأثم ولا استحياء . ثم ها هى أخيرا جموعهم بالنهروان لا يكاد يطالعها بحديثه حتى تنسلخ منها كثرة تنضم إليه ، وتبقى قلة على صلابتها العمياء ، تتنادى بشركه ، وتأبى إلا قتاله إلا أن يقر على نفسه بالكفر ويتوب ! . .

ويأسف على . فلقد استنزف كل سماحته ، واستنفد حلمه وعلمه ثم تقطعت جميعا به دون بلوغ شأوه من استصلاحهم وهداية نفوسهم المريضة . فما بالهم ؟ .. ما طبهم ، ما دواؤهم بعد كل هذا العلاج ؟ . . بحسبه أن أسمع وبصر ، وحذر وأنذر ، فإنما وزرهم على أكفهم يلقون به الله . ولئن أمهله عمره منهم بعض إمهال أن يلوك الندم والحسرة من بعد ، يوم لا يجدى ندم ولا تشفى حسرة ، وحين ينشق الزمن عن مصارعهم ، وتقبل الدنيا وفى يمينها لهم دم وقهر وإذلال .

على أن أشد ما حز فى نفسه منهم تلك الفرية الغالية فى الظلم التى جردوه بها من إيمانه كأنما قد وكلوا بحساب القلوب أو كانوا فيصلا عدلا يفرق الهدى من الضلال . فما خالفهم وخالفوه حتى أطلقوها بلا روية ولا تحرج . وما أطلقوها حتى مضوا بها يعيدونها ما حلت لهم إعادتها ، ويرددونها ما وسعهم الترديد . وإنه عندئذ ليعجب ، ثم يسخر ، ثم لا يملك أن يغضب ويثور :

« أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آبر ! . . أبعد إيمانى بالله ، وجهادى مع رسول الله أشهد على نفسى بالكفر ؟ . لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ! . . »

ثم يكاشفهم بذلك المآل الذى ينتظرهم ، ويخايل ببصيرته من وراء المجهول :

« . . . أما إنكم ستلقون بعدى ذلا شاملا ، وسيفا قاطعا ، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة ! . »

ولقوا ما قال . فما نجم منهم قرن بعده إلا قطعه خصومه الذين مكنوا لهم بعنتهم بالاستئثار بأمر المسلمين من دونه . وما اجتمعت فرقة فيما أقبل من الأيام على مبدئهم الخبيط المختبل حتى استقبلها القهر ، يعالج فيها الرأى بالسيف ، والفكرة بالشفرة ! ..

أما هو الذى ظلموه فلم يقابلهم قط بالشدة وله مندوحة عنها إلى الموعظة الحسنة . إنما ظل يصابرهم ، ويملى لهم ، ويطاول عنتهم وغيهم عسى أن تتفتح فرجة فى أذهانهم ينفذ خلالها النور . . . فكم أسفر إليهم . وكم دعاهم إلى الهداية بالكلمة الطيبة على لسانه وألسنة وفوده . وكم كف عنهم بطشه حتى عندما غلوا فى شقاقه وأمطروه موتا على مشافر الصوارم وأسنة الحراب والسهام ...

٥

عندما أوفد الإمام إليهم ابن عباس بحروراء يفاوضهم فى العودة إلى الكوفة والتزام جماعة الناس من طائفته ، حذره أن يحاجهم بالقرآن . فالقرآن « حمال » تتسع نصوصه فى مجال المجادلة للتأويل . وهم عصبة مولعة بالجدل ، قد غرها من أنفسها أنها قارئة لكتاب الله حتى لتحسب أنه إليها وحدها ينتهى تفسيره . ولن تعدم وهذه حالها أن تتناول الآيات بالتخريج والتأول لتسند رأيها وتزكيه . . .

ورأيهم عندئذ معلوم ، تهاتفوا به عقيب سطر الصحيفة بصفين ، ثم ظلوا ينشرونه ويدعون إليه . ولم يكن يضيرهم فى شىء أن يقال عنهم إنهم هم الذين أكرهوا عليا على التحكيم ، ثم على قبول حكم بذاته فرضوه عليه فكيف إذن يعتبرون هذا التحكيم ضلالة . لم يكن يضيرهم هذا القول فى قليل ولا كثير لأنهم أقروا على أنفسهم بالكفر ، وأنكروا منها رأيهم ذلك القديم الذى انساقوا وراءه حتى أنجب الصحيفة وما احتوت من اختيار حكمين لطائفتى الشام والعراق ، ينظران فيما اختلفتا ، ويحكمان لإحداهما وعلى الأخرى بالقرآن . فأما دعوتهم الأولى إلى تحكيم الحكمين فشرك تابوا عنه ، وأما دعوتهم الثانية التى تنكر حتى أيما امرىء كان فى تفسير القرآن فهى ، فيما يرون الآن ، هى الصواب وغيرها الخطأ الذى ينزل إلى وهدة الإلحاد .

والواقع أن نظرة الحرورية هذه عجيبة ، لا لأنها خالفت ما أجمعوا عليه من قبل ، ولا لأنها أيضا لا تستقيم والنصوص القرآنية التى تبيح أنواعا مختلفة من

التحكيم ، ولا لأنها كذلك تعطل أو تحجب ما فى كتاب الله من آيات تحث المؤمنين على الاستجابة دائماً للدعوة له . . . . لا لهذا كله العجب منها ، وإنما لما تنطوى عليه من فكرة خطرة ترى « تجميد » النصوص القرآنية بحيث لا تكون غير حروف وعبارات يؤخذ بها دون مدلولها ومعانيها الواسعة التى ليست فى الحقيقة سوى « الكيان الحى » الناشئ عن تفاعل هذه الحروف والعبارات بالذهن البشرى .

لكن دعوة معتزلة حروراء ، حين نجردها ، نجدها تنادى « بالسطحية » . بمجرد « النظرة » إلى النص ثم بالتزام « العبارة » التى تلقفها هذه النظرة . أما إمعان النظر فى النص حتى تنتقل « مرئية » الآية «وجوها» كله إلى الذهن ، وأما تفاعل الذهن بهذه «المرئية الكاملة» تفاعلا يثير فيه أفانين المعانى والمشاعر فليست لهم على بال . وما نحسبنا ، بحال من الأحوال ، متجنين على هذه العصبة ولا متحيفين . فرأيها الذى ارتأته وكلفت به أشد الكلف ، وتخذته لنفسها شعاراً تلتف حوله وتندفع فى رعونة مناضلة عنه . . . . هذا الرأى ، إذ ينكر تحكيم الرجال فى دين الله ، إنما يحرم إنطلاقة الذهن فى القرآن ليتفهمه ويستنبئه مدلوله الذى ترسم عباراته وأحرفه خطوطه الأولية ، كما يمنع استواء ذلك الكيان الحى متكشفا عنه بظاهر الألفاظ . . .

ولقد يقول قائل ، وله لا ريب أن يقول : إن نظرة الحرورية تفسرها قولة عروة بن أدية صاحبهم الذى قال : (. . أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟) . . فهى إذن لم تمن الدين على اطلاقه إنما اجتزأت منه بأوامر الله ونواهيه . وهى إذن حين تحرم انطلاقة الذهن فى القرآن إنما تحرم عليها الخوض فى كل (حكم) أوردته الآيات فى قضية من القضايا ، أو مشكل من الأمور ، أو حد من الحدود التى يقصر عن علاجها وحلها الذهن البشرى ، فليس له إذن الحق فى تناولها إلا لتطبيق الحكم . . . قد يقول بهذا قائل فيوشك إذ يقول أن يردد نفس الذى رددته معتزلة حروراء ، ذلك اليوم ، على مسمع ابن عباس ، وكادت به أن تعضله أو تصيبه بما يشبه الحسر لولا أن أتيح له الإمام ليسعفه ، ويظهر بمنطقه على جدال المكابرين . . .

وندع حديث ابن عباس إلى حين لنعرض لهذا الذى قد يقال فإذا الجواب عنه حاضر ، بالحرف والعبارة ، فى نفس النص الذى اتخذوه سندهم ، ودون حاجة إلى بداهة ولا جدال . . . فالمعروف أن الآية التى تأولها الحرورية لتحريم التحكيم هى آية الإصلاح بين المؤمنين عند انقسامهم ، ووقوع الخلاف بين فريقهم وقوعا ينشب الحرب ويشب نار القتال . وهذه الآية تدعو من يستطيع إصلاحا أن يصلح أولا ليطفئ الفتنة ، وأن يكون ثانيا حربا على الفريق الباغى حتى يفل حده ويخضع ، وأن يعود ثالثا إلى الإصلاح بالعدل بين الخصيمين وقد تداعيا جميعا للسلم . . .

نحن إذن من « حكم الله » فى هذه القضية حيال ثلاث مراحل : أولاها مرحلة « الاستصلاح » والقتال ناشب : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . . وثانيتها مرحلة « مقاتلة » الطائفة التى لا تستجيب لهذا الاستصلاح وتبغى على خصيمتها بغير حق : « . . . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله » . . . وثالثها مرحلة « الإصلاح » التى تعقب فىء الفئة الباغية إلى الحق : « . . . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . . . . »

هذه هى المراحل التى ترسمها الآية ؟ وتحدد بها ما يجب أن يكون عليه سلوك المؤمن حيال أية قضية مماثلة . وهى مراحل ، كما تراها ، واضحة كل الوضوح ، بارزة الخطوط والمعالم فى غير لبس ولا شبهة . وهى إلى جوار هذا وسائل عملية إيجابية ، تنكر ما عداها من الوسائل السلبية كالحياد والعزلة . وتوشك أن تحرمها بمدلول المعانى لا بمنطوق الألفاظ . وبعضها استمسك على . وآخذ إخوة له فى الدين ، من خاصة صحب محمد ، كانوا جديرين باتباعها قبل غيرهم من الناس . فلقد دخل عليه ، ذات يوم بعد صفين ، سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، والمغيرة بن شعبة ، يطلبون عطاءهم منه . فإذا هو يبادرهم :

« ما خلفكم عنى ؟ . . »

قالوا يعتذرون ، ويبررون ، تخلفهم بما قد يهون ما كان من قعودهم وسلبيتهم :

« قتل عثمان ولا ندرى أحل دمه أم لا ! . . وقد كان أحدث أحداثا ثم

استتبتموه فتاب . ثم دخلتم فى قتله حين قتل . فلسنا ندرى أصبتم أم أخطأتم ، مع أنا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين وسابقتك وهجرتك . »

قال على :

« ألستم تعلمون أن الله عز وجل قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، فقال : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . . . »

فإذا سعد ينبرى معللا حياده :

« يا على . . أعطنى سيفا يعرف الكافر من المؤمن ! أخاف أن أقتل مؤمنا فأدخل النار . . . »

لقد كان سعد يقول دائما حين يخاطب فى اعتزاله :

« إنى سمعت رســــول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى » .

ولهذا آثر أن يلتزم الحيدة مخافة أن يكون الخلاف الناشب بين على ومعاوية هو الفتنة التى عناها الرسول . . .

ورد الإمام وهو يعرج على أمر عثمان :

« . . . إن عثمان كان إماما بايعتموه على السمع والطاعة ، فعلام خذلتموه إن كان محسنا ، وكيف لم تقاتلوه إذ كان مسيئا ؟.. فإن كان عثمان أصاب بما صنع ، فقد ظلمتم إذ لم تنصروا إمامكم . وإن كان مسيئا فقد ظلمتم إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .. .. »

ثم عاد لما بدأ فأكمل :

« ... وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله به ، فإنه قال : فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله .. »

وما نسوق هذا الحديث ازدراء بموقف سعد ، ولا احتجاجا على المتخلفين عن نصرة عثمان الذين أكثروا القول فى أمره ، بعد مقتله ، تعصبا عليه أو لوما لعلى وريبة فيه وهم قاعدون كلا ، فما نصروا حقا ولاناهضوا باطلا . وإن أمرهم

لبين الخطأ أولا وآخرا حين اعتزلوا الفتنة التى شبت النار بين العراق والشام . فلقد فاتهم فى الأولى أن يعملوا بقول رسول الله : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » فلم يشدوا على يد عثمان ليعدل إن كان قد ظلم الناس ، ولم يعززوا جانبه إن كان قد ظلمه الناس . وفاتهم أيضا فى الثانية أن يعملوا بقول الله : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ... ... » فلم يسعوا بإصلاح ، ولم يقاتلوا الباغية . إنما وقفوا فى كلا الحالتين ينظرون . . .

لكننا سقنا الحديث الذى أسلفنا دلالة على وجوب التزام المؤمنين خطة إيجابية حيال الطائفتين المختصمتين تثوب بهما إلى الوفاق ، مراحلها كما تبين الآية هى الاستصلاح والمقاتلة والصلح ، أو هى بالألفاظ الحديثة : الوساطة والحلف وعقد الصلح دون أن نجور فى التعبير . فالدولة تختلف وأخرى خلافا يحتكمان فيه للقوة المسلحة . فإذا ثالثة تسعى بينهما لتكف الحرب ، فتعرض حلا سلميا ترى أنه كفيل بفض الخصومة ، محقق للعدالة أو موافق لمقتضيات الظروف والأحوال . وقد ترضى الدولتان . وقد ترضى واحدة وتأبى الأخرى . وعندئذ لا يكون عجيبا أن تحالف الثالثة هذه الراضية لتحاربا المتأبية حتى ترضخ ، ثم يعقد الصلح ليعيد الوفاق ، ويضع الشروط التى تمسح الخصومة وتنظم العلاقات . . .

بهذا تقول طبيعة الأمور . وبه يقضى ، دون ريب ، كل منطق مستو سليم . وعليه نصت الآية الكريمة التى اتخذها معتزلة حروراء سندا لهم يظاهرون به نظرتهم وما هو لها — فيما نعتقد — بظهير . فما يمكن أن يتم صلح قبل وضع شروطه ، وتنظيم دقائقه وتفاصيله ، ورسم خطة تنفيذه . . . غير أن القوم شاءوا أن يصروا على رأيهم كأنما كان يكفى أن ينزع معاوية الصلح ليدخل فيه دون شرط معلوم عليه ، وبغير جزاء — مادى أو معنوى — يؤخذ به الظالم ، ويؤخذ به للمظلوم . . .

كل ما فهموه ، أو تأولوه ، من آية الطائفتين إذن أن معاوية وحزبه فئة باغية ، حكمها فى القرآن أن تقتل أو ترجع . أما كيف يكون رجوعها هذا ، وما هى الشروط التى تنظمه ، وتضمن من بعد بقاء الوفاق والسلام ، ومن من

الناس يضعها ، فتلك كلها أمور ليس لها فى ذهنهم مكان . . . وعجيب منهم ذلك الإصرار وهم أعلم الناس بأن معاوية ، حين تداعى وفئته للصلح ، لا يمكن اعتبارهم فى حساب الحروب « مستسلمين » عن هزيمة حربيــة بقدر ما يصح اعتبارهم جانحين إلى « هدنة » لعلها تصلح الأمور إذ يتلاقى خلال مدتها الرأى بالرأى ، وتقترب النظرة من النظرة ، فتصفو الأنفس ، وتخلص القلوب ، ويقع الصلح المنشود . . ولئن أبت معتزلة حروراء إلا أن تراهم قد هزموا ، وتقطعت بهم وسائل الكفاح المسلح ، وألقوا بالسلاح وهم صاغرون . فثمة قبلهم فى تاريخ الإسلام طوائف محقتها الحرب ثم لم يقض عليها بالتسليم دون شرط ولا مراجعة وإن حالها حين ذاك لأهون من أن تباح المراجعة واشتراط الشروط ، وثمة غيرها أخرى أبيح لها التحكيم واختيار حــكم ترضاه وما كانت هذه وتلك بالطوائف المؤمنة أو التى يرتجى منها إيمان . وما كان من أباحها ما أباح « قارئا » أو « عصبة من القراء » من أمثال معتزلة حروراء ، بل قد كان رسول الله ! . .

حدث هذا فى غزوة بنى النضير بعد نقضهم العهد بينهم وبين المسلمين . فلقد أرسل إليهم النبى ، محمد بن مسلمة ليقول لهم بلسانه :

« . . . اخرجوا من بلادى فلا تساكنونى . . »

قالوا :

« نتحمل » .

فأبى عليهم أن يحملوا معهم شيئا حين جلائهم . وغرهم رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ووعدهم مؤازرته . فقاوموا أمر رسول الله ، ووقعت الحرب . وحاصرتهم جيوش المسلمين . فلما أن أضر بهم الحصار والقتال وعضتهم الهزيمة ، « صالحهم » النبى على الجلاء . وأجلاهم إلى الشام « على أن لهم » ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة والسلاح .

وحدث أيضا فى غزوة بنى قريظة ما يتفق وما نقول . فقد خانوا الرسول إبان وقعة الخندق فذهب إليهم بجيشه يوقع بهم جزاء خيانتهم وحاصرهم نحو شهر لم يروا بعــده إلا التسليم ، وما كان لهم محيص عنه بغير الفناء . وعندئذ مشت الأوس إلى محمد فى أمرهم تشفع لهم إليه :

« يا رسول الله ، إنهم موالينا . . . »

قال ، وقد قيل :

« ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » .

قالت الأوس :

« بلى » .

قال :

« فذاك سعد بن معاذ » .

ورضى بنو قريظة ، أو هم كانوا الذين اختاروا سعدا ، وقالوا :

« ننزل على حكم سعد بن معاذ »

هاتان حادثتان تريانا أنه لا ضير فى « المصالحة » وما تعنيه من عرض شروط للصلح من فريق ومراجعتها من الآخر حتى يتم بينهما الاتفاق على الأخذ بها بدون تعديل ، أو بعد تعديل ، وأنه لا ضير أيضا فى تحكيم حكم يرتضيه الفريقان ليبلغا به الفصل فى النزاع . لا ضير ، بحسباننا ، فى هذا ولا ذاك وإن أصرت الحرورية على خلافه ، وملأت الدنيا لجاجا وعنادا وعنتا أورثت فتنة ما كان أغنى المسلمين عنها لولا جمود الأفهام . . .

ونعود الآن إلى ابن عباس . . .

فما كان حظه منهم عندما أرسله إليهم الإمام ؟ . . وما كان قصارى جهده وشأو منطقه وهو صاحب اللسان الإزعيل الذى لا يغلب فى مقام جدال ؟ . .

الحق أنهم أعيوه أو هم على الأغلب الأعم أصابوه بالحصر أو أوشكوا أن يصيبوه . فلقد أعجله حبه الجدل إلى مجادلتهم مع ما سلف من قول ابن عمه له حين أوفده : « لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك » . . وقد استخفه علمه بالقرآن بجادلهم به مع ما سلف أيضا من نصح على له ألا يخاطبهم بالقرآن لأنه حمال . . . وشهدته عندئذ حروراء يناظرهم فإذا هم يتيهون به فى بيداء من النقاش . وإذا هم يتلقون من لسانه حجته عليهم فتكون حجة لهم عليه . وإذا هو بينهم محصور أو محسور حتى يخف إليه الإمام . . .

٦

تحاوروا ، فأثاروا فى ابن عباس نهمه إلى الجدل . فإذا هو لا يصبر ولا يطيق الانتظار . إنما يراجعهم :

« ما تنقمون من أمير المؤمنين ؟ . . »

قالوا :

« تحكيمه الحكمين » .

« وما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل : إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ؟ . . . . »

ومضى الرجل يستعين علمه ليظهر لهم شرعية التحكيم فى أمور غير ذات خطر كبير ، فكيف إذن ينكرونه وإنه الآن لأحق أن يتبع فى أخطر محنة تمر بها أمة الإسلام ؟ . .

وأصغوا له . إن الجدل يأخذه . إن حماسته لردهم إلى ما يراه صوابا تنسيه حذره . إنه ليطوف بالقرآن ، وقد أغفل نصيحة ابن عمه ، يتلو منه على أسماعهم آيات توجب التحكيم أو تجيزه فى هذا وذاك من خلافات . . . فالله تعالى يقره بين الرجل وزوجه فيقول :

« . . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما . . . . . »

والله تعالى يقره عند الإحرام فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة . . . . . »

لكن المسألة عند الحرورية ليست مسألة قياسية . إنما هى مسألة « النص » بالحرف والكلمة . ويبدو أن ابن عباس قد أخطأ تفهم أذهان أولئك الذين يناظرهم ، وما طبعت عليه من كزازة وسطحية يحصرانها من طلاقة الفكر فى أضيق الحدود ، فجاءها من حيث كان جديرا به ألا يجىء . وكأن بهم زارون

عليه يقتحمون منطقه وإن صابروه يسمعونه . فآية الطائفتين التى اتخذوها سندا يظاهر نظرتهم لم تنص باللفظ على حكم ولا تحكيم . وهى حقا تقدم الإصلاح بين الطائفتين المتخاصمتين ولكنها توجب بعده مقاتلة الباغية منهما قتالا يجعلها تفىء صاغرة إلى أمر الله . ولفظة « حتى » تعنى موالاة القتال إلى غايته ، وما غايته إلا الفىء ، وما هذا الفىء فى رأيها إلا التسليم . . .

توشك معتزلة حروراء أن تمضى فى تفكيرها على هذا النحو وابن عباس أمامها يجهد لتجسيم رأيه ، وعرضه عليها فى ثوب بيانى خلاب يكتنفه القرآن فى جوانبه وحواشيه ، ويوشك ابن عباس أن يحسبها جانحة إليه بعض جنوح ، مقتنعة بجدله بعض اقتناع . لكنها لا تقتنع ، ثم لا تجنح ولا تميل ، ثم لا تكاد تأبه قليلا بمنطقه هذا الذى أساسه القياس دون النص السافر بالكلمة الصريحة وبالحرف الصريح . . . وإذا هى تمارضه الحجة فتقول :

« أو تجعل الحكم فى الصيد ، وفى الحديث يكون بين المرأة وزوجها ، كالحكم فى دماء المسلمين ؟ . . »

ولا تتلبث به ولابحديثه . فما يمنعها إلا أن تضعه حيث ترى أن يوضع بموضع حسر أو بموضع مخالفة عن نصوص القرآن التى ترسم أحكاما مقررة فى قضايا وحدود ومشكلات توجب اتباعها حرفا حرفا ، وتجب الاجتهاد ، وتسد باب القياس.. وإذن فهى تبين له القاعدة العامة التى لايسعه حيالها إلا التسليم، فتقول :

« أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به . وأما ما حكم الله فيه وأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه . . . . . . »

وضربوا مثلا :

« . . حكم الله فى الزانى مئة جلدة ، وفى السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا ! . . . »

وهذا كلام حق صادق لأنه ترديد لمبدأ ثابت مقرر فى الإسلام ، وفى كافة القوانين والشرائع ، لا يختلف فيه الناس : ابن عباس وغير ابن عباس ! . . فلا اجتهاد رأى مع نص . ولا قياس وثمة حكم معلوم فى قضية معلومة يجب الحكم

فيها بالقياس . . . ومع ذلك ففيم يردد الحرورية الآن هذا المبدأ البديهى ، وفيم يسوقون عليه الأمثال ؟ . . إنما نحسبهم يجيئون بهذا كله تعمية . وبغية لى مناظرهم عن رأيه إلى ميدان المناقشة الذى يختارون ، وإيهاما لمن يسمعونهم أو يتسامعون بهم بأنه قد أتاهم بحجة بيانية مستنبطة فأتوه بحجة قرآنية منزلة لا مكان بعدها لدليل ، ولا وجه لاجتهاد أو تأويل . وما أرادهم أيضا إلا قد أرادوا أن يعيوه ، وأن يضعوه بموضع حسر أو فى منطقة خطرة لا سبيل له إلى اقتحامها إلا بجدل أو بتسليم . فإن جادل لزمته مغبة جداله فى مبدأ دينى الجـدل فيه معصية . وإن أقر فعاجز يحسبهم منه التسليم ! . .

ويفلت ابن عباس . ويعاود النضال عن نظرته . ويعاودون مراجعته وهم يدورون ويلفون ويلجون ما شاء اللجاج . ولـكنه يأبى إلا أن يجد هـــذا التحكيم حقا ، وهذين الحـكمين حقا لا موجب للإزراء به ولا للمـكابرة فيه لأنه وسيلة المسلمين إلى خير عام :

« . . إن الله عز وجل يقول : يحكم به ذوا عدل منكم . . . » .

وعندئذ يماجلونه :

« فهذه الآية بيننا وبينك ! . . . »

ثم يراجعونه ساخرين ، وفى نبراتهم جرس الانتصار :

« . . أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ؟ . . لئن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه ! . . »

وهكذا يتصيدون الألفاظ ، ويلعبون بها ، فقوام شأنهم كله الحروف والألفاظ ! . . . وينظر الرجل إليهم وهو مبهوت يكاد يحس الحسر يعي لسانه . فما أغنى عنه حقه . وما أغنى منطقه . وماهم بكافين هذه السفسطة التى تبتدعها عقولهم الجامدة الصماء . .

ويأتونه من لدنهم بمقطع الرأى الذى لا يراهم يحيدون عنه مهما استعان عليه وحشد لهم من براهين :

« . . . قد حكمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حـكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا . . . إنا دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ، فبم كتبتم بينكـم وبينهم كتابا ، وجعلتم بينكـم وبينهم للوادعة والاستفاضة ، والله قد

قطع الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منـذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية ؟ . . . »

وسرت بينهم همهمة :

« لا حكم إلا لله ! . . . »

وتصايحوا فى وجهه :

« حكمتم الرجال فى أمر الله ! . . »

وتاه ابن عباس من شغبهم فى بيداء . . إنهم لا ريب ينطقون عن هوى أو جهالة . . . فلئن كانوا حقا لا يرون فى هذه القضية إلا الأخذ بالنص ، فأين فى آية الطائفتين النص الذى يحرم التحكيم ؟ . . ولئن فسروا « الفىء إلى أمر الله » فى الآية الكريمة بأنه الرجوع ، أو هو ، بالمعنى الأوضح ، التوبة ، والدخول فى الطاعة ، ولزوم الجماعة ، فكيف إذن تستطيع النقلة من الخصومة إلى الوفاق بغير اتفاق تمهيدى على الدقائق والتفاصيل ؟ . .

لا جدال — بنص الآية — فى وجوب مقاتلة الطائفة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله ولا جدال أيضا ، بنصها ، فى وجوب الإصلاح بين الطائفتين بعد الفىء ولن يكون فىء حتى يعلن ، ولن يتم وينفذ بمجرد النطق به أو الرغبة فيه . . إنما لابد أن يسبق تنفيذه إتفاق عليه كيف يكون . كيف يعامل المسىء . كيف يسلم العتاد إلى غير هذه وأمثالها من أمور تلازم دائما حالات وقف القتال .

غير أن معتزلة حروراء تأبى أن تفهم هذا كله وتمعن فى الإباء بغير موجب وهى تحسب — إذ تعقل — أنها تلتزم ما أمر به الله ، وما تنتبه حين نراها لم تلتزمه فى شىء . وما تخالها إلا خالفت بعنادها عن نص الآية التى اتخذتها سندا ، إذ اجتزأت منها ببعض دون بعض ، وراحت تستمسك بشطرها الأول ثم تغفل شطرها الأخير . ولكى نتبين منها هذا الإغفال أو هذه المغالطة نورد الشطر الذى لم تدخله عند عنتها فى الحساب . . .

يقول الله :

« ... فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون . »

والذى يدلنا عليه النص وترتيب عباراته أن الفىء هو نقطة التحول من البغى إلى الحق ، تقف به الحرب ، وتقر العزائم على الوفاق . ولكنه مع هذا يوشك ألا يحسم الأمر كله إلا أن يلازمه ، أو يتبعه على الأثر ، إصلاح بين الطائفتين بالعدل والقسط ، يحقق اجتناء ثمرة الفىء سلاما وصفاء وطمأنينة تعيد المؤمنين جميعاً ، بشطريهم ، إخوة متحابين فى الله . وبيقيننا أن هذا الإصلاح عامل متمم الفىء ، أو منفذ ومنظم له وإلا ما كان الله أورده فى الآية ولا كرر إثباته مرتين توكيدا للزومه ولفتا للأذهان لتتحرى حكمته وتأخذ نفسها باتباعه . .

ومع هذا فقد غفلت عنه أذهان الحرورية ولم تر الحرص عليه . . . أعن جهالة أم هوى ! . . إنما عصبيتهم الفكرية ، فيما نظن ، هى التى أزلقتهم لأنهم كانوا أبعد الكلف بكل رأى يرونه حتى لتعمى بصائرهم عن كل ما عداه . ولو قد خففوا من كلفهم ذاك ، ومن غلوائهم الرعناء لاجتنبوا المزالق والمصرع على السواء ، ولجنبوا الإسلام فتنتهم الضالة المضللة ، ولما اعتنوا بابن عباس وهو يحاول هدايتهم حتى أيس منهم ، فانعقد لسانه ، وبهت منطقه وهم يتيهون به من شعبهم فى بيداء ! . . .

٧

كانوا لا يزالون يتصايحون حوله . من هنا ومن هناك ، فى عناد وصلف وحماقة : « لا حكم إلا الله ! . . أتحكمون الرجال فى دين الله ! . . »

وكان لا يزال يحاول ما حاول معهم نفس اليوم ، مئات المرات ، عساه يثيبهم إلى الهداية . فإذا صوته يذوب فى ضجيجهم ، وإذا صدره يضيق بالمغالطات والتملات التى حشدوها له ، وإذا لسانه يدور بكلمات تهتز على طرفه وهى تجهد لتشق لنفسها طريقا فى زحمة المراء والضجة . . .

وعندئذ دخل الإمام . . .

مشى بينهم وئيداً ، خطوة ثابتة بخطوة ثابتة . في قلبه ثقة ، وبنظراته طمأنينة ، وعلى وجهه هدوء :

وأتلعوا إليه الأعناق . ومدوا نحوه أعينا مبغوتة . وبدأت كلماتهم المبادرة تجمد على الشفاة . . .

وفي رقة وضع كفه على كتف ابن عمه . وبنبرات عميقة صافية تحمل العتاب اللين همس له :

« انته عن كلامهم ! . . ألم أنهك رحمك الله ؟ . . »

فنهض ابن عباس في الحال ، خفيفا كأنما أزيح عن كاهله جبل ! . . ووقف صامتا يتسمع لهذا الصمت الذى حف فجأة بالمكان وقد كان معرضا من قليل للجاج والمكابرة والصياح . . .

وألقى إليهم الإمام بنظرة تومض ، شملتهم أجمعين ، صفا وراء صف ، وفردا وراء فرد ، حتى إذا رأى انعكاسة النظرة الوامضة تطلعا في العيون المبغوتة ، خاطبهم بصوته الرصين :

« أ كلكم شهد معنا صفين ؟ . . »

قالت طائفة منهم بنبرة مسموعة بينما اهتزت شفاه البقية ترسم حركة الألفاظ :

« منا من شهد ، ومنا من لم يشهد . »

« فامتازوا فرقتين ، فليكن من شهد صفين فرقة ، ومن لم يشهدها فرقة حتى أكلم كلا بكلامه »

وعندما امتاز الجمعان ، دار بعينه لحظة فيهما وفيمن حضر مقامه هذا من غيرهم ، ثم قال للحشد كله :

« أمسكوا عن الكلام ، وأنصتوا لقولي ، وأقبلوا بأفئدتكم إلى . فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها . . . »

ثم التفت لمعتزلة حروراء :

« من زعيمكم ؟ »

قالوا :

« ابن الكواء . »

وتقدم نحوه ذلك الزعيم ، عبدالله بن الكواء اليشكرى ، أميرهم على الصلاة ورمقه على هنيهة . ثم انثنى عنه بعينه وذهنه وقلبه جميعا ، بعيدا ، بعيدا عن الناس ، ودنيا الناس . والخلائق والأمور فى هذه الحياة الدنيا بما تضم من مادة ومعنى ، ومن شىء وفكرة ... انثنى إلى ربه فى لحظات خشوع وابتهال يناجيه ونجواه تضطرم بحرارة الإيمان :

« اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة . ومن نطق فيه وأوعث فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ... »

ثم عاد من مقامه إلى ما كان فيه . فإذا طائفة منهم أمامه ، قد دنت لتسمع وتراجع ، تكاد حلوقها تنشق عن حديثها الذى تحبسه ، وتتأهب به للقاء حبيبه ..

وسألهم وهم فى لهفة إلى سؤاله :

« ما أخرجكم علينا ؟ .. »

واندفعوا يجيبونه الجواب الحاضر ، الذى طالما لاكوه وأعادوه :

« حكومتكم يوم صفين » .

فابتسم . كانت بسمة فيها رثاء وحنان ، وفيها تهكم وزراية ، وفيها عجب ومرارة . فأسمهم لديه ماثل يقول إنها حكومتهم هم لا حكومته ، تحققت بفضلهم وبرغبتهم ، وبركوبهم إياه بالشدة والقهر وحد الحسام حتى أعطاهم ما أرادوه ...

ونفض عنه بسمته . والبس محياه جدا صارما ترجمت عنه كلماته التى جرت إلى أسماعهم فى جرس ثابت عميق :

« ألم تقولوا عند رفعهم للمصاحف : إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه ، فالرأى القبول منهم والتنفيس عنهم ... فقلت لكم : هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان ، وأوله رحمة وآخره ندامة ، فأقيموا على شأنكم ، والزموا طريقتكم ، وعضوا على الجهاد بنواجذكم ، ولاتلتفتوا إلى ناعق نعق ، إن أجيب أضل ، وإن ترك ذل ؟ ... ... »

ثم مضى يذكرهم والأسى يغلب على نبراته :

« . . . لكنكم رددتم على رأيى ، وقلتم : لا ، بل نقبل منهم ! .. فقلت : اذكروا قولى لكم ، ومعصيتكم إياى ... فلما أبيتم إلا الكتاب ، اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن . فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما فى القرآن ، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء . . . »

فأغضوا مليا صامتين . إنه لم يفارق الحقائق التى يعلمونها — وهم سطروها حينذاك بعنادهم — بمثل دقة شعرة أو خيط عنكبوت . . . فمن يؤثمون ومنهم الإثم ، ومن يلومون وهم وحدهم فلك اللوم ومداره ؟ . . لكن فى نفوسهم شيئاً من هذا التحكيم ، الذى فرضوه وارتضوه ثم عابوه ، لا تزال تحس معه الحيرة آنا ، والجزع آنا ، والعذاب النفسى الذى يلازم الشعور بالمعصية آونات . هو يشيم هذا فيهم ، ويراه يضطرب خلجة خلجة ويتلون طيفا طيفا على قسماتهم المكدودة ، فيرفق بهم . ويخفف عنهم بعض ما يعانونه من ندم على ما كان منهم من تداع إلى هذه الحكومة التى بلبلت خواطرهم وأقضت عليهم المضاجع ، فيقول :

« . . . قد كانت هذه الفعلة ، وقد رأيتكم أعطيتموها . . . والله لئن أبيتها ما وجبت على فريضتها ، ولا حملنى الله ذنبها . ووالله إن جئتها إنى للمحق الذى يتبع . وإن كتاب الله لمعى ، ما فارقته مذ صحبته . . . »

وتبدو عليهم الطمأنينة هونا ، فهو أعلم منهم بكتاب الله ، أحرص على التزام أوامره واجتناب نواهيه . . . ومع ذلك يسائلونه متلهفين ، عسى أن يمحو قلقهم بإرشاده :

« نخبرنا . . . أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ . . . »

عندئذ يبصرهم :

« إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن . وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين ، لا ينطق بلسان ، ولابد له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال ... ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن ، لم نكن الفريق المتولى عن كتاب الله تعالى . وقد قال سبحانه : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ..)

فرده إلى الله أن نحكم بكتابه ، ورده إلى الرسول أن نأخذ بسنته . فإذا حكم بالصدق فى كتاب الله فنحن أحق الناس به . وإن حكم بسنة رسول الله فنحن أولاهم به . . . »

وطوف ببصره فيهم ليرى الأثر الذى يطبعه حديثه فى وجوههم ، فى هذه المرايا التى قد تعكس عواطف القلوب ... ومضت عينه من عامتهم إلى خاصتهم . إلى قلة بينها كانت أعنتها به ، وأعتاها عليه ، وأظلمها له ، قد أبى عليه أفرادها فى صفين إلا الانخداع مثلهم بدعوة المصاحف المرفوعة أو يسلموه لعدوه أو يقتلوه . فلما استجاب لهم ، أبوا ثانية إلا أن يختار حكما بذاته فرضوه . وها هم الآن ، فى هذه اللحظة التى يناظرهم فيها ، يأبون عليه كل هذا الذى حملوه عليه حتف رغبته من الموادعة والتحكيم والحكمين جميعا ، ويسائلونه فيه . . .

وتقع عينه منهم على فئة تشهد مقامه . ويتبع خياله فئة أخرى شغلها بعض أمرها عن شهود هذا المقام . فكأنه بالذين حضروا وغابوا على سواء قد أخزاهم الله إذ تبينت لهم الآن مغبة عصيانهم إمامهم ، واختلافهم عنه . وسوء رأيهم الذى أثابهم الندم والحسرة . . ولكنه يستحضرهم فى باله على ما كانوا عليه إبان عتوهم ، والقتال حينذاك ناشب ، والنصر على قاب رمح منهم . وهم يعجلونه عن هذا النصر استجابة لخدعة مفضوحة لعلها لم تكن لتجوز على ذهن غلام . فإذا هم عندئذ مردة . وإذا هذه الجباه السوداء ، التى أعلنتهم بكثرة السجود ، كأنما تخفى وراءها أفهام طفل أو عنت شياطين . وإذا زعيمهم هذا زيد بن حصين ، وزعيمهم ذاك مسعر بن فدكى ، قد أقبلا عليه فى عصابة من القراء أمثالهم ، يتلهب الغضب فى أعينها وهى لا تأبه قتيلا بتحذيره ، بل تهدر وتزأر ، ملوحة بأسيافها أمام ناظريه :

« أجب القوم إلى كتاب الله . . . وإلا قتلناك ! . . »

ثم يستحضرهم أيضا فى باله ، على حالتهم تلك التى طلعوا بها عليه ، بعد استجابته ، بأفهام طفل وعنت شياطين !.. فإذا هم ثانية يشقون عليه ، ويكرهونه

على غير ما يرى ، ويحملونه على الرضا بأبي موسى حكما . وإذا شبث بن ربعى ، هذا الذى كان لهم أمير حربهم فى موقد حزبهم ، يقول :

« . . . إنا والله وإن خفنا على أبى موسى من عمرو مالا يخافه أهل الشام على عمرو من أبى موسى ، فلعل ما خفناه لا يضرنا ، ولعل ما رجوا لا ينفعهم ... فإن قلت : فى أبى موسى ضعف ، فضعفه وتقاه خير من قوة عمرو وفجوره ! . . فأغلق به البلاء ، وافتح به العافية . . . »

وإذا عبد الله بن الكواء اليشكرى . هذا الذى جعلوه صاحب صلاتهم عند الاعتزال ، ويقف الآن منهم بموقف زعامة ، ينبرى إذ ذاك ، ساعة إصرارهم بصفين على اختيار الأشعرى ، فيقول :

« ... إنك أجبت الله فأجبناك . ولكننا نقول : الله بيننا وبينك إن كنت تخشى من أبى موسى عجزا ، فشر من أرسلت الخائن العاجز . لست تحتاج من عقله إلا إلى حرف واحد : ألا يجعل حقك لغيرك فيدرك حاجته منك . . . »

ثم يباعد الإمام من باله هذه الصورة الباهتة من ماضيهم القريب التى أطلعتهم مردة عتاة ، ويستقبل بعينه شخوصهم التى تطلعهم الآن كأنهم أذلة على خزى وقد حضرهم مآل عصيانهم ، ووبال مشاقتهم .. فما أضعف جلد الحائر !.. وما أشدها قوة يستطيع الخور أن يفرض بها سلطانه الجائر على النفوس القلقة ! ... وهاهم أولا — هذه العصبة العاتية المدله بالأمس ، يستكينون لحيرتهم . ويتطلعون للرجل الذى أعضلوا به ، وجرعوه من عنادهم مذاق العلقم ، مطوفين حوله بالقلوب والأبصار عسى أن يكون فى وفاضه ، من ذخر علمه ، ما يثيبهم أمن الأنفس ، ويرد عنهم الحيرة الرعناء . . .

ويعاود ما كان من حديثه عن التحكيم :

« . . . إنا أصبحنا نقاتل إخواننا فى الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل . فإذا طمعنا فى خصلة يلم الله بها شعثنا ، ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا وأمسكنا عما سواها . . . »

ويعاودون مساءلته :

« تخبرنا عن الأجل ، لم جعلته فيما بينك وبينهم فى التحكيم ؟ . . . »

حتى هذا أيضا يسألونه فيه كأنما يغيب عن أذهانهم أن تدركه ولكنها نهكة الحيرة ، وغمة القلق النفسى . وكرب الاضطراب قد ابتزتهم الثقة بأنفسهم ، وشلت عقولهم ، وتركتهم بعشيمة . . .

ويجيبهم الإمام :

« إنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل ويتثبت العالم . ولعل الله أن يصلح فى هذه المدنة أمر هذه الأمة ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق ، وتنقاد لأول الغى . . . »

ومضى يعظهم ويبصرهم . لا يستقبلونه بمسألة إلا أجابهم فيها بما يشفيهم . ومضوا يحاورونه ويسألونه ، لا تعرض لهم شبهة تدفع بها أذهانهم المكدودة ، وتنجبها نفوسهم القلقة إلا طالعوه بها ، واستخبروه طبها . حتى إذا فرغت جعبتهم اكتنفهم الصمت ، فقام يقول ، يعظهم :

« . . . ألا إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق ، وإن نقصه وكرثه ، أحب إليه من الباطل وإن جر إليه فائدة وزاده . . . . . . »

ونهض فنهضوا معه . وخاطبهم فى هدوء ورفق عسى الله أن يهديهم ، ويلم بهم بعض شعث أمته :

« ادخلوا مصركم ، رحمكم الله . . . »

١

أعن هداية عادوا ، أم هى بدوة من بدواتهم ، ونزعة طارئة كبدواتهم ونزماتهم التى طالما تكشفت ثم لا يعرف الناس ، ولا يعرفون هم أيضا ، عقباها ؟.. أحسبها راحة من قلق نفوسهم أفاءها عليهم حديث الإمام ، يومهم هذا ، فانفسحت هونا قلوبهم للرضا ، ولانت هونا عقولهم بها ، فلم يروا إثما فى العودة ... لم يكن ثمة مبرر لانحيازهم عن الكوفة وهم هناك بحروراء قاعدون إن أنكروا باطلا لا يناهضونه أو رأوا حقا لا يؤازرونه . فلقد مضت بهم أيامهم فيها والسيوف فى القرب ، والأكف عاطلة لا تضرب بسلاح ولا بسوط ، وأعضاؤهم كلها خدرة مفترة إلا هذه الألسنة التى أتيح لها أن تتحرك لحظة من ساعة ، أو ساعة من يوم تتحدث بنظرتهم كلما وفد عليهم من رجال على وافد أو نفر يناظرونهم — وقليلا كانوا — ثم تهمد بعد هذا خرساء ! .

فلعلهم بالكوفة ، إذ يخالطون إخوانهم ، تنزاح عنهم بقية هذه الحيرة الذهنية التى لا يزالون يعانون منها ولا تزال تلح عليهم كلما خلوا إلى نفوسهم يذاكرونها سلوكهم أمس ، وسلوكهم اليوم ، والنتائج المحتومة المغيبة التى لا ريب مطالعة الأمة قريبا أو بعيدا لو هم صبروا على هذه الحكومة حتى تبلغ مبلغها ، أو إن برموا فعاجلوها بالتقويض .. ولعلهم أيضا بهذه المخالطة مفسحون لجدلهم آفاقا تريهم الحق أين مأتاه ... ولعلهم بها كذلك أقدر على نشر دعوتهم ، وتصيد المتابعين لها والأنصار لهم إن تبينوا أنها وحدها هى السبيل ...

أحسب هذا كله كان بعض ما خامر خواطرهم وهم يبرحون القرية إلى المصر ، ويدعون العزلة إلى الجماعة . فما بانحيازهم خير معلوم وإنهم به لخرس الأسنة . عاطلو الهام ، أشلاء الأجسام ! وما تضيرهم العودة الآن ، ولا قد أضارهم الاعتزال قبل ، فإنما راموا بهذه وهذا وجه الله لم يروموا وجه على ولا وجه غيره من العباد ...

وتموج الكوفة بجمعهم كأنها فى يوم عيد . ويستبشر الناس فهذه الطائفة التى

أربت على عشرة آلاف من المقاتلة الأشداء ذوى الأيد قد أصلح الله شأنها فعادت تلزم الجماعة ليشتد بها الأزر . . . والناس من فرحتهم يرددون البشرى ، ويتناقلون الرجاء فى مستقبل عزيز وهم يذكرون أن الحرورية عادت إلى طاعة الإمام ، وفاءت بهديه إلى الصواب . . .

لكنها لا تكون إلا مدة قصيرة حتى يختلط الأمر على أهل الكوفة . لا تكون إلا مدة قصيرة ، أياما معدودات ، تعيشها البشرى ، ويحياها البشر ، ويستشعر القوم فيها عزة جانبهم ، ثم تجمد الفرحة ويغيض نبع الرجاء ، ويقبل الناس حيارى ، بعضهم على بعض ، يتساءلون عن حقيقة الدوافع الخفية التى خرجت بهذه العصابة العنيدة من معتزلها حين أيقن وفود أمير المؤمنين ، وصحبه ، والأمة جميعا من ورائهم ، أنها لن تكف عن غلوائها ، ولن تدع رأيها ، ولن تعود . . .

هنا وهناك فى دروب البلدة همس . هنا وهناك عجب وتساؤل . ما التقى رجل برجل إلا ساءله . ولا صاحب بصاحبه إلا ساره فى تحرج وحذر . فلقد ذاع أن هذه الحرورية لم تنزل لعلى عن رأيها ولكنه هو الذى نزل لها عن رأيه ، واشترى منها رجوعها إلى رجاله ، ورضاءها عنه بالتنكر لما كان قد خالفها عليه . . .

وعجب الناس . ولكننا لا نرى ثمة ما يثير عجبنا من هذه الأخبار ما دامت النفوس البشرية أبدا مجبولة على تلمس العذر تدعيه لتبرر به أى هزيمة تحيق بها ، فكرية أو مادية ، وتظنها — إن هى تركتها بغير تبرير — آخذة من مكانتها ، ومنتقصة من هيبتها فى مجتمعها بمقدار . . . ومعتزلة حروراء بشر من البشر ، نفوسهم كالنفوس ، ورجوعهم إلى الكوفة بعدما كان من تأبيهم إن هو إلا إقرار صريح بخطئهم ، واعتراف بليغ بهزيمتهم يتحدث به ملأ الناس ، فلا بد له إذن — فى حساب هيبتهم — من تبرير . . .

لكأنى بهم ، وهذه مشاعرهم ، لا يكادون يستقرون بالكوفة ، ويخالطون أهلها ، ويتسامعون بتلك الأحاديث عن نزوعهم إلى الجماعة والطاعة بعد عزلة وعناد حتى يقول قائلهم :

« إن أمير المؤمنين قد رجع عن التحكيم . . . »

وكأنى بهذه القولة بعد قليل تجر وراءها نتيجتها المحتومة فإذا هى تفصح وتقول :

« . . . إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع ، ويجبى المال فينهض إلى الشام . . . »

وكأنى بشائعتهم هـــذه ومثيلاتها تنطلق بين الناس ، فى الدروب والمحافل والدور ، فتنمو وتكبر ، وتتضح لها الملامح ، وتتخلق فيها زوائد وأطراف كلما انتقلت من فم لأذن ، ومن أذن لفم ، حتى تستوى كيانا كاملا لرواية كاملة تصور بعض ما جرى فى التقاء الإمام بهم ، فتبرز رأيهم ، وتبرز معه نزوع على إليه ، واقتناعه ، وتبنيه إياه بعد توبة واستغفار . . . تقول تلك الشائعات :

حدثهم الإمام فقال :

« أنشدكم الله ، أعلمتم أحدا منكم كان أكره للحكومة منى ؟ . . »

قالوا :

« اللهم لا ! . . . »

« أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ؟ . . »

« اللهم نعم ! . . »

« فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ . . »

فأقروا على أنفسهم بالكفر :

« قد كنا كما ذكرت ، وفعلنا ما وصفت ، ولكن ذلك كان منا كفرا . . . وقد تبنا إلى الله عز وجل منه . فتب كما تبنا نبايعك ، وإلا فنحن مخالفون . . . »

وهنا تقول الرواية إنه بايعهم على ما قالوا ، وأقر على نفسه كإقرارهم على أنفسهم ، وتاب :

« إنى أستغفر الله من كل ذنب . . . ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ، ثم نخرج إلى عدونا . . . . . »

على هذه الهيئة جرت شائعة العصبة القارئة صاحبة حروراء أو على أشباهها من صور وهيئات . وما ننكرها منهم ، فهى بحالتهم النفسية حينذاك أشبه .

وما نأباها كذلك كل الإباء ، ففيها حق لا يرده إلا مبطل ، وفيها باطل لا يقبله إلا أفاك . فهم أكرهوه على هذه الحكومة . وهم أكرهوه على هذا الحكم الذي فرضوه . . . لم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه في الأولى وقد قال :

« . . . احفظوا عنى نهيي إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى . . . أما أنا فإن تطيعونى فقاتلوا ، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم . . . »

ولم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه فى الثانية وقد قال :

« قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن . . »

ويأسف منهم لهذا العصيان ، ويقول :

« . . فعلة ضعضعت قوة ، وأسقطت منة ، وأورثت وهنا وذلة . . . وايم الله ما أظنكم بعدها توافقون رشدا ، ولا تصيبون باب حزم ! . . »

حتى إذا غلبوه على أمره ، وأعطى عهد الله وميثاقه على ما رأوا ، بين لهم :

« . . . فإذا أبيتم . . . فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار . . . »

أفئن شاموا الآن فى عصيانهم المثنى ذاك معصية أقبلوا يهمون أن يثلثوه بمعصية جديدة ، يكفرون بها عما فرط منهم ويتوبون عنه ، هى نقضهم عهد الله ، ثم لا يكفيهم بعدها إلا أن يرموا بالكفر ذاك الذى حذرهم العصيان ؟ . .

على أى حال ، ذاعت هذه الذائعات فى الكوفة بعيد استقرارهم بها ، يعجب لها الناس . ينكرونها حينا وهم يرونها تنتقص من قدر إمامهم وما عهدوه من إيمانه الذى لا تطوله ظلال الشبهات . ويشفقون منها حينا آخر وهم يرونها تدنيهم من النكث وخفر الذمة وتبعد بهم عن الوفاء . ويضطربون فيها ثالثة اضطرابة الحيران القلق الذى توشك الشكوك أن تعصب عينيه . وهى خلال هذا كله تلعب على الألسنة ، وتملأ المسامع ، وتهز الأذهان كلما دارت معهم أينما داروا فى الدروب والمحافل والدور . . .

ودومة الجندل بعد هذا تخايلهم ، فموعد اجتماع الحكمين بها يدنو . والزمن ينطلق ويسير . ولكنه يمضى بهم وئيدا بطيئا يزحف ، ثقيلا شديد الوطء على

نفوسهم . فما يدرون أيجتمع الحكمان فتكون حكومة أم هذه الحكومة حقا ضلال فلن تكون . ويدع أناس ما كان من تحرجهم وهمسهم بتلك الذائعات فلا مناص الآن من إعلانها ، ولا حيلة لهم فى المشى بها إلى الأمام ليعلموا منه خبرها اليقين . . .

ويصارحه قائل مومئا إلى أصحاب حروراء :

«يا أمير المؤمنين . . . إن القوم قد تحدثوا أنك رجعت لهم عن كفرك ...»

فيعجب . ويغضب من الفرية الممعنة فى البهتان .

ثم تكون الذائعات قد استعارت أجنحة طارت بها عبر البلدة ، تبرح أبوابها ، وتنتشر بعدها بين الشمال والجنوب ، وبين المشرق والمغرب ، فتملأ الحواضر والبيد حتى يأتيه من الشام من يقول :

« إن معاوية قد وفى ، فف أنت لا يلفتنك أعاريب بكر وتميم . . . »

عندئذ يرى لزاما عليه أن يكف عبثهم ، وأن يضع الناس على بينة من الأمر . وإذا هو ذات ظهيرة يدخل المسجد فيعتلى منبره ، ويخطب فيمن أقبلوا للصلاة . فلا يدع شيئا من قصة هذه الحكومة إلا ذكره ، ولا من هذه الشائعة التى تشيع حولها إلا دحضه ، ولا أناسا أذاعوها قد ابتدعوها إلا أكذبهم . . . ثم رماهم بنظرته فى الأمر بيضاء بلقاء بغير شبهة :

« . . . ألا من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ! . . »

فما هو أن ينطق بمنطقه ، حتى يثب من بين الناس رجل يصيح فى حدة كأنما قد تخبطه مس :

« يا على ! . . . أشركت فى دين الله الرجال ، ولا حكم إلا الله ! . . »

ويتواثب على أثره طائفة ، هنا وهناك بالمسجد ، يملأون أركانه صياحا وجلبة :

« لا حكم إلا الله ! . . »

« لا حكم إلا الله ! . . »

« لا حكم إلا الله ! . . »

ثم لا تكاد الصلاة تبدأ حتى يرتفع صوت أحدهم يتلو :

« . . . ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . . . »

فإذا الإمام لا يدع هذا التعريض الذى أراده به ذلك التالى المكابر ، فيبادر بتلاوة :

« فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون . . . »

ومن تلك اللحظة تسفر الحرورية عن عداوتها . فما كانت عودتها إلى الكوفة نزوعا إلى الحق والتزاما لجانب الجماعة بقدر ما كانت بدوة من بدواتها التى تخبطتها بين اليقين والحيرة ، وما تزال تتخبطها أبدا فى الريب والشكوك ما بقيت تسعى معصوبة العقول والأعين لا تستطيع أن تتبين الطريق .

٢

غدا المسجد موئل حجاجهم . أنى دخلوه أثاروا فيه ألوانا من الجدل والسفسطة . وغدا القرآن متأولهم ، يتخاطبون به ، وبه يخاطبون غيرهم ممن يخالفونهم فى الرأى ، لا يتحرجون عن إخضاع آياته لتأييد شعارهم مرة ، ونقاشهم أخرى ، وإن علموا أن هذه الآيات ما نزلت إلا فى غير هذا الشعار والنقاش . . .

وغدا على بعد هذا هدف ألسنتهم الزارية العيابة . تتناوله وهو غائب . وتتناوله وهو شاهد . وتتناوله وهو قائم فى صلاته بين يدى الله . كلما وسعهم أن يعيبوه عابوه ، وأن يشاقوه شاقوه . وهو أحيانا يغضى أو يلطف ، وأحيانا يرد ويعارض . . .

والأمثلة على غلوهم فى شقاقه كثيرة . . . يثورون بشعارهم فى وجهه ذات مرة :

« لا حكم إلا الله . . »

فيجيبهم بهدوء :

« كلمة حق أريد بها باطل ! »

ويثورون أخرى ، فيقول يتوعدهم :

« حكم الله أنتظر فيكم ! . . »

ثم لا يكون منه إلا التسامح الذى هو بخلقه أليق ، فلا يعنف بهم ، ولا يحرمهم حقهم فى معارضته وإبداء رأيهم حرا بغير حظر ولا تقييد ، فيعلن لهم سياسته فيهم :

«أما إن لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه . ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تبدأونا . . »

ومع هذا ينبرى له منهم من يقول فى غرور وصلف وهو يسوق مشاقته فى ثوب القربة إلى الله :

« . . اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية فى ديننا فإن إعطاء الدنية فى الدين إدهان فى أمر الله ، وذل راجع بأهله إلى سخط الله ... يا على ! . . أبالقتل تخوفنا ؟ . . أما والله إنى لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مصفحات ثم لتعلمن أينا أولى بها صليا ! . . »

لكن الإمام لا يثور . ويدعهم وصلفهم ، إنه ليعلم أنهم أهون عليه من غضبة يستقبلهم بها وهذه مصارعهم تخايله وتوشك أن تتحدث إليه غير مقتصرة ولا موجزة ! . .

يظل يأخذ نفسه معهم بالروية فى أمرهم ، وبالتبصير والإرشاد والاستصلاح يجرى بها إليهم صحبه كلما وسعه أن يزجى نصحا أو رجا أن يهديهم . فإذا تسامحه لا يلين من جانبهم شيئا . وإذا هديه لا يزيدهم إلا إصرارا على رأيهم ومكابرة فيه . وإذا هم يعودون كبدئهم أو أشد عنتا فلا يكفيهم أن يغلوا فى القضية ما شاءوا حتى يبدو لهم أن يرددوا أمورا غيرها قد رث ترديدها ، وأن يقبلوا صحائف ماض دارس يلقفون منها أسطرا يحلو لهم أن يتخذوها مادة تضيف إلى إغراقهم فى اللجاج والخصومة . . .

هم إذن شعبوا خصامهم شعبا ، وفرعوه فروعا ، ما كانت لتنبت إلا عن كلفهم بالجدال والمحاجة . فليس يكفيهم الخوض فى هذه الحكومة ومناقشتها من حيث هى ،

فى حسبانهم . الخطأ السياسى الذى له آثاره الضارة بالجماعة ، ولا فى هذا الخطأ من حيث جسموه فجعلوه المعصية الدينية التى تبلغ الشرك فتصغر أمامها كل معصية . . . إنما يمضى بهم عنهم أشواطا فيجادلون فى الألفاظ التى كتبت بها الوثيقة ، وفى معانى ودلالات شتى يخرجونها من هذه الألفاظ وينحتونها نحتا ، آنا معقولة وأونات كثيرة غير معقولة . ثم يشردون مع الولع اللحج بالنقاش فيجادلون فى أمور بعيدة كل البعد عن شعارهم ، لا تتصل به فى القليل ولا فى الكثير وقد سلف للناس الفراغ منها وباتت الآن فى طى النسيان . . . . . .

تشهدهم الكوفة إذ ذاك يعاودون عيبهم على الإمام أن قد حكم الرجال فى دين الله ، مع ما قد سبق من حجة له عليهم بحروراء وبالكوفة على السواء رعمها لسانه ورددتها ألسنة صحبه ووافديه ، لكنهم يؤثرون أن ينسوا حججه وبراهينه لأنهم يؤثرون أن يعودوا لبدئهم ليشبوها فتنة كاد يحتويها الرماد . ويحلو لهم دائما أن يطمسوا الذاكرات والأعين حتى عن مجلسه ذاك الذى لا يزال الناس يتحدثون به ويتندرون فى مجالسهم بما جرى فيه . فلقد شاء الإمام ذات يوم أن يأتيهم بالدليل « العملى » التى تحسر أمامه سفسطة جدالهم ولغوهم ، فاقتعد الدار لا يستقبل فيها إلا كل قارىء يحمل القرآن ويعيه . فلما أن امتلأ المكان بالقراء وضاق ، أخذ مصحفا فجعل يصكه بيده وهو يناجيه :

« أيها المصحف ، حدث الناس ! . . »

فعجب الجمع ، وقالوا له :

« يا أمير المؤمنين . . . ما تسأل إنما هو مداد فى ورق . وإنما نحن نتكلم بما روينا منه . فما تريد رحمك الله ؟ . . »

وعندئذ قال :

« أصحابكم هؤلاء ! . . »

وكانت لفتة تغنى عن المجادلة والبيان . . .

وتشهدهم الكوفة أيضا يكرون لما بدأوه من أخذهم عليه أنه محا اسم إمرة

للؤمنين عن نفسه بالوثيقة مع أنه قد علل لهم من قبل هذا المحو فأحسن تعليله ولكنهم يعاودون :

« انسلخت من قميص ألبسكه الله ، ومن اسم سماك به الله . . . »

ثم لا يكفهم عن المعاودة والترديد أن قد تلا عليهم فى مجال المحاورة :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . . . »

فالرسول قبله قد محا الرسالة عن اسمه ، فى صحيفة الحديبية حينما أعنت به سهيل ، وافد قريش ، ولم يقل امرؤ عندها ولا بعدها إنه ليس برسول الله . . . لكنهم ، فيما يبدو ، أحبوا له ما لم يحبوه للرسول ، وكانوا أحرص منه على إمامته حتى ألبسوها قداسة تدخل فى روع الناس ما ليس فى الإسلام من عصمة الحاكم ، ومن حقه الإلهى فى ممارسة سلطانه بغير معقب ولا رقيب من الشعب المحكوم . . .

وتشهدهم الكوفة كذلك يستخرجون من صحائف الماضى وقعة الجمل فيعيبون على الإمام قائلين :

« قتل الأنفس الحرام ولم يقسم السبى والأموال . . . »

وكأنما قد نسوا أنه أبى عليهم بعد تلك الوقعة جشعهم الذى دفعهم إلى التنادى بعد النصر بتقسيم الأموال والسبى فيهم ، وأنه قال لهم حين أسرفوا عليه وعلى أنفسهم بالإلحاح :

« فأيكم يأخذ أمه ؟ . . أقرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة ! . »

وكأنما نسوا أن ابن عباس قال لهم بحروراء عندما عادوا لهذا الحديث :

« قد كان فى السبى أم للؤمنين ، فإن قلتم ليست لكم بأم كفرتم ، وإن استحللتم سبى أمهاتكم فقد كفرتم . . »

لكنهم ، ولعا بالجدل ، ينسون ! . . وهم أحرياء بأن ينسوا كل حجة يرونها تنهض لمنطقهم حتى يظلوا أبدا — فى أعين أنفسهم — أصحاب الفلج والرجحان . . . وسنخال تعصبهم إلا قد أعماهم ، فالذى عصب بصره لا يرى سوى العصابة . ومن أغمض عينيه خليق بأن يشرد به الظلام كل مشرد ثم يختبل عن طريق النور .

وما كانوا إذن بمهتدين وقد غلوا بظلمهم فأغرقوا نفوسهم فى غمرة من الريب

والشكوك حق بها عليهم الضلال وما سلف من نبوءة رسول الله فيهم وإنهم إبانها لأجنة فى بطون المجهول . . . فلقد قال عنهم :

« تفترق أمتى فرقتين ، فتمرق بينهما مارقة فيقتلها أولى الطائفتين بالحق ... »

ولقد مرقت هذه المارقة على حين فرقة من الناس ، كما ذكر محمد ، لم يكفها علمها عن المروق . وأخذ شكها يتخبطها فمرة فى لدد ومرة فى هدنة ، وآنا تشق وآنا تفىء . وإنها لتفترق فيما بينها فرقا شتى لا يصبر جميعها على أمر واحد فإذا بعضها يخافت بعدائه ، وإذا بعضها يجاهر به ، وإذا منها من يسبق إلى التشرع للحرب يتعجل — بزعمه — الشهادة وما وراءها من رضوان الله ، ومنها من يقعد عنها ريثا وتؤدة ثم لا يكون مصير العجول والقاعد كليهما إلا مصارع سبقت فى الغيب تهيئها يدا الإمام . ولعلها أن تكون أطفأت من فتنة لولا سيفه لكانت أخلق بأن تسرح وتأكل وتمتد إلى حيث لا يعلم إلا الله . . .

ويسمع الإمام مرة قارئا يرتل :

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . . »

فيبتسم ويقول :

« أهل حروراء منهم ! . . »

٣

الكوفة تضطرب . . .

النفوس فيها قلقة . الحديث فيها جلبة ولغط . الجدال يعلو إلى ذروة الخصومة ... فها هى دومة الجندل تتهيأ لتستقبل حكم الشام وحكم العراق . ها هو شعبان أقبل وموعد اللقاء حل . ها هم الناس يهرعون بالأخيلة والظنون — لا فى البلدة وحدها بل فى منازل الإسلام كلها — إلى ما سوف يسفر عنه هذا الاجتماع المرقوب . . .

وتضطرب الكوفة ...

وليس اضطرابها لأن مثين أربما من أهلها توشك أن تخف بهم رواحلهم إلى الشمال ليكونوا شهودا على الحكمين اللذين اختير عن الفئتين ليحكما بكتاب الله . ولا لهذا الضجيج الذى يصاحب الرحيل عادة ويدفع الشيمين ، من هنا ومن هناك ، إلى وداع المثين الراحلة . ولا من قلق لما عسى قد تنجاب عنه الحكومة من نتائج وآثار . . . لا لهذا كله اضطراب حاضرة على فى هذه الفترة قبيل مسير وفدها ، ولا عند تشييعه ، ولا إبان مخرجه عن حدودها إلى منبسط الصحراء يدب على الدرب إلى مقر التحكيم ... إنما هزها أولئك الحرورية الذين أثاروا فيها جدلهم أضعافا ، ورفعوا أصواتهم صياحا وجلبة وهم يرون الحكومة التى ينكرونها ، وطالما حاربوها وهى فكرة ، تخطوا خطواتها الحاسمة نحو التحقيق . . .

الآن لا منطق ولا حجة . ناء جهدهم بالحديث . . . منطقهم كأنه عواء . حجاجهم سباب . نقاشهم تلويح بقبضات الأيدى المتوعدة وتقبض على القسى والسيوف . . . لم يعنفوا من قبل مثل عنفهم هذا . ولم يخرجوا عن طورهم كخروجهم هذا . ولم ينالوا الناس من مخالفيهم بمثل هذه المساءات التى أخذوا يحشدونها وينالونهم بها اليوم ووفدهم — هذه المثين الأربع — مودع ، وركبه يهم أن يسير . . .

ولم يسلم على منهم ، وما كانوا ليدعوه . عنتهم دائما يلاحقه . فى الدار ، فى الطريق ، فى المسجد ، وأينما ثقفوه . حتى فى صلاته كانوا يعارضونه بالعيب والعنف والمكابرة . إن هو أغضى عنهم وعف ثاروا ، وإن أجابهم لا يكادون يتركون فرجة ينفذ بها إلى أسماعهم حديثه من خلال ما يشبونه من الصياح والضجيج . بل إن منهم لأناسا كانوا يجابهونه بما يشاءون من لجاجهم فإذا شهدوه يحرك شفتيه ويهم أن يقارعهم لتوهم بحجته وضعوا أصابعهم فى آذانهم لكيلا يسمعوه ! . . .

وأكثر عليه صحبه فى أمرهم ولكنه بقى على ما انتهجه حيالهم من الرفق بهم ما وسعه ، ومن إمهالهم والصبر عليهم . فلعلها بدوة من بدواتهم تخففها الأيام ، ولعلها غمرة وتنجلى ... ويأتيه فيهم الأشعث بن قيس فلا يزيد على أن يقول له :

« لا أقاتلهم حتى يقاتلونى . . . »

ثم يسكت قليلا ، ويكمل وهو أسيف :

« . . . وسيفعلون ! . . »

« فلقد أخرجوا دخائلهم .

ومع ذلك فالخير فى أن يداريهم ويعالج شرورهم فى الغى بالكف عنهم والاستغناء بهم عسى أن تلهث منهم الأنفاس قبل أن يبلغوا شوطهم من اللدد والخصومة . وإن هى إلا أيام أوأسابيع ثم تبدو نتيجة هذا الاحتكام فيعلم موضعه ، ويعلمون مواضعهم ، وقد يؤلف بينهم وبينه حكم القرآن . . .

والحق أنه لم يكن له عن التصبر سبيل . فليس يستطيع أن يحملهم على ترك تذبذبهم هذا بين الهدى والباطل وهم مرة يرضون ومرارا كثيرة ينحرفون . وليس يستطيع أن يخاصمهم بمنطق القوة الذى غدا الآن منطقهم للفصل ومجتمعه فى هذه الآونة أحوج إلى الاحتفاظ بالهدوء والوحدة أو بمظهر الهدوء والوحدة حتى لا يطمع فيه عدوه ولا يكون للاضطراب والانقسام آثارها فى رأى حكمه الذى أوفده وفى نتيجة التحكيم التى ينتظرها الناس . . .

هو إذن يداريهم ويمهلهم ما وسعه وإنه لعليم أن الشك هوالذى يميل بخطاهم ويسوقهم فى غلوائهم إلى أقاصيها حتى ليقول مرة وقد شهد منهم رجلا قد قام الليل يتهجد ويتلو القرآن :

« نوم على يقين خير من صلاة فى شك ! . »

وهو يترفق بهم ويعف فى أحايين كثيرة عن سفاهتهم . يسمع الشتم ولا يرده عليهم ، ويرى من بعض صحبه الغضب له على مايصيبه فيكفهم عن الشاتم المسىء . . كان مرة يعظ الناس فأعجبت موعظته حروريا فإذا هو يهتف وهو كاره :

« قاتله الله كافرا ما أفقهه ! . . »

ويتسامح الإمام فيدع العائب وشأنه . ولكن بعض صحبه يثيرهم من الإمام حلمه كما يثيرهم من الخصم سفهه فيهمون بالحرورى يوشكون أن يقتلوه : وعندئذ ينهاهم على فى لين :

« إنما هو سب بسب ، أو عفو عن ذنب ... »

لـكن ترفقه بالحرورية كل هذا الترفق لايكفهم عن هذه المشاقة التي يصطنعونها في غير تأثم ولا حرج ويغرقون فيها كل الإغراق . بل لعله يزيدهم عنتا ولجاجة فيغرون به سفهاءهم وسلطاءهم يجبهونه في كل لحظة بما يسيئه ليعضلوا به ، ويبهظوه ويخرجوه عن طوره الخروج الذي يرمونه ويرونه الدواء المام فيه . . . حتى إذا طال عليه عنتهم وهو صابر ، وفرغت حيلهم دون أن تثمر ما أرادوه . مشى إليه زعيمان منهم ينذرانه ، ويسفران عن عداء جماعتهما بلا مواربة ولا إخفاء . . .

يدخل عليه الرجـــلان وفي ملامحهما ينطق تحديهم ، فيبادرانه بالهتاف التقليدي المعلوم :

« لا حكم إلا الله ! . . »

فلا يثور . ويردد وهو هادئ :

« لا حكم إلا الله . . . »

وعندئذ يخاطبه منهما حرقوص بن زهير ، مغفلا لفظة الإمرة ، مسرفا في عنف مقاله :

« يا على ! . . تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا . . . . . . »

ويمضى الرجل وإملاءه . ويمضى على وإصغاءه إصغاء جميلا غير مشوب بمراجعة ولا مقاطعة حتى يفرغ الغوى منطقه فيجيب برفق وفي أناة :

« قد أردتكم على هذا فعصيتموني . وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا ، وشرطنا شروطا وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا . وقد قال الله عز وجل : وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليـكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . . . »

وما أتاهما بجديد ، فهذا حديث معاد سمعوه منه ورضوا به ثم آثروا الآن أن يرفضوه . ولـكنه هو الحديث وهو الدستور الذي يجب أن يحتذيه البشر في معاملاتهم في كل أوان ومكان لأنه لب الشرائع ونهج الأخلاق . . .

لـكن حرقوص بن زهير يأباه ، ويتعلل لإبائه بأن يقول :

« ذلك ذنب ينبغى أن تتوب منه ! . . »

فيجيبه الإمام يصحح له :

« ما هو ذنب ، ولكنه عجز من الرأى ، وضعف من الفعل . وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه . . . »

غير أن الرجلين يخلطان بين المعصية وخطأ التقدير . بين الدين وسياسة الأمور . بين ما المرء أن ينظر فيه ويدلى بالرأى وبالعمل وبين ما تمليه عليه الشريعة وليس له دونها اختيار . . .

ويصيح به ثانيهما . زرعة بن البرج ، يتوعد :

« أما والله يا على ، لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله عز وجل قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه ! . . »

عندئذ يهتف الإمام زاريا وإن لمحة من لمحات المجهول لتبدى لعينه مصارع القوم ومصرع هذا المدل بجبروته جزاء وفاقا على سوء رأيهم وانسياقهم مع الهوى إلى مصير محتوم :

« بؤسا لك ما أشقاك ! . . لكأنى بك قتيلا تسفى عليك الريح . . »

فأمعن الرجل فى مكابرته وعناده :

« وددت أن قد كان ذلك ! . . »

« ويحك ! . لو كنت محقا كان فى الموت على الحق تعزية عن الدنيا .

ولكن الشيطان قد استهواكم ، فاتقوا الله ... ... »

لكنه لا يسمع الصم ، ولا يسمع الموتى فى القبور ! . .

٤

بيتوا أمرهم بليل . . .

كانت نذر خلافهم تتجمع فى الأفق ، واضحة لكل ذى عينين ، كتجمع خطوط الأصيل الحمراء خطا إلى خط حتى تكسو السماء بلونها الدامى الذى يرسم طليعة الغروب . . . وكان الزمان حينذاك مغربهم . وكانت أحداس النفوس تطلعهم صرعى ، دمهم كرقعة الشفق ، وشخوصهم على هذه الأرض كالظلال الباهتة التى تلقيها الأشعة الآفلة ثم لا تلبث أن تذوب فى المساء . . .

ما من امرئ إلا قد استيقن مصيرهم من قبل أن يحين . لا خير فيهم . لا جدوى من وراء مطاولتهم كل هذه الأيام والليالى . لا رجاء فى استمادتهم إلى الجماعة التى شقوها بعنادهم وباعدوا ما بينها وبين أنفسهم وإن ساكنوها بأبيات البلدة وقاربوها بالأبدان . فما أبعد الفكر عن الفكر ، والنظرة من النظرة ، ومشاعر القلوب من مشاعر القلوب . . .

إنهم أسرى وهم يلوح فى خواطرهم عقيدة . أوقعتهم فى براثنه كزازة ذهن . كبلهم فى أغلاله تعصبهم . حبسهم فى سجنه المظلم ضيق . أفقهم خالوه فى مثل انطلاقة الفضاء الفسيح . وكلما انفتحت لهم فى جدره كوى سارعوا فسدوها لا لأنهم يبرمون بالضياء الذى سيتسرب إليهم من خلالها بل لأنهم يخشون أن تقتحم عليهم بعض النسمات الحرة الطليقة محبسهم العطن فتطفئ ذبالة رأيهم الواهن الذى قد آثروا أن يعيشوا عليه . . .

وكانت شكوكهم هى التى تحركهم كما تحرك الرياح الهوج أوراقا جافة ذابلة فى إبان إعصار ، أحيانا يمنة ، وأحيانا يسرة ، ودائما تعلو بها معابثة وهى تدور كالدوامة ثم لا يكون شأو هــذه الحركة إلا السكون والعودة بالأوراق الحائرة إلى حيث كانت لا إلى حيث تصير وتسكون ! . فهاهم أولاء بعد طول مناظرة وحجاج وتحذير يكرون ثانية إلى بدئهم فينكرون ماتعبت الألسن فى دحض إنكارهم له ، ويتمسكون بما أظهروا ، مرات كثيرة ، صدق النية فى تركه والإقلاع عنه . .

حق ذلك الفاصل البين بين حق على وباطل معاوية قد غم عليهم هم الذين قد هرعوا إليه قبل القتال يعلونه حتى غدا سورا شاهقا ما إلى اقتحامه ولا تجاوزه سبيل . ولكنهم فى غمرة شكهم لا يرونه ، ولا يذكرون لبنة واحدة منه ، ويقبلون فى ساعة من ساعات حجاجهم لابن عباس وكأنهم أجهل الناس به . . .

يقول لهم ابن عباس وهو يهون عليهم ما يبهظهم من أمر التحكيم :

« . . . ولقد أخذ على على الحكمين ألا يجورا ، فإن يجورا فعلى أولى من معاوية وغيره . . . »

فإذا هم يقولون وهم فى ريب :

« إن معاوية يدعى مثل دعوى على . . . »

كأنما يسوون بين الدعويين ولا ينكرون على عاهل الشام دعواه .

ويجيبهم ابن عباس كالساخر :

« فأيهما رأيتموه أولى فولوه ! . . »

« صدقت . »

لكنهم ينسون كل هذا الذى حاربوا عنه ، وجادلوا فيه ، وأظهروا المرة بعد المرة الاقتناع به ثم ينطلقون وهم أشد ما يكونون سخطا وأعتى حقدا على الإمام فيبيتون أمرهم بليل . . . فى ظلمة الأماسى ينسلون كالخفافيش من دار إلى دار ومن منزل لمنزل تتخبطهم وساوسهم ليتهامسوا بالتآمر . والعيون حينذاك عنهم فى غفلة . والخواطر تحسبهم لا يزيدون شيئاً على هذا اللغط الذى يجاهرون به فى الجامع وعلى ملأ الناس . . .

وتجمعهم مرة دار عبد الله بن وهب الراسبى ، ذلك الرجل ذى الثفنات الذى تقرحت جبهته من فرط سجوده . وإنهم جميعا لعلى مثل هيئته ، تحسبهم من سيام يفنون تقى ويذوبون زهادة ، كأنما كانوا من أولئك الذين يعنيهم على بقوله :

« . . . اتخذوا الأرض بساطاً ، وترابها فراشاً ، وماءها طيباً ، والقرآن شعارا ، والدعاء دثارا ، ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح ... »

فإذا بلوتهم فهم على غير مظهرهم ، تكاد تصدق فيهم قولته التى ينعت بها المنافقين :

« ... يتلونون ألوانا . . . يعشون الخفاء ، ويدبون الضراء : قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء . . . إن سألوا ألحفوا ، وإن حكموا أسرفوا . يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون . . . فهم لة الشيطان ، وحمة النيران . أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . . . . . . »

تجمعهم حينذاك دار صاحبهم ابن وهب وإنهم لقراء مثله ، لهم علائم السجود والتهجد ، ولا شعار يتنادون به بين الناس إلا كتاب الله . فإذا أجنهم ليلهم ، وغلقت عليهم الأبواب تجاهروا فيما بينهم بالمؤامرة يدبرون الشر ويمهدون طريقه . . .

ويقوم فيهم صاحب الدار يخطبهم :

« . . . أما والله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا — التى الرضا بها ، والركون إليها ، والإيثار إياها عناء وتبار — آثر عندهم من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والقول بالحق وإن مر وضر ، فإنه إن يمر ويضر فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله . . . . . . »

ويمضى الرجل وعظته مليا ، ثم يطالعهم بهذا الأمر الذى جمعهم له ، ورأى أن يحرضهم على العمل به :

« ... فاخرجوا بنا ، إخواننا ، من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا السواد ... إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه الأحكام الجائرة ، والبدع المضلة ... »

ويعقب بعده حرقوص بن زهير :

« إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وشيك ، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . . »

كذلك يتمدون فيما بينهم الخروج من بين ظهرانى القوم الذين ظلموا لينكروا البدعة المضلة التى تمثلت فى التحكيم . فأما وسيلة هذا الإنكار ، وأما للهجر الذى عزموا على انتجاعه ففكرة لا تزال تدور فى الأخلاد دون ظهورها إلى نطاق النفاذ مجامع لم تشهدها الأمسيات فى خفية ودبر العيون والأسماع . . .

ثم تجمعهم ، ليلة ثانية ، دار زيد بن حصين فلا يكون وعظه إياهم بأدنى من وعظ صاحبه ، ولا حثه بأقل أثرا فى نفوسهم المفتونة بفكرة الجهاد وإن غرتهم نفوسهم فخلطوا بينها وبين الفتنة . وإنه ليحرض ، ويتلو عليهم من القرآن حتى يشتعلوا حمية فتتلهف عزائمهم على ما صورته أوهامهم من صدق البلاء فى ذات الله . . .

يقول لهم فيما قال :

« . . . إن الله قد أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد فى تقويم السبيل ... وقد قال عز وجل لنبيه : يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . . . وقال تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . . . . . »

ولا يزال يتلو عليهم ما شاء حتى يبلغ من قلوبهم مبلغه ، فيقول لهم ، مصارحا فى غير إخفاء :

« . . . اللهم إنى أشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهدى ، ونبذوا حكم الكتاب ، وجاروا فى القول والأعمال ، وإن جهادهم حق على المؤمنين . . . »

ويفعل قوله فيهم فعله حتى لينهض من بينهم رجل ، تثب به حميته وتهزه مشاعره وثوبا أرعن وهزا عنيفا فيبكى ويصيح وهو يكاد يشرق بدموعه :

« ... اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم ! .. فإن أنتم ظفرتم وأطيع الله كما أردتم ، أثابكم ثواب المطيعين له ، العاملين بأمره . وإن قتلتم ، فأى شىء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته ؟ . . »

وما كان هذا بآخر اجتماع .. بل كأنى بهم لا يزالون يجتمعون الليالى المتعاقبة فى هذه الدار أو فى تلك من دور رءوسهم وأساطينهم ، يخالسون فيها بمجالسهم ولاحديث لهم إلا تدبير هذا الخروج الذى غدوا وهم لا يجدون عنه محيصا لإحقاق حق الله والجهاد فى سبيله . وما كان شىء يمنعهم من المبادرة بتنفيذه إلا أن يحكموا له

التدبير ، ويهيئوا المقومات التي تكفل إنجاحه وتمضي به إلى الغاية التي تخايلهم من وراء تفكيرهم السقيم . . .

واقت وضحت الآن خطوط هذا التدبير . .

فأما مهجرهم فذاك مكان لعلهم يضمرونه إلى حين .

وأما وسيلتهم لإنكار البدعة المضلة فليس الأمر بالمعروف ، ولا النهي عن المنكر اللذين لغطوا بهما من قبل وأكثروا فيهما بالحديث . ولكنه التنكر لمنطق المحاجة بالحسنى والانحياز إلى منطق القوة وضرب الجباه والوجوه . . .

وما يمنعهم ؟ . . إنهم — فيما يوقنون — بسبيل هجرة ! — خروج في الله كتلك الهجرة التي فر بها محمد بدينه ، منذ قرابة ثلاثين عاما ، من بين ظهراني قومه الذين كذبوه وساموه الاضطهاد والعذاب . الآن عزموا على أن يفروا فراره ويخرجوا كمخرجه ، يسيحون في الأرض إلى ملاذ يمنعهم من ضلالة مخالفيهم أن تضلهم وتفتنهم ويدعهم خفافا يفرغون إلى لقاء الضلال المناوئين لعلهم أن يحملوهم قهرا على الجادة ويلزموهم أمر الله فإن نجح سلاحهم فذاك قربة إلى ربهم ، وإن تقطعت بهم أعمارهم دون غايتهم المنشودة في الله إذن هجرتهم ، وفيه مصارعهم ، وعنده المآب والثواب . . .

وتمضي الليالي تباعا ودورهم تتلقاهم ، وأبوابها تغلق على سرهم ، ومذا كرتهم أمرهم تمدهم في كل ليلة بحطب جديد للفتنة . . .

وتمضي أيضا والناس من مخالفيهم في شاغل عنهم بذلك الوفد الذي بارح الكوفة ، وبذلك الآخر الذي بارح دمشق . . .

ثم تمضي كذلك وعيون المسلمين من كل مصر ، ومن كل رأي ، تمتد إلى دومة الجندل . إلى أبي موسى وعمرو بن العاص . إلى الحكمين اللذين انتهى بهما المطاف إلى البلدة الصغيرة على الحدود بين العراق والشام . وتتعلق الأنظار بهما وبهذا القرآن بينهما الذي قد أبرم العهد على أن يستخبراه حكمه فيما شجر بين الفريقين من خلاف .

وتعلو صدور وتهبط . وتسكن قلوب وتضطرب . ولكن الأخيلة جميعا

فى دولة الإسلام عامة ، تدنو من شفاه هذين الحكمين تنصت فى توجس ولهفة إلى كل كلمة ، وكل حرف ، وكل همسة قد تكون أنفاسا خلت من الحروف والكلمات ، عسى أن تتبين فيها المصير اللازم الذى ينتظر الناس ...

أما هذه الحرورية فعلى بينة الآن مما يريدون فعله فقد أينع تدبيرهم ، وقرت عزائمهم ، اتفق الحكمان أو اختلفا ، اجتمع الناس أم افترقوا ، لأنه لا مناص من جهادهم فى الله ! . .

٥

كان الناس بدومة الجندل كألوان الطيف ! . . طوائف شتى ، وأفكارا شتى . فيهم العلوى . وفيهم الأموى وفيهم أيضا الحرورى بالعاطفة وإن لم يستمله الهوى كل الميل فيرفع السيف فى مذهبه كإخوانه الذين عانت منهم الكوفة . . . وفيهم بعد هـذا فريق يؤثر التطلع ويراه متعة لنفسه ثم لا يبالى أن يقع الأمر فى يمين أولئك أو يمين هؤلاء من طائفتى الخلاف . . .

البلدة الصغيرة تحتويهم فإذا هى بهم مثل خلية تعج بالطنين . ودخائل نفوسهم تجيش بهم فإذا هم منها فى مثل لجة عاتية من القلق ، تهدر وتضطرب مدا وجزرا وليسوا يدرون أمنتهى مطافها بهم إلى بر آمن أم إلى مهوى القاع . . .

هنا ، فى هذه الناحية ، أصحاب معاوية من وفد الشام ، يتكتمون فى صدورهم لواعجهم ، ويرسمون على ملامحهم السكينة . لقاؤهم حذر . حديثهم بينهم إيماء . نقاشهم ، إن تحركت به شفاه ، مسارة . الأسماع المتربصة بهم قد تلتقط بعض همسهم بين آن وآن ولكنه لا يكون عندئذ إلا هينمة مبهمة لا تخلو عن خفقة نفس ولا تكاد تفصح عن حرف . فإذا اجتمعوا فعلى رضا ، وإذا انفضوا ففى سلام . . . .

كان معاوية يكتب إلى عمرو ، فيقبل رسوله بالكتاب ثم يؤوب فلا يدرى الناس فيم أقبل أو بم آب ، لأن وفد الشام ذا المئين الأربع من الشهود والفرسان

لا يسأل الرسول ولا يسأل الحكم ، أو هو يسأل فى خفية ثم لا يسمع الناس شيئا لا من سؤال ولا من جواب . . .

وهناك ، فى تلك الناحية ، أصحاب على من وفد العراق . لا حيطة ولا حذر . أمرهم لغيرهم مكشوف . لا تكاد صدورهم تستقبل سرا حتى تعيى به فتلفظه على الشفاه وملامح الوجوه . . . حديثهم جلبة . ونقاشهم صياح . وسرهم دائما غرض للتربص ، ولقية من لا يعنى نفسه بمطاردة الأسرار على السواء . إذا اجتمعوا اختلفوا ، وإذا افترقوا اختلفوا فهم دائما فى شقاق . . .

كان على يكتب إلى ابن عباس ، صاحب صلاتهم ، فلا يكاد الرسول يترجل عن مطيته حتى يلتف به وفد العراق يسأله نبأه ويلحف فى السؤال ما شاء . ولا يكاد يدبر حتى ينقلب الوفد إلى ابن عباس ليعلم منه الكتاب والجواب ، وإن جهرة وعلى ملأ الناس . ثم يدور بينهم جميعا الجدل ، وما يجره الجدل من هتك السر ومن إثارة الخلاف والشحناء . . .

وكم سألوا ابن عباس :

« ما كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ . . »

فإذا استأناهم لحين خلوة غاضبوه وأكثروا عليه بالإلحاح . وإذا كتمهم ظنوا به الظنون وتركوا حدسهم يستنبط لهم ألف جواب ! . .

وإذا أعيوه إلحافا فصارحهم ، قدموا الشك فيه ولم يصدقوه :

« ما نراك إلا كذبتنا ! . . »

وهو بينهم دائما حائر . يضيق بهم ، وتبهظه حماقتهم حتى لقد طالما كان يثور ويعنف لهم فى المقال وإن أيقن أنه لا طائل من العنف ولا طائل من الحلم والموادة . . .

وكثيرا ما كان يكلمهم :

« ويحكم ! . . أما تعقلون ؟ . . أما ترون رسول معاوية يجىء لا يعلم أحد ما جاء به ، ويرجع لا يعلم أحد ما يرجع به ، ولا يسمع لهم صوت ولا صياح وأنتم عندى كل يوم تظنون الظنون ؟ . . . »

كان هذا دأبهم ودأبه منذ احتوتهم دومة الجندل مثنى أربعا جاءوا ثلة حتى خلفوها بعد التحكيم فرادى متفرقين ... لاحيطة . ولاحرز لسر . ولاتجرد إيهام لهذه الزمر الحاشدة حيالهم من خصوم وأولياء يضعهم فى أخـــلادها حين علانيتهم أو نجواهم على هيئة وفاق . والناس من ورائهم يشهدون من خلافهم ، ويسمعون من لغطهم ما ينبئهم عن خطر فشل مقدور . . .

على أن أجدر فرقة مما ضمت البلدة الصغيرة إذ ذاك باستثارة الفضول كانت التى وسمها ماضيها البعيد والدانى بالانحراف كل الانحراف عن الإمام — تلك التى تخلفت عنه تخلفا كالحيدة فلا إليه ولا إلى غريمه ابن أبى سفيان ، أو تناءت تنائيا بلغ بها كراهة النصر له إن لم يوغل فى هذه الكراهة إلى أغوارها حتى يصل إلى ألد العداء . فمنها من قعد عن بيعته وعن نصرته كليهما وهو يبدو كمن آثر السلامة فى القعود . ومنها من ثبط نفسه عن المشاركة فيما وقع بينه وبين معاوية وهو مع هذا إلى معاوية أميل . ومنها من كان حربا عليه مجلبة ثم كفه عنه العجز فإذا هو يخلد إلى نجوة ، أو إلى عزلة سياسية يستأنى بها الزمن عسى أن يطلع له سانحة يستطيع فيها أن يعاود لدده ويشبها على الإمام من جديد خصومة مدمرة . . .

من هؤلاء شهدت دومة الجندل كثيرين — أفرادا وشيعا يخالطون فيها الجموع الشاهدة والوفود الرسمية ويعدون بينها أسماعهم وأعينهم هنا وهناك تتصيد اللمحة والهمسة وتجمع النذر لتستخبرها نتائج التحكيم . . .

ففيم مقدمهم ؟ . . فيم خروجهم الآن من معازلهم التى سكنوا إليها كل هذه الشهور ؟ . . أبغية رقبة ؟ . . أعن تشوف وفضول ؟ . .

عجب الناس لهم وأكثروا فى أمرهم بالمساءلة والاستفسار . فإن منهم عبد الله ابن الزبير . وإن منهم المغيرة بن شعبة . وإن منهم عبد الله بن عمر . وإن منهم أيضا سعد بن أبى وقاص تجرى ألسنة بأنه أقبل ، وتجرى أخرى بأنه على عزلته ، وتجرى ثالثة بأنه بين هذه وتلك قد آثر أن يشهد الأمر عن كثب وهو بنجوة لأنه كره أن يخالط الناس وأن تكون له فى ندوتهم المعقودة صورة حاضرة أو خيال منظور . . .

ومع ذلك فالناس لا يملكون عجبهم ، ولا يحكمون أيضا ألسنتهم أن تخوض فى سيرة أولئك الأفراد وأمثالهم ممن تعيدهم غوابرهم إلى الذاكرات وهم مع على على مشاقة أو علاقة لا يفهم قط أن من معانيها الولاء . . . كلا ، ليس الفضول وحده هو الذى ساقهم ، ليست بغية الرقبة ، ليس ولعهم باستباق زمنهم والطفرة من حاضرهم وحاضر الناس على أجنحة الاستقراء إلى تلك اللحظة المرتقبة من مستقبل قريب مجهول ، التى ستطلع عليا لهم على ما يشتهون ، أو على غير ما يشتهون . . .

وحق العجب ثم حقت بعده الريب والظنون ! . . أم لا فيم إذن قد أقبل للمغيرة بن شعبة الذى له ، منذ ولاية على ، رأى فى معاوية كان خليقا بأن يضعه حيث هو الآن من الشام ، غير مدافع ولا منكور عليه حقه فيها ، وإن كرهت طبيعة الثورة التى ما قامت إلا لإقصائه وأمثاله من ولاة عثمان ؟ . فيم أيضا مجيئه الآن ، وإنه ليمضى فى هذا المجمع يشم الريح ، ثم يكر إلى معاوية بلسان بشير ؟ . . ثم فيم ، بعد هذا ، بشراه ؟ . .

وفيم كذلك مقدم ابن الزبير ؟ . . ذلك الأطلس كالذئب الذى أغمد سيفه بعد الجمل وهو مقهور ، واعتزل الأمر وهو كاره ، أيجىء لخبر ؟ . . أجاء ليشهد كما يشهد الناس ، ويسمع مايسمع الناس ؟ . . أتكفيه من هذه الغمرة النظرة ؟ . . لتوشك الشماتة أن تسبق إلى أخلاد الجموع كل نظراته البريئة الخاتلة ، فللشماتة — فيما يحدسون — كان إقباله اليوم على مجمعهم ، يشفى بها نفسه التى أصابها على بالقرح ، إن أطلعت اللحظة المرتقبة عليا هذا وهو مقهور ! . . لكأنهم به يشهد ليشمت . . أو لكأنهم به يسهم فى الأمر ما وسعته حيلة أو وسيلة لتأتى نتيجة التحكيم بما يفسح له فى شفاء ضغنه على الإمام . . . أو لكأنهم به قد استخفته منزلته إذ هو ابن الزبير ، وابن أخت عائشة ، وسبط أبى بكر ، والساعى إلى الإمرة ذات يوم بأبيه ، وصاحب السابقة فى الدين ، فجاء يعرض الآن نفسه فى سوق الاستخلاف ، إذا اضطرب الناس ينشدون رجلا يجمع الشمل ويحسم الخلاف ! . .

وفى الواقع لم تخل أذهان الجموع فى دومة الجندل من أمثال هذه الخواطر التى تطلع تلك الطائفة من المتزلة طامعين فى الخلافة ، لا يشهدون مجمع التحكيم إلا راجين أن يختارهم الناس . فما تغيب عن أحد سابقتهم إلى الإسلام ، ولا استطالتهم بقريش ، ولا — قبل هذا كله — بعد كثرتهم عن الانغماس فى الفتنة التى أسالت الدم ، ونشرت الفرقة ، ونالت من عزم الدولة ، حتى أوشكت أن تسوقها إلى مضيعة . وإذا كان ابن الزبير قد انغمس فى الخصومة التى مزقت الأمة ، فلهم عنه عوض فيمن هو خير منه ، وأنقى يدا وأخلص نية : عبد الله ابن عمر ، أو سعد ابن أبى وقاص . . .

وهكذا يكثر الناس فى الرجلين ، يستنبطون الدوافع ، ويتخيلون النتائج ، ولا يكفون عن ظن الظنون وحدس الأحداس . فما هو أن يظهر ابن عمر بالبلدة الصغيرة ، حتى تتعلق به الخواطر وتشرئب إليه الأنظار . وماهو أن يذكر ابن أبى وقاص ، حتى تستبق الأخيلة ترود مكانه ، هنا أو هناك ، بدومة أو بخارجها ، وتنسج حوله الروايات . . .

وهكذا تنطلق الأمانى بالجموع ، ظنا وتقديرا وخيالا يشطح فيدانى الحقائق مرة ، ثم يجانبها مرات ، وهم مع هذا آنسين إلى أنفسهم ، راضين عما تزخرف لهم حتى ينهض القدر إلى شوطه ، فإذا هو يسبق كل ظنونهم بما تتقطع دون بلوغه الأنفاس ؟ . .

٦

لم يكن سعد بن أبى وقاص ، فى الأغلب ، قد دخل دومة الجندل ، وإن دخلها دونه ذكره ، ولا شهد شيئا من مجمعها التاريخى الخطير ، وإن شهده اسمه الرنان . . . ولعله كره شهود ما تمخضت عنه تلك الفتنة التى توقاها جهده . أو لعله ربأ بنفسه أن يكون من هذا الاجتماع بمكان المقتحم الذى يثير السجب ، ثم لا يسلم من الملامة ، فما ينسى موقفا وقفه بماضيه ، وعاب فيه على الخلاء

للمقتحمين شهودهم ما لم يدعوا له غب مصرع عمر واجتماع أهل الشورى لاختيار خلفه . . .

كان ذلك والأمة من مقتل ابن الخطاب فى جزع ، ومن اختلافها بعده على نفسها فى خشية إن هى لم تجتمع على أحد الستة الذين رشحهم الخليفة الصريع لولاية الناس . وكان الستة فى دار المسور بن مخرمة ، يديرون بينهم حديثهم بعيدا عن العيون والأسماع ، ثم لا يكادون يدرون إلى أيهم يدلون بالبيعة . . . وعندئذ أقبل عمرو بن العاص ، ثم أقبل من بعده المغيرة بن شعبة ، وقد استخفهما الفضول وغرتهما مكانتهما ، فانساقا إلى باب الدر ينصتان ، أو يحاولان الإنصات. فإذا سعد يبادرهما ، فيأخذ عليهما مسلك المقتحم الدخيل ، وإذا هو ينهرهما نهرا شديدا ، ثم يحصبهما بالحصباء ، ويطردهما وهو يقول :

« جئتما لتقولا حضرنا الشورى ! . . »

وحرمهما الفخر الذى سعيا إليه ! . .

أجل ، لعله ذكر هذا الموقف فأبى لنفسه أن تلقى ما لقيه منه إذ ذاك المغيرة وابن العاص ، وبقى مؤثرا نأيه — عن دومة وعن مجمعها — حيث اختار وأقام . . . على أى حال كان الرجل معتزلا ، مخلصا — فيما بدا — لعزلته ، مؤمنا كل الإيمان بأنها أسلم له فى دينه ، وإن لم تكن أجدى عليه فى دنياه ، فهو منذ تخلفه فى بلدة الرسول عن بيعة على لم يسهم فى شىء من الأمور العامة ، بل قد انسلخ عن مجتمعه الذى عاش فيه خير أيامه ، وأبرد جذوة نشاطه الذى أسلكه فى الأعلام ، وأخلد إلى خلوة كادت تضمه وراء العيون والأسماع . . . وإنه الآن ليؤثر على بوارق الحرب والسياسة ، وأمجاد البطولة ، ورنة الذكر والصيت ، حياة هى الخمول يقضيها فى البادية بين غنمه ، راعيا كالرعاة . . .

لكن ابنه عمر لا يرضيه هذا الخمول من أبيه . فالفتى طموح . شغوف بتسنم غوارب الشهرة وإن لم تكن هذه الشهرة من غرس يديه وكانت ظلا لأب يستطيع ، لو شاء ، أن يتبدى لقومه فى هيئة عملاق ! . . والفتى منهوم بالعلياء ، أو هو فى الحقيقة مولع بذيوع الاسم واستطارة الذكر وليس يضيره أن يأتيه هذا الذيوع وهذه

الاستطارة بأية وسيلة ومن أى طريق . ولسوف نراه من بعد يتلمس إلى مبتغاه كل سبيل حتى ليوطع إليه حين تحق عليه شقوته ، غير متأثم ولا ثقيل الضمير . وهو يسبح فى بركة من دماء الحسين الشهيد ! . .

لا يرضى عمر بن سعد بهذا التحول من أبيه فيسرع إليه ، بمعتزله الذى اختاره بالبادية عند ماء لبنى سليم ترعى حوله غنيماته . . . ويشهده الرجل ولا يتبينه وهو قادم عليه من بعيد . ويرمى بنظرة مستريبة إلى هذا الراكب المجد الذى يقطع الطريق صوبه فوق مطية لا تكاد قوائمها — لفرط سرعتها — أن تستقر على الرمل . . . فإذا هو يتوجس . وإذا هو يستعيذ :

« أعوذ بالله من شر هذا الراكب ! . »

وتمضى من الوقت لحظات ثقيلة . وتأخذ المطية فى الدنو . وتتضح قسمات راكبها فيسرع الشيخ إلى ولده فى لهفة يستخبره أمره الذى أركبه البيد :

« مهيم — (ما شأنك) ؟ »

ويبادره الفتى ، من بين لهثاته وما تزال قدمه فى الركاب :

« أبت ! . . . التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك ، حتى تفانوا . ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد حضر ناس من قريش عندهما . . . . »

ويتريث مليا ليلتقط أنفاسه والشيخ صامت يصغى وينتظر . . .

فهل هذا الخبر جديد ؟ . . إن الناس ليتقولون فى هذه الساعة على سعد أنه خرج إلى هذا الجانب من الصحراء ليتشوف لنفسه الأنباء التى تشغل الجميع . . .

ويعود الفتى الى حديثه ، يضغط على الكلمات والحروف لتؤدى عنه بعض ما يرمى إليه :

« . . . فاشهدهم ! . . إنك صاحب رسول الله ، وأحد أصحاب الشورى ، ولم تدخل فى شىء كرهته هذه الأمة . . . »

لكن أباه يبتسم فى هدوء من لم تثر فيه الكلمات المغرية أية حماسة ، وإنما يقول بإيجاز حازم :

« لا أفعل ! . . »

« احضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غدا ! . . »

فلا يزيد جواب الشيخ عن هزة من رأسه تفصح عن تأبيه .

ويشتمل عمر . ويمضى يحثه ويثيره لعل جذوة المجد الخبيئة فى صدر الشيخ ينتفض عنها رماد الخمول فتعود للتوهج :

« يا أبت احضر ! . . فإنك أحق الناس بالخلافة . . »

غير أن الوالد لا يهتز بهذا التحريض ، ولا بهذه الخايلة المغرية بالسلطان الباذخ الذى يكاد يجثو له عند قدميه ، بل يقول فى تؤدة ورفق كمن يلقن الفتى درسا لا يعيه :

« مهلا يا عمر ! . . إنى سمعت رسول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى . يا بنى . . إنى لو كنت غامسا يدى فى هذا الأمر لغمستها مع على . . »

ويدهش الفتى وتتسع حدقتاه ولكنها على أى حال الدهشة التى قد تفسح للرجاء . فلعل أباه مسهم فى الأمر فى جانب منه إلى ناحية على فخارج بهذا من عزلته ، معاود نشاطه الذى لا ريب حقيق بأن يفتح أمامه الأبواب ! . . الآن قد طمع عمر فى تحريك الشيخ ! . .

ويقول سعد وقد رأى سكون ولده ، ويشهد فى الأفق خطوطا داكنة ترسم الظلمة :

« أقم عند أبيك ليلتك هذه . . . »

ولكنها ليلة بلا مضجع ! . . فالرجل يقظان ، والابن يقظان قد تحركت عليهما أشجانهما فخالف الأرق منهما الجفون . . . كلاهما أرقه همه . الصحابى الجليل القانع يجتر خطته التى رآها جنبته إلى ليلته هذه فتنة مضلة ، والشاب الطامح يشغله وهمه الذى أطلع له آماله دانية ان تلبث حتى تتوثب نحوه عرائسها بكلمة يلفظها فم أبيه . . . وحيالهما هنا الليل ينساب ثقيلا بطيئا له فى النفس وحشة كأنه الرقطاء تزحف على الرمل . . .

وفى غمرة الهدوء ، ومن بطن الظلمة التى لفت المكان ، ينبعث صوت هامس حزين :

« هربت بدينى والحوادث جمة وفى الأرض أمن واسع ومعول
فقلت معاذ الله من شر فتنة لها آخر لا يستقال وأول ... »

فينتفض الفتى . ويمد عينا فى السواد حوله ، وأذنا متلصصة تسترق الهمسات . . .

ويهمس الصوت ثانية ، بنفس النبرة الحزينة :

« ولكننى زاولت نفسا شحيحة على دينها تأبى على وتبخل .
فياعمر ارجع ... ... »

وعندئذ يثب عمر ! . إنه إذن أبوه قد كشف عن نفسه وهى أشد ما تكون إصرارا على ما كانت عليه أمس ، لم يحركها تحريضه ، ولا إغراؤه ، ولا هذه المخايلة بالسلطان الدانى الذى يوشك أن يقدم اليوم عليه ليجثو آنسا عند قدميه ! . .

إنه إذن وهم وسراب ما رجاه من الشيخ . . .

ولا يتلبث الابن حتى يطلع النهار فما له الآن مقام بأرض تموت فيها أطماعه ! . . إنما ينفض عن نفسه تعبها ، وعن أعضائه تفترها ، ويسرع يعد راحلته . . .

غير أنه لا يمضى حتى يقذف أباه ببعض حنقه عليه كلاما جافا لا لين فيه ، كله إنكار وسخرية :

« يا أبه ! . . أرضيت أن تكون أعرابيا فى غنمك والناس يتنازعون الملك فى المدينة ؟ . . »

وإذ ذاك يدع الرجل ما كان من حلمه وترفقه به ، ويدفع بيده فى صدره ينتهره :

« اسكت ! . . والله لا أشهد هذا الأمر أبدا . . . »

ولا يعقب الفتى بشىء ، بل يذهب فيمتطى راحلته ويلوى بعنانها صوب الشمال ، وإن بنفسه لما يشبه النقمة ، وإن بحلقه لغصة ، وإن كيانه كله ليهتز

من غضب ومن عجب لهذا الشيخ الذى آثر رعى الأغنام على سياسة أمور دولة سرحت نجومها بين قرنى الشمس ، وعلا عرشها على سماء العروش . . . وفى سكون . ورأسه ناكس على صدره ، يضرب فى عرض الصحراء . . .

وحيال غبشة السحر ، يقف الأب كأنه قطعة تخلفت من ظلام الليل الذاهب ، يشيع ولده بنظرات فيها أسى وفيها رثاء ، لا تزال تمضى وراء الدابة خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، حتى تذوب بفتاه فى الظلمة . . . فإذا غابت عنه إلا آثارا حفظتها الرمال الندية ، تلونت النظرات المشفقة الأسيانة بالرضاء ، ومسحت على ملامحه الغضى بأطياف من الطمأنينة . فلقد ذهبت الدابة ، ومضى الراكب ، وانطوى معه شره ، وبقى الراعى الشيخ السلام المروح ، والسلامة للدين . . .

* * *

طموح عمر بن سعد الآن فى مغربه . . . ولكنه لايزال يلح عليه ، ويتشبث به تشبث المحتضر بدنياه ، ويتعجله ابتغاء المجد لنفسه من أهون سبيل . الفتى لا يريد أن يقنع بهذه الفكرة التى تسيطر على أبيه لا يريد أن يستسلم لها . لا يسعه قط أن يدع الشيخ وما اختار من منزل بالبادية على حافة ماء بين غنيمات لا ينال منها ، هو الابن الظامئ للشهرة ، سوى الخمول . . .

ودومة تكتظ . . . الناس تقبل عليها من كل ناحية . الأحاديث تجرى فيها ، همسا تارة وعلانية أخرى ، بأنه لا مخرج للأمة مما قد وقعت فيه إلا بالعدول عن على وعن معاوية كليهما إلى امرئ فى الرجال لم يلوثه هذا التنازع على السلطان ، ولم تختضب يده بدم الفتنة ، ولم ينطق له لسان بحرف فى مساجلات هذا الخلاف .

فمن فى الأمة كأبيه ؟ . .

من الذى يلوذ به القوم ، من هذه الطائفة ومن تلك ، ومن بقية أهل الإسلام فى كل بلاده حين تدلهم الخطوب ، وتهم الكروب ، ويتلفتون يتلمسون الملاذ ؟ .

إنه هذا الذى يقبع فى هيئة الرعيان ، بين غنيماته ، على حافة ماء ! . .

لا سواه ! . . فهو بقية أهل الشورى من أصحاب رسول الله ، ذهب أربعة إلى ربهم يبتغون رضوانه ، وبقى خامس انغمس فى الدماء إن تكن البيعة له فنصف

شعبه عليه ، ونصفه الآخر من الذين معه قد هان حقه عليهم حتى أنزلوه الآن بمنزلة سلعة تعرض في السوق ! . . .

ومع ذلك فهذا الأب العنيد يأبى . ولا تزال الفكرة القديمة ، التي راودت ذهنه بالمدينة من عامين ، باقية غضة على جدتها في نفسه ، وعلى قوتها أيضا ، تسيطر عليه ، وتستأثره وهو أخو بادية ، راعى غنم ، في بنى سليم ! . .

كلا ، لن يستسلم الفتى . . لا يدع هذه الخلافة التي تومئ لأبيه وتقول : « هيت ! » تلوى جيدها عنه يائسة إلى حيثما يتلقفها ذراعا أى عابر سبيل ! . .

وإذا كان هو قد فاته التوفيق ، وفشل في إغرائه أو إقناعه ، فلعل غيره يكون أحظى لدى الشيخ ، وأسعد جدا ، فيسعه أن يلين من صلابته ، وينفض الغبار عن جذوة همته ، ويرده إلى القبول . . .

ويسرع عمر إلى أخيه . .

وينطلق عاصم بوسوسة عمر مثل انطلاقه هذا من قبله فيركب الصحراء إلى الراعى الشيخ العنيد . . .

ويتلقى الأب فتاه الثانى بترحاب . . .

فإذا قر القادم ، وهدأت أنفاسه ، وجرى الحديث بينه وبين أبيه رخيا في غير تلهف . لينا في غير اقتحام ، عاج الابن بكياسة الأريب إلى ما جاء فيه . . .

يرسل عاصم عينا ترود المكان الفسيح الذى يحتويهما ولا يحده إلا التيه . . لكأنه ينبو بهذا العشب الأخضر الذى يقتحم أطراف الماء ! . لكأنه يضيق بالقطعان والثغاء والرغاء ! . . لكأنه يستوحش لهذا المحل الذى تقطنه خيام تناثرت على الأديم الأصفر من رمل شاحب شحوب العدم ! . أما غير هذا الفراغ والشحوب والوحشة ؟ . .

ويرد عينه من شرودها إلى أبيه ليقول ، وهو يبدو كمن لا يبالى ولم يستلهم عزمه ولا أعمل الفكر ليقول :

« يا أبت ! . . الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ها هنا ؟ . . »

ويدفع بصره ثانية ليسبح في التيه . . .

ويسكت الأب . . .

ويسكت الولد أيضا . إنه ليحمل نفسه حملا على السكوت حتى لا يشى بما في نفسه . ولكنه بين اللحظات يدير النظرة الخالسة في ملامح أبيه لعلها أن تقع فيها على ما ينبئه عن أثر ما قال . . .

غير أن الشيخ لا يفوته القلق الذى يستره صمت ولده . ولا حيرة النظرة الخالسة . إنما يفطن ويتريث فما يغيب عنه شيء مثل هذا الحديث . . .

ثم يضحك أيضا . . . لكنه الآن أرق جانبا وألين عريكة منه حينما حدث عمر . فليس يضيق من عامر الكيس الرقيق بجلافة رعناء كجلافة أخيه . وليس ينتظر منه مثل إلحاح ذاك وانهتاك سره . وهل هو — فيما يظن — إلا رسول ؟ . .

ويرمق بعد هنيهة ابنه عاتبا ، ويقول له فى رفق وهوادة :

« يا بنى . . . أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأسا ؟ . . »

ثم يهز رأسه مرات هزة المتأبى المنكر ، ويتابع كلامه بنبرات حازمة تبين عن إصراره :

« . . . لا والله حتى أعطى سيفا إن ضربت به مؤمنا نبا عنه ، وإن ضربت به كافرا قتلته ! . . »

عندئذ يغضى الفتى على حياء . . ثم يمضى يتفكر . . . ثم يدير فى باله هذه الفكرة التى انبثقت فيه فجأة كما ينبثق نبع الماء من صخرة صماء . . . أيكون أبوه فى هذه اللحظة قد استنارت بصيرته فرأى على النور اللهم أن الفتنة التى أخذ نفسه بتوقيها أمسه ، هى اليوم باقية ، وهى غدا باقية ، وهى أيضا باقية بعد هذا التحكيم الذى قد ظنه الناس قاضيا عليها ورادا الأمة إلى الألفة ؟ . . أثمة حقا سيوف ستضرب ، وقتال سينشب ، ومؤمن سينزو على مؤمن فيسفك دمه بعد كل ما قد سلف من ضحايا ودم فى تلك الأيام السود ؟ . . ألهذا يحجم الشيخ ويحبس نفسه مؤثرا المكث بالبادية وعيشة الرعيان ؟ . .

ويتم سعد ما بدأه :

« يا بنى . . . إنى سمعت رسـول الله يقول : إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى . . . »

ثم يرتد به ذهنه إلى حقبة من ماضيه ، وإلى صحبة رضية كان فيها أمن نفسه فى ظل صاحب عظيم كريم ، وإلى كلمة سمعها حينذاك من شفتى محمد رطبت صدره ، وأطفأت فيه نار الأطماع التى توقدها دنياه :

« قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه . . . »

وصدق رسول الله . . .

وكان هذا حسبه من حياته . فقد اتقى الفتنة ، وفر بدينه إلى الصحراء ، وغنى بهذا الكفاف من عيشة البادية الذى قنعه به الله . . .

وكان هذا حسب فتاه . . . فلن يعدل الشيخ شيئا بعزلته فى هذه المفازة الجرداء وإن كان ملكا باذخا يبدأ مع المشرق ويكتمل بالغروب . . .

وكان هذا أيضا حسب تـكلم الجموع الحاشدة بدومة الجندل ، الصاحية على لغط ، النائمة على أحداس . . . فقد ختم سعد بحديثه مع ابنيه صحائف فصولها المطولة ، وما لماها كانت علقته عليه من آمال أو احتمالات . . .

* * *

ويرجع عامر . .

يرجع وهو ، فيما نحسب ، مقر أباه على موقفه ، راض له بعزلته التى جنبته الفتنة أمس ، وهى كفيلة بتجنيبه مثيلات لها يوشك الغيب أن يكشف عنها أستاره ، ليداهم بها الناس فى القريب . . .

وتتهاوى مطامع عمر . . .

تتهاوى ، فيطوى سجله على الشهرة السهلة الدانية . ويغلق نفسه على آماله ، ثم يحملها على الانتظار ليوم قابل قد يوسع له فى المجاز إلى بغيته وإن على حساب مكارم الخلق ، وإن بلغها سابحا على بركة من دماء الشهداء ! . .

ويلوى الناس نظراتهم إلى جديد . . .

يلوونها عن راع شيخ بالبادية ، على حافة ماء لبنى سليم ، ويعضون بها تعس وتطوف فى هذه الزمر من ذوى الأسماء الرنانة ، ومن أصحاب الأصول والأنساب ، ومن رجال السابقة فى الدين . .

فأين هنا بغيتهم ؟ . .

لتوشك العيون أن تطوف وتدور ، ثم تدور وتطوف ، ثم يعييها الطواف والدوران فلا ترى حيالها — بعد سعد بن أبى وقاص — غير واحد فى القوم تتهافت عليه العيون والظنون . . .

ذاك عبد الله بن عمر بن الخطاب .

أجل ، لا سواه ! . . .

إنه امرؤ له صحبة . وله سابقة وله ورع . وهو من القلائل الأولى لم يدخلوا فى هذه الفتنة التى كرهتها الأمة الآن . وكان له إلى جوار هذا ذكر فى الشورى إن لم يلحقه بأهلها فقد وفر له من فخرها مالم يتوفر لغيره من أجلة الصحابة الأحياء . . .

وهو ابن عمر أيضا ! . . وحين يذكر عمر فاسمه إذن هالة من النور تخطف الأبصار . . .

على أى حال ، اجتمعت فى الرجل كل المزايا التى اصطلحت أفكار الناس حينذاك على وجوب اجتماعها فى الأمير الجديد ، فلا عجب أن تلغط به الألسن ، ولا عجب أن تنسى به راعى بنى سليم ! . .

٨

ما شاعت قط حينذاك شائعة بدومة الجندل ، وربما ببلاد الدولة الإسلامية عامة على انفساح رقعتها وتعدد ناسها وأجناسها ، كتلك التى كانت ترى الخير فى الخلاص من هذا الخلاف الذى عانته الأمة ، وطعمت المر من ثمره ، بالخلاص ممن أثاروه وأذاقوا وطنهم علقمه ... ما من فكرة شغلت الخواطر ورددتها الألسنة تلك الأيام انتشرت فى الجموع بدومة كهذه . نخلع على وإقصاء ابن أبى سفيان

حسم للنزاع . وحسم النزاع عود إلى السكينة . وفى ظلال السكينة تستطيع العواطف أن تهدأ ، وتستطيع العقول أن تفكر ، ويسع الناس بعد هذا وقد تحللوا من عهودهم لهذا الرجل ولذاك ، وارتد أمرهم إليهم ، أن يعيدوها عندئذ شورى جديدة ، يختارون بها لأنفسهم الأمير الذى يرتضونه وتسكن باختياره ثائرة الخصومة ونوازع الشقاق . . .

كانت هذه هى الوساوس التى تخامر القوم وما يزال الحكمان لم يلتقيا ، وما تزال الحكومة المرتقبة تتعثر بينهما لم يوردا فيها ولم يصدرا عنها برأى ولا بيان. وكان حقا لهذه الوساوس وأمثالها أن تجد الطريق إلى الأنفس ممهدا معبدا لا عوائق فيه . فالعامة والخاصة من الفريقين المختصمين ، ومن الطوائف الشاهدة جميعا ، كانوا قليلى الإيمان بالتحكيم ، قليلى الرجاء فى جدواه . .

بل قد كان هذا أيضا شأن على . وشأن معاوية سواء بسواء . كلا الرجلين كان ينتظر على قلق ، وكان يتصبر ولا يصبر وعندما نعرض لحال ابن أبى سفيان — فأمر على هنا معروف — نجده قلقا وتوجسا وحيرة . إنه لا يكاد يأمن حتى لهذا الحكم الذى بعثه وهو يرجو الخير على يديه . لا يكاد يثق فى إخلاص عمرو له ولغايته التى مضى فيها لمجمع التحكيم . وإذا كان قد أولى ابن العاص كل ثقته عند مخرجه إلى دومة فإن الأنباء لم تن تأتيه وافدة بما يهز هذه الثقة هزا عنيفا ويوشك أن يقتلعها من جذورها التى حسبها ثابتة . . ينصح عمرا ليتحرز عند التقائه بخصمه أبى موسى حتى لا ينضله الأشعرى فى الحكومة ، فيطمئنه عمرو ويقول :

« . . . أقل الاهتمام بما قبلى ، وارج الله تعالى فيما وجهتنى له . . . إنك من أمرك على مثل حد السيف ، لم تنل من حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت . ونحن نرجو أن يصنع الله لك خيرا . . . »

ويطمئن عاهل الشام لحكمه كل الاطمئنان ، حتى لقد يدع له الحرية كلها فى أن يقول ما يشاء ويفعل ما يرى دون إرشاد منه ولا توجيه يتجلى هذا حين يسأله عمرو رأيه :

« أرأيت إن ذكر أبو موسى عليا ، وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه ، ما أقول ؟ . . »

فيكون الجواب الذى يبادره به معاوية وهو واثق فيه ، آمن له :

« قل ما تريد وترى . . . »

لكن هذه الثقة لا تلبث — كما قلنا — أن تهتز فتوشك أن تتقوض وتنهار وتنبت فى مكانها الشكوك والظنون . . . فلقد ذهب المغيرة يتشوف له الأخبار بدومة ، ويلق هذا الحكم ويلق ذاك ليعرف ما أبطناه ، ثم يعود فيقول لمعاوية عن ابن العاص :

« . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذى تعرف . وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه ، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه ! . . »

ويختبل الأمر على الداهل وينوشه القلق ثم تفترسه الوساوس فى شأن هذا الصاحب الذى يتحدث الناس بأنه عامل لنفسه ، موجه الأمر فى التحكيم بحيث تنتهى إليه هو دونه هذه الإمرة التى كافح لها كل هذا الكفاح المرير ... تختبل أمره عليه . وتنتكث ثقته ، ولا تخلى له الأحاديث التى تروح وتغدو فى لحظة واحدة من الطمأنينة وراحة البال . بل إن هذه الأحاديث لتغلو كل الغلو فى تصوير « أزمة الثقة » بين الصاحبين حتى لتسويها قصة ، هى أدنى إلى التلفيق والاختلاق منها إلى مسايرة الحقيقة والمنطق ، تبين عمق الهوة بينهما إلى ما بعد انقضاء التحكيم وحين لم تعد حاجة لحكم كعمرو يتعلق به مصير ابن أبى سفيان فيخشاه . . ولكنه غلو إن يكن ينحو إلى الخيال فإنه ، على أى حال ، دلالة تؤيد هذه « الأزمة » التى أسلفناها ولا تنفيها بحال ، لأنه لا دخان بلا نار ! .

تقول القصة . . .

ويكون آخر اجتماع . . ويمضى أبو موسى يعرض أسماء من يرى فيهم خيرا ، ومن يرى من بينهم من هو أحق بإمرة الناس . . ويمضى عمرو يرفض ، ثم يذكر اسم معاوية . فإذا أباه الأشعرى بادره عمرو :

« فآتيك بآخر ليس هو بدونه . . »

« من هو ؟ . . »

« أبو عبد الله عمرو بن العاص ! . »

ويعلم أبو موسى أن خصمه يلعب به ولا يريد الفراغ — لأمر في نفسه — مما قد بعث فيه فيغضب . وينفض يده من حكومة لا جدوى فيها ، ويلحق بمكة .

ويرجع عمرو إلى الشام فينزل منزله دون أن يأتي معاوية أو يحدثه بشيء . ويقلق معاوية لاحتجاب رفيقه عنه فيبعث إليه يدعوه ، فإذا جوابه عندئذ له جواب لا يخطر ببال ! . .

يجيبه عمرو :

« إنما كنت أجيئك إذ كانت لي إليك حاجة ، فأما إذا كانت الحاجة إلينا فأنت أحق أن تأتينا ! . . »

إذ ذاك تتحقق وساوس معاوية ، لكن ما من سبيل له إلا إظهار الخضوع . . .

ويدبر الداهل في نفسه أمرا يراه خليقا بأن يضع هذا المستعلي عليه حيثما يجب أن يكون وتكون أطماعه . . . ثم يدخل عليه منزله . . .

ولا يقوم عمرو ليستقبله ، ولا يدعوه أيضا لمجالسته على فراشه الذي اتكأ عليه في خيلاء ، إنما يدعه يسعى نحوه ، ثم يقتعد الأرض عند قدميه ، ثم لا يكاد يلتفت إليه ! . .

ويتحدث الرجلان ساعة ، هذا يرفق كل الرفق ، ويظهر الخضوع كل الخضوع ، وهذا يعنف كل العنف ، ويظهر الصلف كل الصلف ، حتى إذا بلغا مقطع الجد من حديثهما ، أخرج عمرو كتابا فنشره ، وقال :

« هذا الكتاب الذي بيني وبين أبي موسى ، عليه خاتمي وخاتمه ، وقد أقر بأن عثمان قتل مظلوما ، وأخرج عليا من هذا الأمر ، وعرض علي رجالا ، لم أرهم أهلا لها . . . »

ثم يتمهل برهة يعود بعدها إلى الكلام في اعتداد يداني الغرور :

« . . . وهذا الأمر إلى ، أستخلف من شئته ! . . قد أعطانى أهل الشام عهودهم ومواثيقهم على ذلك . . . »

ويبدى معاوية الاقتناع ، ويداوره مليا ، يداعبه حينا ويضاحكه آخر كأنما ليس فى الأمر ما يسوءه ، فإذا طال الوقت ، ورآه قد أنس له ، وقال :

« يا أبا عبد الله ، هل من غداء ؟ . . »

فيلتفت عمرو إلى من حضره من رجاله وغلمانه — الذين جمعهم بمجلسه ليأمن على نفسه فجاءات « غريمه ! » — ثم يضحك ويجيب :

« أما والله شىء يشبع من ترى ، فلا ! . . »

عندئذ يدعو معاوية أحد مواليه الذين بالباب ويأمره :

« يا غلام ، هلم غداءك ! . . »

ويؤتى بالطعام من قصر الماهل . . . ويضيق المكان فليس يتسع لرجال الصاحبين ، فيقول معاوية :

« يا أبا عبد الله . . هلم مواليك وأهلك يأكل أصحابك . ثم يأكل أصحابى بعد . . . »

ثم تبدأ الوليمة كلما فرغ أحد رجال عمرو من طعامه قام فجلس صاحب لمعاوية ، حتى لم يعد أحد بالقاعة إلا منهم ، وحتى يتلفت ابن العاص فإذا هو حبيس بين هذا الجمع الذى لا يأمنه على نفسه وكل مواليه وأهله خارج الدار ! .

وبهت الرجل وعينه تنتقل من الباب المغلق إلى أولئك الذين أحاطوا به . وهتف وهو مقهور :

« فعلتها ! . . »

فابتسم معاوية وقال باستخفاف :

« أى والله ! . . وبينى وبينك أمران اختر أيهما شئت : البيعة لى ، أو أقتلك ! . . »

« فأذن لغلامى وردان حتى أشاوره . . . »

« لا تراه والله ! . . ولا يراك إلا قتيلا أو على ما قلت لك . . . »

ولم يكن إذن بد من التسليم ، فقال ابن العاص :

« فأولنى مصر . . . »

« هى لك ما عشت » .

ودعا معاوية أصحابه والخواص من أهل الشام يشهدهم ، ولم يدع أحدا من رجال خديفه :

وقال عمرو يقر على نفسه :

« قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه . »

وبايعه فبايعوا ولم ينصرف عاهل الشام إلى داره ، ذلك اليوم ، إلا خليفة ! .

تلك هى القصة ! ..

إنها لا ريب حديث خرافة ، ووليدة صناعة واختلاق . ولكنها أيضا دلالة لا سبيل إلى إغفالها حين تعرض لهذا القلق الذى ركب الناس جميعا من هذه الحكومة ، ولهذا الشعور الذى جعلهم قليلى الإيمان بالتحكيم ، قليلى الرجاء فى جدواه . . .

وفى الحق ، لم تكن الجموع بدومة ، حين تلاغطت بفكرتها القائلة بخلع على وإقصاء خصمه ، بالمتجنية على شواهد الحال ، ولا بالتى تعتسف الحلول دون أن تستشفها من مقدمات ثابتة ملموسة . إنما كانت تستهدى حاستها الجماعية ، أو وعيها ، أو أيما اسم يوائم شعورها اللهم حينذاك من أمثال هذه الأسماء فتستجيب لمسماه .

فما ينسون أن عليا قد أكره على هذا التحكيم وإنه لصاحب الأمر الذى لا ينكر عليه حقه فيه بتحكيم أو بغير تحكيم ! .. وما ينسون أيضا أن معاوية إنما احتال بهذا التحكيم ، ليلم من شعث جيشه الذى تهاوى فى المعركة تهاويا دانى الهزيمة ، وليمد عدته خلال الهدنة لتهيئة جيش جديد ، أفيستسلم إذن أى الرجلين ، وأحدهما معه حقه ، وثانيهما معه أطماعه وجنده المعد المنظم ، لكلمة يلفظها الحكمان ! .

كلا ، ولا جدال ! . .

لهذا آمن الناس بأن هذه الوسيلة للإصلاح قليلة الغناء ، مقضى عليها بالفشل من قبل أن تكون فعلى حساب أحد الخصمين ستأتى نتيجة الحكومة وما هو إذن براض عنها وإن نطقت بها عصبة من الحكام ؟ . .

وندع مشاعر الناس . وندع حديث الظنون والوساوس التى تغرق فى الخيال وتشطح وراء الأمانى أو الأوهام على عادتها فى الأزمات والخطوب . . . ندعها جميعا فإذا بنا من الوقائع الثابتة فى مثل ما تقودنا إليه الأقاصيص الملفقة ، والأحاسيس المحمومة ، واللغط الذى قد لا يراد به إلا إزجاء وقت الفراغ . . . ذلك أننا لا نعدم أن نقع فى الأسناد والحوادث على ما يبرر استهانة الناس بوسيلة الإصلاح التى تداعى إليها الفريقان المختصمان ، وما يقرهم على كفرهم بها ، وغضهم من قيمتها ، والتماسهم — فى الأمانى أو الأفكار — حلا آخر يبعد عليا ومعاوية عن الميدان . . .

ونضرب الأمثال من الأسناد والحوادث فنجتزئ بالقليل . . .

يوصى معاوية عمرو بن العاص حين يبعثه لقاء أبى موسى ، فيقول فيما قال :

« إن أهل العراق أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا أهل الشام راضون بك . وأرجو فى دفع هذه الحرب قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ... »

فليس مبتغاه إذن إلا هدنة تمهل له ليزيد قوة يكون بها أقدر على بلوغ ما يتمناه . أما أن تجتمع الأمة برأى الحكمين وتعود لها وحدتها ، فذاك أمر لم يكن — فيما بدا من كلامه — يرجوه ! . .

وبسر بن أرطأة يقول لمعاوية عند عقد الهدنة :

« . . . والله إن الشام لك خير من العراق لعلى . وما فى يدك لك ، وما فى يد على لأصحابه دونه . فإن كنت إنما سألت المدة لإعداد العدد وانتظار المدد فنعم ! . »

فلم يخالف الرجل بقوله عن نية مولاه ! . .

بل ابن عباس أيضا قد قال مرة للحرورية :

« . . . قد أخذ على الحكمين ألا يجورا . وإن يجورا فعلى أولى من معاوية وغيره . . . »

فهو — ورأيه جماع رأى أهل العراق — لا يرى الأمر إلا لعلى ، عدل الحكمان أم جارا ! . . وما نرانا نخالفه فى شىء فحق الإمام فى الأمر معلوم ، لا ينكره إلا مسرف فى الحيف ، موغل فى الإبطال . ولكننا نسوق قوله لأنه يكمل

الصورة التي تطلع لنا الحزبين جميعاً وكل منهما لا يرضى بغير الفوز بمبتغاه ، حكم التحكيم له أو حكم عليه ! . .

وكذلك كان ! . .

وكذلك اهتزت ثقة الناس في الحكومة ورأوا نتيجتها قليلة الغناء من قبل أن تكون . . .

وكذلك ترددت شائعاتهم ، تطرق مرة باب سعد بن أبي وقاص ، وتطرق أخرى باب عبد الله بن عمر . ولو قد أملى لها الواحت تطرق كل باب تشيم وراءه رجلا من أولئكم « المعتزلة » من قريش ، أهل السابقة وذوي الأحساب ! . .

لكن الحكومة تسير سيرها ، بطيئة متعثرة . ثم تفاجئ الدنيا فتطلع عليها بأعجب نتيجة أسفر عنها تحكيم . فليست بيانا ، ولا رأيا ، ولا قضاء مستق من الدستور السماوي الذي أخذ العهد على الحكمين أن يقضيا بما فيه . . . إنما كان خلطا في موطن استقامة ، وعبثا في مقام جد ، و « لعبة » جديدة كألاعيب معاوية ورفيقه ابن العاص تفوق كل سابقاتها جنوحا إلى المحال ، وزيغا مع الهوى والضلال ! . . .

« تم بحمد الله الجزء الخامس »

ويليه الجزء السادس والأخير

مطبعة الحريّة - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠